

عبدالله من الكواكب

عباس محمد العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

عبدالله بن محمد العقاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنَةُ "ك"

دار الحضرة مصر للطبع والنشر

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

سِيرَةٌ مُهْشَدَةٌ

بدأت بحثي في سيرة الكواكبى فرأيت أن أعود إلى تاريخ « حلب » لأعرف الكواكبى من المدينة التي نمته وأنشأته ، وأعرف من تواريختها وأحوالها أين تقع المزية التي كان لها الفضل في نشأته وتفكيره والاتجاه به إلى وجهة حياته .

ويعلم قراء العربية أن مدينة حلب إحدى المدن « المخدومة » من الناحية التاريخية بين مدن الشرق العربي القريب ، ومعنى « بالمخدومة » معناه في اصطلاح العرف الحديث ؛ ومعناها في هذا الاصطلاح أنها مدينة لقيت من يخدمون تاريختها من أبنائها والنازلين بها من العرب وغير العرب ، فكتبوا عن حوادثها وعهودها ومعاملها وأعلامها وطبيعة إقليمها وخبرات أرضها ما لم يتفق نظيره لغير القليل من مدن العالم القديم . فلم يفهم من تسجيلاتها شيء توافر لمدينة غيرها ، وما فاتها في هذا الباب فهو الذي فات المؤرخين الأقدمين أن ينظروا إليه على عادتهم في تسجيلاتهم ومحفوظاتهم عن كل مدينة وكل زمان ، لا حيلة فيه للمؤرخ الحديث غير إكمام الرواية والخبر بالتفسير والتقدير .

إلا أنني رجعت إلى تاريختها في هذه المرة لأعرف « الكواكبى » غاية المعرفة التي تستطاع من العلم بموطنه وماضيه . فلم أفرغ من مرجع واحد حتى تمتلت لي المزية التي بحثت عنها وبدأتني أنها كافية وحدها ولو لم تشفعها مزية أخرى ! .

حلب مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم ، ولم تفصل قط عن حوادثه وأطواره ، كأنها المرقب الذي تتعكس فيه الأرصاد فلا تخفي عليه خافية ، ولا يعزل بيدها عن دائمة ولا نائية .

ولم أرني أخوض بعيداً من الصفة في هذا البحر الراخر بالأخبار والأنساب لأعلم من أمر أسرتي وبلدي أن أسوان لم تنفصل في عصر الكواكب خاصة عن حلب ، على ما بين البلدين من بعد المسافة بحسب الفراسخ والأميال .

إن أجدادي — لوالدى — سلالة كردية تفرعت أصولها زمناً بين ديار بكر وأورفة ومرعش ، ورأيت آخر من لقيته منهم يلبس العمامة الخضراء كما يلبس الطربوش العثماني والقلنسوة الكردية . ولم يزل بيت أخواى في البلدة يعرف ببيت الشريف ويسجل في مكاتب البرق بهذا العنوان .

وكلت أسأل كبار السن منهم مازحاً : من أين لكم هذا الشرف وأنتم سلالة أكراد؟ فكانوا يذكرون لي قصة طويلة عن اتصالهم بالمنصورية بمن جاورهم من آل البيت في مدن الإيالة ، ويدكرون جيداً كل صلة لهذه المدن بعواصم الإيالات مع ارتباط العلاقة يومئذ بين الديار الكردية وعواصم الإيالات العثمانية ، تارة إلى حلب وتارة إلى العراق .

وأقرأ في الكتب الأوربية على الخصوص أحاديث شتى عن « الرؤوس الخضر » في حلب ، أولئك الذين يلبسون العمامة الخضراء من ينسبون إلى آل البيت من جانب الآباء أو جانب الأمهات ، ومن هؤلاء أكراد أمهاهن عربيات .

وتنسب إلى هذه الطائفة من لا يلبس العمامة الخضراء أسرة أسوانية أخرى مضى على وفود كبرها من موطنها أكثر من مائة سنة وأذكره في أخريات أيامه بعمامته الخضراء وموكبها من أتباع الطرق الصوفية التي تتشعب فروعها في البلاد العربية والتركية ، وهو مع اشتغاله بالتصوف تاجر ناجح ورأس أسرة ناجحة ينتسب إليها اليوم الطبيب والخاتم والموظف والتاجر ومالك العقار .

وقد وفـد العـسـكريـون والمـدنـيون من أـصـحـابـ هـذـهـ العـمـائـمـ إـلـىـ الصـعـيدـ
بعـدـ ثـورـاتـ دـامـيـةـ فـيـ وـلـاـيـةـ حـلـبـ عـلـىـ وـلـاـهـمـ التـرـكـ الـدـيـنـ أـجـلاـهـ جـيـشـ
إـبـرـاهـيمـ باـشاـ عـنـ الـوـلـاـيـةـ بـعـدـ قـيـسـلـ ، فـلـمـ أـعـيـدـ هـذـهـ الـوـلـاـيـةـ إـلـىـ الـدـوـلـةـ
الـتـرـكـيـةـ تـعـذـرـ مـقـامـهـ فـيـهـاـ فـعـادـوـاـ مـعـ الـجـيـوشـ الـمـصـرـيـةـ وـأـقـيمـ بـعـضـهـمـ فـيـ الصـعـيدـ
وـبـعـضـهـمـ فـيـ السـوـدـانـ .

ولـلـعـلـ «ـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـكـوـاـكـبـيـ »ـ الـذـيـ وـلـدـ بـعـدـ هـذـهـ الـحـوـادـثـ بـسـنـوـاتـ
قـلـلـلـ كـانـ يـتـحـدـثـ فـيـ صـبـاهـ بـحـدـيـثـ وـاحـدـ عـنـ نـقـابـةـ الـأـشـرـافـ الـتـيـ
أـدـعـاهـاـ غـيـرـ أـهـلـهـاـ فـيـ الـقـسـطـنـطـنـيـةـ ، وـعـنـ حـكـامـ التـرـكـ الـدـيـنـ اـنـتـزـعـواـ مـنـاصـبـ
أـبـنـاءـ الـوـطـنـ فـيـ الـدـيـارـ الـكـرـدـيـةـ ؛ـ وـهـوـ الـحـدـيـثـ الـذـيـ رـدـدـهـ هـؤـلـاءـ الـمـهـاجـرـونـ
الـحـرـيـصـونـ عـلـىـ شـارـتـهـمـ وـشـارـةـ أـهـلـهـمـ فـيـ بـلـادـهـمـ ،ـ وـظـلـوـاـ يـرـدـدـوـنـهـ عـلـىـ
وـتـبـرـتـهـ حـتـىـ سـمـعـنـاهـ مـنـهـمـ مـرـاتـ !

وـلـوـ أـنـ إـنـسـانـاـ يـخـتـارـ لـنـفـسـهـ رـسـالـتـهـ وـمـولـدـهـ لـمـ اـخـتـارـ عـبـدـ الرـحـمـنـ
مـولـدـاـ أـصـلـحـ لـلـرـسـالـةـ الـتـيـ نـهـضـ بـهـاـ مـنـ مـدـيـنـةـ حـلـبـ :ـ مـدـيـنـةـ تـتـصـلـ
بـالـحـوـادـثـ وـتـتـصـلـ الـحـوـادـثـ بـهـاـ ،ـ هـذـاـ الـاتـصـالـ .

* * *

إـنـيـ عـلـمـتـ مـنـ تـجـربـيـ فـيـ قـرـاءـةـ الـتـرـاجـمـ وـكـتـابـهـاـ أـنـ النـوـابـغـ مـنـ
أـصـحـابـ الرـسـالـاتـ فـتـتـانـ :

فـتـةـ تـظـلـهـرـ فـيـ أـوـانـهـاـ لـأـنـ أـسـبـابـ نـجـاحـهـاـ تـمـهـدـتـ وـتـمـ لـهـاـ النـجـاحـ قـبـلـ
فـوـاتـ ذـلـكـ الـأـوـانـ .

وـفـتـةـ أـخـرـىـ تـظـلـهـرـ لـأـنـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـاـ قـدـ بـلـغـتـ غـايـهـاـ ،ـ وـهـىـ الـتـيـ تـظـلـهـرـ
لـتـحـقـقـ تـلـكـ الـحـاجـةـ الـتـيـ تـبـحـثـ عـنـ صـاحـبـهـاـ ،ـ وـلـهـ مـنـهـاـ مـعـينـ يـذـلـلـ صـعـابـهـاـ
وـيـهـدـىـ إـلـىـ طـرـيقـهـاـ .

وـالـكـوـاـكـبـيـ نـمـوذـجـ عـزـيزـ الـمـثـالـ لـأـوـلـكـ النـوـابـغـ أـصـحـابـ الرـسـالـاتـ
الـدـيـنـ اـنـفـقـتـ لـهـمـ أـسـبـابـ زـمـانـهـمـ وـمـكـانـهـمـ وـأـسـبـابـ نـشـأـتـهـمـ وـدـعـوـتـهـمـ ،ـ تـكـادـ

سيرته أن تغري بالكتابة فيها لأنها « تطبيق » محكم لترجم هذه الفئة من نوابع الدعاة .

تهيأت له البيئة وتهيأ له الزمن ، وتهيأت له الرسالة ، فلا حاجة بكتاب السيرة إلى غير الإشارة القريبة والدلالة العابرة ، وهناك فانظر . . . ها هو ذا صاحب الدعوة قائماً حيث ترى من حيث نظرت إليه .

ولو لم تكن للسيرة من موجباتها غير هذا الإغراء لكان ذلك حسبياً من وحوب عند كاتبها وقارئها ، ولكنها سيرة يوجبها الفن لفن ويوجبها التاريخ للتاريخ ويوجبها علينا أنها حق لصاحبها وقدوة صالحة لمن يقتدي به في دعوته الباقية . . .

وإن لها لبقة متجددة بين أبناء اللسان العربي في كل جيل .

عباس محمود العقاد

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

شیخ الائمه

مَدِينَةٌ

(١) مدينة عربية عريقة :

ولد عبد الرحمن الكواكي ونشأ في مدينة عربية عريقة ، هي حلب الشهباء .

وقد عرفت المدينة باسمها هذا - مع بعض التصحيف - منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فورد اسمها في أخبار رمسيس الأكبر ، وورد بين أخبار حمورابي في القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وورد في أخبار شلمنصر (٨٥٨ - ٨٢٤) ... وورد خلال هذه القرون في كثير من الحفريات والآثار التي تتصل بتواريخ الحبيبين والعمالقة من الشمال إلى الجنوب .

ولا يعرف على التحقيق مبدأ بنائها وإطلاق هذا الاسم عليها ، ولكنها - كيما كانت التوارييخ المروية - أقدم ولاشك من كل عهد وردت أخباره في تلك الروايات ، لأن قيام مدينة في موقعها ضرورة أحق بالتصديق من أسانيد المؤرخين وأساطير الرواية . لأنها في مكان توافر فيه كل شرط من شروط المدينة العاملة من خصب التربة وسعة المكان واتصال الطريق بين موقع العمران وقوافل التجارة ومسالك الفاتحين أو معاقل المتحصّنين المدافعين . ولا غنى عن مدينة في مكانها للاستفادة بموارد الزرع والبيع والشراء ، وتنظيم الإدارة الحكومية في جوارها ، وتبادل المعاملات فيما حولها ، وتأمين المواصلات بينها على تعدد الحكومات أو وحدتها .

فالمدينة التي ينبغي أن تقوم في هذا المكان حقيقة تاريخية غنية عن سجلات التاريخ . وقد يخطئ بعض المؤرخين في بيان السنة أو الفترة التي بنيت فيها ، لأنها يخالط بين بنائها الأخير بالنسبة إليه وبنائها الأول قبل ذلك بقرون ، إذ كانت موقعاً معرضأً فيها مضى للزلزال معرضأً للغارات

والمجازات ، يبني ويهدم آونة بعد أخرى ولكنه يسرع إلى العمار ولا يطول عليه الإهمال . وقد فطن بعض المؤرخين إلى ذلك ففي نقله ابن شداد حيث يقول : « ... وهذا يدل على أن سلوقوس بنى حلب مرة ثانية وكانت خربت بعد بناء بلوكرش ، فجدد بناءها سلوقوس . فإن بين المدتين ما يزيد على ألف ومائة سنة » ^(١) .

ومما يدعو إلى اللبس في تصحیح أقوال المؤرخين عنها أنها سمیت بأسماء أخرى أو ذكرت باسم « قنسرين » على سبيل التغليب والمحاورة للتعیم بدل التخصیص . ومن أسماؤها عند اليونان اسم « بريه » الذي أطلقوه عليها كعادتهم في إطلاق أسماء بلادهم على المدن التي يدخلونها .

ولكن اسم « حلب » أقدم من هذه الأسماء جمیعاً وأقرب إلى طبیعة المکان وإلى اللون الذي سمیت من أجله : « الشہباء » وهو لون أرضها ولون الحوار الذي تطلی به مبانیها .

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان :

« حلب مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء ، وهي قصبة جند قنسرين في أيامنا هذه . والحلب في اللغة ؛ مصدر قوله : حلبت أحلب حلاً قال الزجاجي : سمیت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب فيها غنمته في الجمعة ويتصدق به . فيقول القراء : حلب حلب ، فسمی به » .

قال ياقوت : « وهذا فيه نظر ؛ لأن إبراهيم عليه السلام وأهل الشام في أيامه لم يكونوا عرباً ، إنما العربية في ولد إبنته إسماعيل عليه السلام وقططان . على أن لإبراهيم في قلعة حلب مقامين يزاران إلى الآن . فإن كان لهذه اللفظة أصل في العبرانية أو السريانية لخاز ذلك . لأن كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارقها إلا بمعجمة يسيرة كقوفهم : (كھم) في جھم ... » .

(١) الدر المختار في تاريخ مملكة حلب .

إلى أن قال : « وذكر آخرون في سبب عمارة حلب أن العمالق لما استولوا على البلاد الشامية وتقاسمواها بينهم استوطن ملوكهم مدينة عمان ومدينة أريحا الفور ودعاهم الناس الجبارين ، وكانت قنسرين مدينة عاصرة ولم يكن يومئذ اسمها قنسرين وإنما كان اسمها صوباء .. » .

وقد أصاب ياقوت في ملاحظته الأولى ؛ فإن لغة إبراهيم عليه السلام لم تكن عربية ، ولم تكن العربية كما تكلمها أهلها بعد ذلك معروفة في عصره ، ولكنه أصاب كذلك في ملاحظته الثانية إذ خطر له التشابه بين ألفاظ اللغات واللهجات التي شاع استعمالها في بطحاء حلب قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون . فإن الآرامية — عربية ذلك العصر — قريبة بجميع لهجاتها إلى العربية الحديثة ، وتفيد كلمة « حلب » فيها معنى البياض ، ومنه لون اللبن الحليب ، بل يرجح الكثرون أن اسم « صوباء » الذي ذكر ياقوت أنه كان يطلق على قنسرين إنما يعني « الصمية » التي تقرب من الشمية في لفظها ومعناها ، وكانت حلب توصف بالشيبة وتشهر بالصفة أحياناً فيكتفى بها من يذكرونها دون تسميتها . وورد اسم مدينة صوباء غير مرة في أسفار العهد القديم فرجح أناس من مفسريه أنها حلب ورجح الآخرون أنها قنسرين ، ولا يبعد إطلاق الاسم أحياناً على المكانين .

على أن الأمر الثابت من وقائع التاريخ أن الآراميين سكروا هذه البقاع قبل عهد إبراهيم عليه السلام ، وأن المدينة وما جاورها كانت عربية بالمعنى الذي نبحث فيه عن أصل العربية القديم ولا نقف فيه عند تاريخها الأخير ، وقد ثبت أن أسلاف الآراميين غلبوا على هذه البقاع في عهد الملك سراجون قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرناً ، ولم تكن هنالك لغة أخرى يفيد فيها الحلب معنى البياض غير الأصول العربية الأولى .

(٤) ومدينة عامرة :

والمدينة بموقعها وقدم عهدها مدينة حل وترحال ، يقيم فيها من يقيم ويتردد عليها من يتصرفون في شئون معاشرهم من أبنائها وغير أبنائها ، تعددت فيها أسباب المعاش من زراعة وصناعة وتجارة فلم تنحصر في مورد واحد من هذه الموارد ، وكتب رسول Russell — وهو من أقاموا فيها حقبة من القرن الثامن عشر — مجلداً ضخماً عن تاريخها الطبيعي فأحصى فيها ما يندر أن يجتمع في مدينة واحدة من محاصيل الغلات والفاكهة والخضر والأبازير والرياحين ، ومن أنواع الدواب والماشية والطير والسمك ، ومن خامات الصناعة لملابس والأبنية ومرافق المعيشة ، فصح فيها ما يوجزه الكاتب العربي حين يحمل الوصف عن أمثلها فيقول إنها مدينة خيرات .

وتتكلم عنها ملطرون "صاحب الجغرافية العالمية التي ترجمها رفاعة الطهطاوى قبيل عصر الكواكب" فقال بأسلوبه الذى نقله بحرفه : « ولنبحث الآن عن أشهر الأماكن مبتدين بالقسم الذى يجوار الفرات وهو إىالة حلب فنقول : إن المدينة المسماة بهذا الاسم هي كما في كتاب البوزنطيا « برة » القديمة ، وهى أعمق جمجمة المدن العثمانية في آسيا ، سواء بتأدب أهلها أو بعذامها وكثرة أموالها وغنائها ، وظن بعضهم أن أهلها لا يزيدون عن مائة وخمسين ألف نفس ، ومبانيها من الحجر النحت كما أن طرقها السلطانية مبلطة به أيضاً ، ومنظرها عجيب لما فيها من أشجار السرو المظلمة الأوراق المباهنة بالكلية لمنارتها البيضاء ، فما أحسن اختلاط كل من الجنسين بصاحبه ! وبها فابريقات القطن والحرير على حالة زاهية ، وإليها تأوى القوافل العظيمة من بغداد والبصرة فتحمل إليها بضائع بلاد العجم والهند ، وبالجملة مدينة حلب الشهباء ما يسميه المتأخر (تلعر) ورياضها مزروعة بالعنب والزيتون كثيرة الحنطة .. » .

وملطرون يفهم بالتقدير الذى سماه ظناً أن سكانها لا يزيدون على

مائة وخمسين ألف نسمة ، ونكن الرحالين والخبراء من الأوروبيين الذين أقاموا بها بين القرن السابع عشر والثامن عشر يبلغون بتعديادها نحو أربعين ألف نسمة ، ويقول دارفيو *D'Arvieux* الذي كان قنصلاً لفرنسا في المدينة بين سنة ١٦٧٢ وسنة ١٦٨٦ إن الطاعون أهلك من أهلها نحو مائة ألف ولم يشر طرافق الأسواق فيها بنقص سكانها . وكان بعض المؤرخين لها يعولون في تقدير سكانها على إحصاء الموتى في الكنائس المسيحية أو على مقادير الأطعمة اليومية التي تستند فيها ، لاضطرارهم إلى اللذن مع قلة الإحصاءات الرسمية ، فراوحوا في حسابهم بين ثلثمائة ألف وأربعين ألف في عامة التقديرات إلى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم تبين من الإحصاءات الأخيرة أنهم لم يخطئوا التقدير .

* * *

(٣) ومدينة اجتماعية :

وهي مدينة يقوم عمرانها على « مجتمع ناضج » على خلاف المدن العاشرة التي يقوم عمرانها على كثرة السكان بغير اختلاف يذكر في كيانها الاجتماعي أو تركيب الطوائف التي تتألف منها المجتمعات السياسية .

فالسكان فيها كثيرون ، ولكنهم أصحاب مرافق وأعمال لا تستأثر بها صناعة واحدة ، ولا تنفرد الصناعة الواحدة بينهم بنمط واحد على وتبة واحدة ، سواء اشتغلوا بالتجارة التي يعمل فيها التاجر المحلي وتاجر القوافل وتاجر التصدير والتوريد ، أو اشتغلوا بالزراعة التي يعمل فيها زارع الحقل وزارع البستان وزراع الخضر والأعشاب ، أو اشتغلوا بالحرف اليدوية التي يعمل فيها النساجون والنجارون والخدادون والمحترفون بفنون البناء وتعمير البيوت .

وفيه عدا هذا التركيب الاقتصادي يتتنوع المجتمع في المدينة بائتلاف المذاهب والأجناس من أقدم الأزمنة قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وقلما يعرف مذهب من مذاهب الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو مذاهب

الديانات الأسيوية لا تقوم له بيعة في حلب أو مزار مشهود مقدس عنده أتباعه ، وهي تتسع لأصحاب هذه المذاهب من العرب والترك والكرد والأرمن والأوربيين ، يتفاهمون أحياناً بلغة واحدة مشتركة أو يتفاهمون بجميع هذه اللغات كلما تيسر لأحد هم فهم لغة أخرى غير لغته التي ولد عليها .

ولم تزل المدينة منذ القدم عرضة للمنازعات الدولية بين الفرس والإغريق ، أو بين العرب والروم ، أو بين المسلمين والصلبيين ، أو بين أصحاب العقائد في الديانة الواحدة واللسان الواحد . وهي حالة لا تتكرر طويلاً إلا تركت لها أثرين لا محيسن منها ولا مفر من التوفيق بينهما ، فمن أثرها أن تزيد شعور الإنسان بعقيدته وحرصه على شعائره ومعالم دينه ، ومن أثرها في الوقت نفسه أن تروضه على حسن المعاملة بيته وبين أهل جواره من المخالفين له في شعوره أو تفكيره ، وهي رياضة عالية تعتمد فتبليو على أحسنتها في السماحة الدينية ورحابة الصدر ودماثة الخلق وكياسة العشرة والمحاملة ، وقد يجتمع بها الغلو إلى مثال من الخلط بين العقائد والشعائر لا يعهد في بيته لم تتعرض لتلك التجارب التاريخية ، فقد روى دارفيو المتقدم ذكره أنه وجد في عين طاب « عينتاب » طائفة تسمى (كيزوكيز) ، أي النصف والنصف ، يصلون في المساجد ويحفظون القرآن ويعلقون المصاحف الصغار في أعناق أطفالهم ويوجبون تعميد هؤلاء الأطفال وتقريب القرابين في المعابد المسيحية والذهاب إلى كرسى الاعتراف وإقامة الصلوات في عيد الميلاد وعيد القيمة .

ومن نتائج الائتلاف في المجتمع أن تتأصل في العادات خصال التعاون الاجتماعي ، فتصبح المدينة العاملة معاشرة قادرة على التعمير ويكسب أبناؤها قدرة على تجديد عمرانها بعد الكوارث التي تنتابها كما تنتاب أمثالها من المدن على أيدي الفاتحين أو بفعل الزلازل والأوبئة التي كانت تنتشر في الشرق والغرب فلا تسلم منها مدينة كثيرة الوراد والطراق مخرجون منها ويتربون إليها بغير رقابة صحية على القواعد العلمية . وقد تمكنت حلب

« من تجديد عمرانها واستئناف علاقتها ومعاملاتها مرات في مدى التاريخ المعروف منذ ثلاثة آلاف سنة ، واستطاعت ذلك أربع مرات منذ القرون الوسطى إلى اليوم . ويشير ياقوت الحموي إلى خصلة التعمير والتأثيل في أهلها فيقول : « ولأهلها عناية باصلاح أنفسهم وتشمير الأموال ، فقل ما ترى من نشأها من لم يتقبل أخلاق آبائه في مثل ذلك . فلذلك فيما بيروتات قديمة معروفة بالثروة ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قدمهم بخلاف سائر البلدان » ..

• • •

(٤) ومدينة سياسية :

والمدينة الاجتماعية على هذه الصفة مدينة سياسية باختيارها بما وتنساق إليه من ضرورات تدبيرها وإصلاحها ، فلا يسع إنساناً يقيم فيها أن يغفل عن السياسة التي تدبرها ولا عن أحوالها التي تستقيم عليها مشؤها المشتبكة أو يغتر بها الخلل من جانبها ، وربما حالت السيطرة المستبدة دون إطلاق الألسنة والأقلام في أحاديث هذه السياسة ، ولكن المجالس التي تدور فيها الأحاديث بين أهلها لا تثبت أن تخلق لها منادح من القول المباح في باب النقد الاجتماعي ولو قصرت على نقد الأحوال العامة وآداب العرف الشائعه ولم تزد فيه على الخين إلى الأيام التي كانت تخلو من عيوب هذه الأيام ، أو على الثناء والذكرى لمن كانوا يسوسون الأمور سياسة لا يدركها الملام .

قال رسول في تاريخه الطبيعي مدينة حلب ، وهو يسمى المسلمين بالترك على عادة الأوربيين في زمانه : « إنهم على احتجازهم في مسائل السياسة لا يقال عنهم إنهم سكوت صامتون . فأنهم يفيضون الحديث عن مسائل الديانة والآداب ومساويه البذخ والترف ، وشروع الرشوة في الدواوين ، وربما تحفظوا في الكلام على أخطاء الحكومة الحاضرة . ولكنهم ينحون على الأنخطاء الماضية بغير هوادة ، وسواء كان مجرى الحديث

على هذه المسائل أو على أشباهها من المسائل الخلافية تراهم يختلون في مساجلاتهم ولا يطول الخوار بينهم دون أن يتطرق إليه الغضب حتى يفصل فيه صاحب الدار برأيه ، إن كان من ذوى الصداره ، فيميل الأكثرون إلى الرأى الذى أبداه .

وإذا قيل هذا عن أواخر القرن الثامن عشر فالحالة السياسية في غير هذه الحقبة المظلمة لا تحتاج إلى بيان .

* * *

(٥) ومدينة متصلة :

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن المدينة التي لها هذه العمارة وهذه العلاقات الاجتماعية على ملتقى الطرق المعبورة في القارات الثلاث لن تقطع عن العالم في عهد من عهودها ، ولن ينقطع العالم عنها .

إلا أن العلامات الحموية أوضح من الأحوال المفهومة في الدلالة على تمكن هذه الصلة وشدة الحاجة إليها . فمن هذه العلامات أن نقل الأخبار بالمشاعل والنصابيع كان معروفاً في حلب قبل ستة وثلاثين قرناً كما يرى من الواح « ماري » الأثرية التي كشفت بجوارها ، أما في العصور الأخيرة فلم تخل حلب قط من الوسائل السريعة للانتقال أو نقل الأخبار ، وحيثما وجدت وسيلة أسرع من سوهاها في قطر من الأقطار النائية لم تصل إلى حلب بعد قليل وأن يفتن الحلبيون في استخدامها وتحسينها لزيادة السرعة فيها ، فاشتهرت بالجُمال السريعة التي نعرفها في وادي النيل باسم الهجين ، واجتهد أصحاب القوافل بها في توليدها بين العربية والتركانية لتورثها أحسن الصفات من فصائلها الممتازة ، وانتظم فيها بريد الحمام الزاجل وهو أسرع بريد عرفه الناس على المسافات البعيدة قبل استخدام البرق والبخار ، ولكتهم في الخطوط التي تنتد من حلب وإليها يحتاطون لعوائق الطريق فيعمسون أقدام الحمام في الخل ليشعر بالرطوبة في الجو فلا يستدرجه

الشعور بالعطش إلى الماء فينقطع عن السفر أو يسقط بين أيدي المزددين له في الطريق .

(٦) ومدينة حساسة :

وهذه العوامل المتأصلة جمِيعاً قد بقيت إلى العصر الذي نشأ فيه الكواكب وعاش فيه بين منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، بل كانت كلها على حالة من النشاط والتحفز توصف « بالحساسية » المفرطة التي تضاعف انتباه المتنبهين إليها على غير المعتاد فيسائر العصور .

كانت مدينة حلب قبل مولده بسنوات جزءاً من العالم العربي الذي كان يجمع الشام وفلسطين وطرفاً من العراق والجزيرة العربية في نطاق واحد ، وظلت كذلك بضع سنوات حتى أعيدت إلى الدولة العثمانية في سنة ١٨٤٠ بعد تدخل الدول الأوروبية في حروب إبراهيم باشا والسلطان عبد الحميد .

وكانت فتنة الأرمن ومحنة لبنان وغارات الحدود بين العرب والترك في العراق شاغلاً شاغلاً لأبناء حلب على الخصوص ، لأنها المدينة التي يصيبها كل عطل ويرتد إليها كل اضطراب .

وكانت مسائل الامتيازات الأجنبية تشار كل يوم في أوربة وفي الشرق العثماني مع ما يتبعها من مسائل التشريع والإدارة التي تفرق بين الطوائف والأجناس في كل بقعة من بقاع الدولة التركية .

وكانت هذه الدولة تتقدم خطوة وتنكص على أعقابها خطوتين في طريق الحكم النيابي والإدارة العصرية واستبدال النظم الحديثة بالتقاليد البالية التي جمدت عليها منذ قرون .

وكانت قناة السويس تفتح ، ومراكيز الشركات تحول من حلب

شيئاً فشيئاً إلى القارة الأوربية أو إلى إشراطى الهند وليران وموانئ البحرين الأحمر والأبيض على طول الطريق.

كان كل عامل من عوامل الحياة الاجتماعية في احلب يتحرك وينبه ويبلغ به الانتباه حد الحساسية ، بل حد الإغراء في الحساسية حين نشأ الكواكب في هذه الحقبة المتوفزة ، ووكل إليه القدر أن يكون لها لسان حال ، فاستجاب لها في بيته من حيث يستجيب أمثاله من الرجال .

العصر

كيف نشأ الكواكب في هذا العصر؟

كيف لم ينشأ الكواكب في هذا العصر؟

سؤالان لا يتردد المؤرخ بينهما ، بعد ما تقدم ، أحهما أحق بالتجيء وأيهما أدعى إلى الاستغراب . فإن حوادث العصر وحوادث السيرة الكواكبية تشيران كلتاها إلى الأخرى متقابلتين كما يتقابل العدلان المتلازمان .

ولد الكواكب حول منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفي بعد ختامه بستين ، فحياته على وجه التقرير هي النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ملتقاه بطلائع القرن العشرين . وهذه حقبة من حقب التاريخ الحديث يلوح عليها كأنها نشطت من عقال . فكل شيء فيها ينفر من الجمود والركود ويتحفز للحركة والوثوب إلى التغيير .

كان هذا النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، في القارة الأوربية ، امتداداً لعصر الكشف العلمية والنزعة الفكرية إلى الترد على القديم ، وكان حقبة عامرة بأسباب القلق والاندفاع إلى المجهول حيثما وجدت الطريق ، تمخضت عن أخطر مذاهب الفكر والأخلاق وأدعاها إلى الثورة والانقلاب ، ولا نطيل في شرح المذاهب الخاصة بتلك الحقبة أو التي تعد من ولايتها ونتائجها ، فإننا نطوى الكف على خمسة منها فلا نستكثر بعدها أن يحدث في بقية القرن التاسع عشر كل ما حدث فيها من عظام الأمور وعوامل الحركة والانقلاب .

في بقية القرن التاسع عشر شاع مذهب داروين عن التطور وتنافع البقاء ، ومذهب كارل ماركس عن رأس المال ، ومذهب نيشه عن

«السوبرمان» أو الإنسان الأعلى ، ومذهب المدرسة الطبيعية عن حرية الفن والأدب ، ومذهب الديموقراطية عن الحكومة الشعبية ؛ وكل مذهب منها لا يستقر حيث ظهر على حال من أحوال الجمود والرضا عن التسليم والاستسلام .

ووصلت فتوح العلم إلى السوق والطريق ، بل وصلت إلى الجهلاء الأميين أهول وأضخم من صورتها التي وصلت بها إلى العلماء الدارسين .

سمعوا الجرائم وفون «الحاكم» فقالوا أن الإنسان ينطق الجمامد .

وسمعوا عن البرق بأسلاكه وغير أسلاكه فجدد لهم خبر المردة الممسخرين في نقل الأسرار بين السماء والأرض ، وبين المشرقين والمغاربيين .

وسمعوا صوت الهاتف بعد أن شهدوا الصورة التي يرسمها لهم شعاع الشسنس فكادوا يلتحقونها بالخوارق والمعجزات .

وكبرت في أيامهم مخترعات الأمس ، فأصبحت المطبعة والباخرة والبنديقة أشباحاً تطاول المردة بعد أن كانت في الحقبة الغابرة ألاعيب أطفال أو أطفالاً تتغنى بين المهدود والحجور .

كذلك كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ميدان الفكر والصناعة .

أما ميدان العمل والحياة العامة فيجمل ما يقال فيه أنه يتلخص في كلمتين ترددان بلسان المقال أو لسان الحال في كل أمة غالبة أو مغلوبة ، ومتقدمة أو متاخرة ، وحرة ناهضة أو متأهبة للحرية والنهضة ؛ وهما : الحرية وحق الأمة .

في البلاد الإنجليزية كان سلطان الملك يتقييد ويتعبه سلطان السادة النبلاء إلى القيد ؛ ولم تهدأ فيها صيحة المطالبة بالمشاركة في الحكومة بين أصحاب الأموال وجماعات العمال ، فكان العقد الثاني بعد منتصف القرن فاتحة العهد الذي بُرِزَ منه الأحرار وتمهّدت فيه السبيل لطوابق العمال .

وفي البلاد الفرنسية قضت حرب السبعين على الامبراطورية وتحوّلت بالحكم إلى النظام الجمهوري على أساس المبادئ التي أعلنتها الثورة وتجاوّبت بها أصوات العالم ، وهي مبادئ الحرية والإخاء والمساواة .

وفي البلاد الألمانية ظفرت القومية المشتقة بالوحدة التي كانت تنشدها واجتمعت الولايات التي كانت موطن المغيرين من الشمال والجنوب ، ومن الشرق والغرب ، فأصبحت قسوة القارة التي يخشاها المغيرون ! .

وفي البلاد الإيطالية تجمعت تلك المترفقات من قضايا العصر كلها ، ومنها قضية الاستقلال ، وقضية الوحدة ، وقضية السلطة الدينية ، وقضية الحكومة الشعبية ، فكانت — وهي تضطرب بجميع هذه القضايا — كأنها الحلقة الوسطى بين الغرب والشرق ، وبين القارة الغالية والقارات التي تشكو الغلبة عليها ، فثارت إيطاليا قبل منتصف القرن تسرد الحرية من الدول الثلاث التي تنازعها وهي فرنسا وفرنسا وأسبانيا .

وعند منتصف القرن ثارت على أمرائها الذين تنازعوها وفرقوا أرضها وأبناءها وجمعت شملها في ظل رايتها الموحدة على رضاها . وفصلت الوطنية الإيطالية في قضية السلطة الدينية كما فصلت في قضية الملك والدولة ، ثم فصلت في قضية الحكم فأقامتها على قواعد النيابة الشعبية ، ولم ينقض القرن حتى دخلت في سباق الاستعمار طامحة في أسلاب غيرها بعد أن كانت مطمعاً للقادرين عليها من الغرباء عنها ومن أبناءها .

وقد توحدت إيطاليا بعد مجهودات كثيرة تفرقت مساعيها واتفقت قبلها في النهاية . فكان الوطنيون المحاولون يعلمون جميعاً على توحيدها والهوض بها إلى مصاف الدول العظمى ويأنفون أن تكون بين جاراتها أفل منهم شأناً وأصغر منه قدرأً في مجال العلاقات الدولية ، وهي

أعرق منهن ماضياً وأقدم ثقافة وموطن اللغات الذي نبت منه لغات اللاتين واقتبست منه سائر اللغات في أمم الحضارة . . . إلا أنهم — مع هذا الانفاق في الغاية — تفرقوا في الوسائل والمعايير السياسية ، فأرادها فريق منهم « جمهورية حرة » تناول حريتها وتنشر مبادئ الحرية لغيرها ، وعلى رأس هؤلاء المخاهمين حكيم إيطاليا ورائدتها الأول يوسف ماتسيني ، مؤسس « إيطاليا الفتاة » ثم مؤسس « أوربة الفتاة » إيماناً منه بأن الحرية في القارة الأوربية شرط لا غنى عنه لدوم الحرية في بلاده .

وفريق آخر من ي يريدون بقاء الملكية على عرش واحد ، أو يسمحون ببقاءها إلى حين ريثما تهيا الفرصة لإقامة الجمهورية ، وعلى رأس هؤلاء كافسور الزعيم الوزير الذي كان يخالف الفريق الأول في سياسة الأحلاف الدولية ويترعرع بإرسال الجيوش إلى القرم لخماربة روسيا ومساعدة تركيا وإنجلترا وفرنسا أولاً في تأييد الدولتين الأخيرتين له في مساعيه الدولية ويأساً من تأييد روسيا القيصيرية لقضية من قضائيا الاستقلال والثورة على النظم الدولية العتيبة .

ويتوسط بين الفريقين فريق غاريبالدي الذي كان يستعين بالكتائب المتطوعة كما كان يستعين بالجماعات السورية من قبيل جماعة الفحامين « الكربوناري » ولا يرفض التعاون مع « إيطاليا الفتاة » كلما اتفقت الحملة على خصم واحد من خصومه وخصومها . ولكنـه يتوجس من الحالـات الدولـية ولا يؤمن بـجدواها ويـكـاد يـقطـع بـتـحرـيمـها خـوفـاً من مـغـارـمـ « الـقاـيـضـةـ » الـتـى تـجـورـ عـلـىـ حقوقـ الدـوـلـةـ النـاشـعـةـ كـمـ تـجـورـ عـلـىـ أـقـالـيمـهاـ وـمـوـارـدـهاـ . وـلـكـنـهـ يـتـوـجـسـ مـنـ اـنـتـصـارـهـ وـمـوـارـدـهـ . وـلـاـ تـعـرـفـ وـسـيـلـةـ مـنـ وـسـائـلـ الـأـمـمـ فـيـ جـهـادـهـ لمـ يـتـوـسـلـ بـهـ فـرـيقـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـمـخـاـهـدـينـ وـلـمـ يـتـصـلـ خـبـرـهـ بـطـلـابـ الـحـرـيـةـ فـيـ الـبـلـادـ الـشـرـقـيـةـ ، لـاـنـتـشـارـ الـإـيـطـالـيـنـ عـلـىـ شـوـاطـئـ الـبـحـرـيـنـ الـأـيـضـ وـالـأـحـمـرـ ، وـإـقـامـتـهـمـ عـلـىـ طـرـيقـ التـجـارـةـ الـقـدـمـةـ بـيـنـ الـهـنـدـ وـالـبـنـادـقـيـةـ وـجـنـوـهـ ، وـاشـتـراـكـهـمـ مـنـ قـبـلـ السـاسـةـ وـالـزـعـمـاءـ مـعـاـ فـيـ حـرـوبـ الـدـوـلـةـ الـعـمـانـيـةـ .

ولابد من الانتباه الدقيق إلى دخائل السياسة المزدوجة التي أملأها على الدولة الإيطالية وضعها الجديـد بعد الـاتفاق على توحـيدـها . فـهـىـ من جهةـ دولةـ أورـبيةـ طـامـحةـ إـلـىـ مـساـواـةـ الدـولـ الـىـ سـبـقـهـاـ فـيـ حـلـبـةـ الفـتحـ والـسيـادـةـ ،ـ وـهـىـ مـنـ الجـهـةـ الـأـخـرـىـ أـمـةـ تـشـبـهـ الـأـمـمـ الـشـرـقـيـةـ فـيـ جـهـادـهـاـ لـدـوـلـ الـقـارـاءـ وـتـتـفـقـ مـعـ بـعـضـهـاـ فـيـ مـقاـوـمـةـ الـنـفـوذـ الـعـمـانـيـ وـتـشـجـعـ الـثـورـةـ عـلـيـهـ .ـ وـمـنـ آـثـارـ هـذـهـ السـيـاسـةـ أـنـ بـيـهـاـ الـمـالـكـ كـانـ عـلـىـ مـوـدـةـ «ـشـخـصـيـةـ»ـ وـدـوـلـيـةـ تـرـبـيـتـ بـيـنـ بـيـوـتـ الـحـكـمـ وـرـئـاسـةـ فـيـ أـكـثـرـ الـأـقـطـارـ الـىـ خـضـعـتـ لـلـسـيـادـةـ الـعـمـانـيـةـ ،ـ فـلـمـاـ عـزـلـ الـخـدـيـوـ إـسـمـاعـيـلـ جـعـلـ مـقـرـهـ الـأـوـلـ فـيـ الـبـلـادـ الـإـيـطـالـيـةـ ،ـ وـلـمـاـ هـاجـرـ الـأـمـرـاءـ الـإـيـطـالـيـوـنـ مـنـ بـلـادـهـمـ فـيـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الـأـوـلـيـ وـبـعـدـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الـثـانـيـةـ كـانـ اـخـتـيـارـهـمـ لـمـصـرـ مـقـدـمـاـ عـلـىـ اـخـتـيـارـهـمـ لـلـرـحـلـةـ إـلـىـ قـطـرـ الـأـقـطـارـ الـأـوـرـبـيـةـ ،ـ وـكـانـ مـلـكـ إـيـطـالـيـاـ يـتوـسـطـ أـحـيـانـاـ فـيـ الـأـزـمـاتـ الـمـسـتـحـكـةـ بـيـنـ أـمـمـ الـمـغـرـبـ وـدـوـلـيـ فـرـنـسـاـ وـأـسـبـانـيـاـ ،ـ كـاـنـهـ يـرـىـ أـنـ هـذـهـ أـمـمـ تـطـمـئـنـ إـلـيـهـ وـتـقـبـلـ مـنـهـ مـاـ لـمـ تـقـبـلـهـ مـنـ الـحـكـومـاتـ الـأـوـرـبـيـةـ ،ـ وـقـدـ تـطـوـعـ الـإـيـطـالـيـوـنـ بـعـدـ اـحـتـلـاـطـمـ «ـأـرـتـرـياـ»ـ لـبـذـلـ الـمـعـونـةـ وـنـقـلـ السـلـاحـ إـلـىـ سـوـاـحـلـ جـزـيـرـةـ الـعـرـبـ لـمـقاـوـمـةـ الـمـنـافـسـينـ لـنـفـوذـهـاـ مـنـ الـأـوـرـبـيـنـ وـغـيـرـ الـأـوـرـبـيـنـ ،ـ وـكـانـهـمـ جـالـيـةـ قـوـيـةـ فـيـ الـمـدـنـ الـسـوـرـيـةـ تـعـرـبـ عـنـ تـأـيـيـدـهـاـ لـلـأـحـرـارـ وـالـثـائـرـيـنـ توـدـدـأـهـمـ أـوـ نـشـرـأـ لـلـدـعـوـةـ الـتـيـ نـقـلـهـاـ مـنـ بـلـادـهـاـ فـيـ إـيـانـ نـهـضـةـ التـوـحـيدـ وـالـحـرـيـةـ :

هذه نبذة عاجلة عن حركات الغرب في النصف الأخير من القرن التاسع عشر أوجزنا فيها القول عن أمم أربع من ألمها التي سرت أخبارها وأخبار قضاياها إلى الشرق العربي وببلاد الدولة العثمانية ، وهي على تفاوتها في كل ظاهرة من ظواهر السياسة والثقافة تشارك في خصلة لا تغيب عن واحدة منها في خبر من أخبارها وهي المطالبة بالحقوق والحربيات .

فإذا كانت قارة الاستعمار قد حضرت خطها حيال الشرق في

سياسة واحدة تريدها وتعمدها لتفهود وتنغلب عليه ، فهناك سياسة أخرى لم تردها ولم تعمدها تلقاها الشرق منها فهـ لـقاـمـهـاـ وـيـقـظـ لـطـامـعـهـاـ وـنـزـلـ معـهـاـ فـيـ مـيـدـانـهـاـ الـذـيـ اـسـفـزـهـ لـهـ بـاـخـتـيـارـهـ وـبـغـيرـ اـخـتـيـارـهـ .

• • •

وقد جاء رد الفعل المنتظر بعد برهة من السبات والذهول من أثر الصدمة التي كانت تتنقل وتشتد كلما تنقلت بين أقطار الشرقين البعيد والقريب من اليابان في أقصى الشرق الآسيوي إلى مراكش في أقصى الشرق الإفريقي ، وقد أصبحت هذه « شرقاً » في حساب الاستعمار وإن كانت تناوح في الموضع الجغرافي جارها أوربة الغربية .

ونقص الكلام هنا على الشرق العربي كما كان في أواسط القرن التاسع عشر إلى ما بعد مولده بقليل ؛ في تلك الفترة كانت مصر قد ظفرت بحصة كبيرة من الحكومة الذاتية ، وكانت لبنان قد خرجت بعد الفتن والأزمات بنصيتها المقرر من الامتيازات الداخلية ، وكانت جزيرة العرب تتفرد بالدعاوة الوهابية وتوشك أن تهتد منها إلى قلب العراق ، وكانت العراق في صراعها مع حكم المحاليل تتقدم في خطى سراع إلى الخلاص من ذلك الحكم المضطرب بين الكساد والوباء ، وعلمت الدولة العثمانية أنها تحتاج لاستباقاته وإعادة الأمن فيه إلى نظام من الحكومة الدستورية غير نظام الولايات المهملة أو الولايات المسخرة لسادتها على غير إرادتها ، فأرسلت إليها أكبر وزرائها في عصره « أحمد مدبـتـ باـشـاـ » المـقـبـ بـأـيـ الدـسـتـورـ ، فأقام فيها نظام الحكم على أساس الحرية والمصلحة العامة على خير ما يستطيع في تلك الأونة ، وافتتح فيها عهد الحياة العصرية التي وصلت إليها وبين أم الحضارة .

وكانت ولاية حلب — مع سائر الولايات السورية — قد اتصلت بمصر زهاء سبع سنوات ، ثم ثارت على حكم إبراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٠ فأعيدت إلى الدولة العثمانية على وعد بالإصلاح وتنظيم الإدارة على أساس

جديد، وكان الشروع في الإصلاح وتنظيم الإدارة حقيقة واقعة، مثداً قيام السلطان محمود الثاني (بين سنتي ١٨٠٨ و ١٨٣٩) لاضطرار الدولة أولاً إلى إصلاح جيشه واضطراها بعد ذلك إلى تسوية المشكلات القائمة بين رعاياها المختلفين في الجنس والدين واللغة، فان المزموم المثوالية أقنعت أولياء الأمر في القسطنطينية بال الحاجة الملحة إلى تنظيم جيش جديد تستخدمن فيه الأسلحة الحديدة وأساليب التعبئة في الدول الأوربية، ثم تبين لهم أن تعديل أنظمة القضاء والتشريع وإدارة الدواوين ضرورة لا يحيص عنها لسياسة رعاياهم ومدافعه الدول الأوربية التي كانت تتغلب بفساد الحكم في الدول التركية للتدخل في شئونها بدعوى الإنسانية تارة ودعوى الامتيازات الأجنبية تارة أخرى، فتححدث الناس بوعود الإصلاح وأعماله ومشروعاته وحقوق الرعية وواجبات الرعاية قيل مولد الكواكب، كأنهم يتجددون بذين يلويه المدين بين السداد والمطال .

ولعلنا ندرك حقيقة الحال ونعلم أن وعود الإصلاح كانت ضرورة لازبة ولم تكن إنعاماً ولا إحساناً من أولياء الأمور إذا نظرنا إلى بقاع العالم العربي فلم نجد فيه بقعة واحدة رضيت بها هي فيه ولم يهض أهلها للمطالبة بتنوع من الإصلاح على نحو من الأنجاء، فتحرك السودان وتحركت الصحراء وتحركت قبائل المغرب في ثورتها، بل في ثوراتها التي تكررت ولا تزال تكرر إلى اليوم، وصدق على العالم العربي بين أطرافه المترامية قول القائلين في الغرب إنه مارد خرج من القمم وإن يعود إليه .

وكان في الحق مارداً هائلاً يتميل في الأسر ليخرج من قبمه المظلم الحصور، ولكنه لم يكن مارداً معصوب العينين كما صوره أولئك الراصدون للقمة أو كما أرادوا أن يتصوروه، إذ كان للمارد زمامه في أيدي الهداة من القادة الملهمين ومن رواد الثقافة الأولين، وكان هذه

الهداية بين المسلمين وغير المسلمين طابع الشرق الخالد منذ الأزل
طابع العقيدة والإيمان

فِي الْقَارَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ حُكْمُ التَّارِيخِ حَكَمَهُ بَعْدَ التَّرَازِعِ الْقَائِمِ بَيْنَ السُّلْطَةِ الْدِينِيَّةِ وَالسُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، فَوْهُمُ الْعُلَمَاءُ فِي مَطْلَعِ الْأَثْقَافَةِ الْحَدِيثَةِ أَنَّ هَذِهِ الْأَثْقَافَةِ حَرْبٌ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْدِينِ . فَلَمَّا اِنْتَقَلَتْ ثَقَافَةُ الْغَرْبِ إِلَى الْشَّرْقِ اِتَّلَقَاهَا الْمُسْيِحِيُّونَ فِي الْمَدَارِسِ مِنْ رِجَالِ دِينِهِ ، وَتَلَقَّاهَا الْمُسْلِمُونَ مُسْتَجِيْبًا لِنَدَاءِ «الْعُودَةِ إِلَى الدِّينِ» عَلَى كُلِّ لِسَانٍ يَسْمَعُ مِنْهُ الْوَعْظَ وَيَقْبِلُ مِنْهُ الْإِرْشَادَ ، فَقَدْ وَقَرَ فِي الْأَخْلَادِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ هَجَرُوا دِينِهِمْ فَحَاقَ بِهِمْ بَلَاءُ الْذُلِّ وَالضَّيْاعِ . وَاتَّفَقَ الْجَامِدُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْقَدِيمِ وَانْتَطَلَعُونَ إِلَى الْجَدِيدِ عَلَى هَذَا النَّدَاءِ ، فَلَا خَلَافٌ بَيْنَهُمْ إِلَّا عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الدِّينِ كَيْفَ يَكُونُ .

وَرِبِّا قَالَ الْجَامِدُونَ قَبْلَ الْمُجَدِّدِينَ إِنَّ الْأُورَبِيِّينَ عَمِلُوا بِأَدْبِ الْإِسْلَامِ فَأَعْدَوُا الْعِدَةَ وَنَظَرُوا إِلَى حَكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَتَقَدَّمُوا وَتَأَخَّرُ الْمُسْلِمُونَ .

وَتَبَاعَدَتِ الشَّفَةُ بَيْنَ الْمُحَافِظِينَ أَنْصَارِ النَّصِّ وَالْحَرْفِ وَبَيْنَ الْمُجَدِّدِينَ أَنْصَارِ الْمَعْنَى وَالْقِيَاسِ فَاَخْتَلَفُوا عَلَى الْكَثِيرِ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ اِخْتِلَافِهِمْ هَذَا لَمْ يَتَفَقَّوْا عَلَى شَيْءٍ كَمَا اَتَفَقُوا عَلَى حَرْبِ الْخَرَافَةِ وَعَقَائِدِ الْجَهَلِ وَالشَّعُوذَةِ الْدُخِيلَةِ عَلَى الدِّينِ ، فَحَارَبُهَا الْمُحَافِظُونَ الْحَرْفِيُّونَ لِأَنَّهَا بَدْعٌ مُسْتَعَرَّةٌ مِنْ بَقَايَا الْوَثْنَيَّةِ ، وَحَارَبُهَا الْمُجَدِّدُونَ لِأَنَّهَا سُخَافَاتٌ وَأَبَاطِيلٌ يَنْقُصُهَا الْعِلْمُ الْحَدِيثُ . وَتَرَاجَعَتْ [هَذِهِ السُّخَافَاتُ] وَالْأَبَاطِيلُ إِلَى [غِيَابَةِ] الْجَهَلِ لَا تَجْزِيُهُ عَلَى التَّقْدِيمِ إِلَى صَفَوْفِ الْقِيَادَةِ الْمَسْمُوَّةِ بَيْنَ أَنْصَارِ الْقَدِيمِ وَلَا أَنْصَارِ الْجَدِيدِ .

أَكَانَتْ هَذِهِ الظَّافِرَةُ النَّاسِدَةُ إِحْدَى حَسَنَاتِ التَّوْفِيقِ فِي صَدْرِ الدُّعَوَةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ ، وَتَلَكُّ وَلَا رِيبٌ إِحْدَى الْعُوَامَّ الْقَوِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ دُعَوَةَ

الإصلاح مهمة روحية ثقافية ، وجعلت رجلا كالسيد جمال الدين الأفغاني داعياً مسماً جيئاً حل في قطر من أقطار الشرق بين المسلمين العرب والفرس والهنود ، وبين العرب المسلمين وغير المسلمين ، وناهيك بإمام من الأفغان تصدر له صحيفة « مصر » ويحررها تلميذه « أديب إسحاق » وهو المسيحي الكاثوليكي من الأرمن العثمانيين .

تلك سمة العصر الذي قدمنا الكلام عنه بهذه السؤالين :

كيف نشأ الكواكب في هذا العصر ؟ كيف لم ينشأ الكواكب في هذا العصر ؟ وقلنا إنهم سؤالان لا يتردد المؤرخ بينهما أحق بالتوجيه وأيهما أدعى إلى الاستغراب .

إن الكواكب في أسرته ومنته وزمنه — لوفاق الشرط الذي تتطلبه رسالته المنتظرة في هذا الشرق بين البلاد العربية — رجل مرشح للرئاسة الروحية ، مضطهد في سربه وذماره ، ينشأ في بلد عربي عريق يرتبط بعلاقات المشرق والمغرب وتلقى لديه تيسارات الحوادث العالمية ، ويفتح عينيه على العالم وهو يصبح أو يمسي على قضية حق أو ثورة حرية . من وصفه فقد سماه ، وكاد يصمد إليه ولا يتخذه إلى سواه .

* * *

أُسْرَةُ الْكَوَاكِبِيِّ

ينتسب الْكَوَاكِبِيُّ من أَبْوَيْهِ إِلَى عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ..
وَقَدْ رُوِيَ صَاحِبُ « إِعْلَامِ النَّبَلَاءِ » بِتَارِيخِ حَلْبِ الشَّهِيْبَاءِ » نَسْبُ الْأَسْرَةِ
نَقْلًا عَنْ كِتَابِ « النَّفَائِعُ وَالْلَّوَائِعُ مِنْ غَرَرِ الْمَحَاسِنِ وَالْمَدَائِعِ » الَّذِي أَلْفَهُ
الْسَّيِّدُ حَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ أَبِي السَّعْوَدِ الْكَوَاكِبِيِّ فَجَاءَ فِيهِ أَنَّ أَسِيدَ أَحْمَدَ هُوَ :

« أَبْنَ أَبِي السَّعْوَدِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ حَسَنَ بْنَ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ
أَبْنَ أَحْمَدَ بْنَ يَحْيَى بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي يَحْيَى الْمَعْرُوفِ بِالْكَوَاكِبِيِّ قَدَسَ سَرَهُ ،
أَبْنَ شِيْخِ الْمَشَايِخِ وَالْعَارِفِينَ صَدِّرُ الدِّينِ مُوسَى الْأَرْدَبِيلِيُّ قَدَسَ سَرَهُ ،
أَبْنَ الشِّيْخِ الرَّبَانِيِّ الْمُسْلَكِ الْصَّمَدِيِّ صَنْفُ الدِّينِ إِسْحَاقُ الْأَرْدَبِيلِيُّ أَبْنَ الشِّيْخِ
الْزَّاهِدِ أَمِينِ الدِّينِ أَبْنَ الشِّيْخِ السَّالِكِ جَبَرِيلُ بْنَ الشِّيْخِ الْمَقْتَدِيِّ صَالِحُ أَبْنَ
الشِّيْخِ قَطْبِ الدِّينِ أَبْنَ بَكْرٍ أَبْنَ الشِّيْخِ صَلَاحُ الدِّينِ رَشِيدُ أَبْنَ الشِّيْخِ
الْمَرْشِدِ الْزَّاهِدِ مُحَمَّدِ الْحَافِظِ أَبْنَ الشِّيْخِ الصَّالِحِ النَّاسِكِ عَوْضُ الْخَوَاصِ أَبْنَ
سُلْطَانِ الْمَشَايِخِ فِرْوَزِ شَاهِ الْبَخَارِيِّ أَبْنَ مُهَدِّيِّ أَبْنَ بَدْرِ الدِّينِ حَسَنِ بْنِ
أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ حَسِينِ بْنِ أَحْمَدَ أَبْنَ الْأَمِيرِ دَاؤِدَ بْنِ عَلِيِّ أَبْنَ
الْإِمَامِ مُوسَى اثْنَانِيِّ أَبْنَ الْإِمَامِ إِبْرَاهِيمِ امْرَتَضَى أَبْنَ الْإِمَامِ مُوسَى الْكَاظِمِ
أَبْنَ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ أَبْنَ الْإِمَامِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ أَبْنَ الْإِمَامِ الْحَسِينِ
الْسَّبْطِ الشَّهِيدِ أَبْنَ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قَالَ صَاحِبُ « إِعْلَامِ النَّبَلَاءِ » بَعْدَ اسْمِ صَدِّرِ الدِّينِ مُوسَى الْأَرْدَبِيلِيِّ :
« الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي عَوْدِ نِسْبِهِ الْمَحْفُوظِ فِي بَيْتِ الْمَوْقَتِ بَعْدَ مُحَمَّدَ أَبِي يَحْيَى
أَبْنَ صَدِّرِ الدِّينِ إِبْرَاهِيمِ الْأَرْدَبِيلِيِّ الْمُنْتَقِلِ إِلَى حَلْبَ أَبْنَ سُلْطَانِ خَوْجَهُ
عَلَاءِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ صَدِّرِ الدِّينِ مُوسَى الصَّفْوَى — فَيَكُونُ قَدْ سَقَطَ
هُنَاكَ شَعْصَانَ — أَبْنَ سُلْطَانِ صَنْفُ الدِّينِ أَمِينِ الدِّينِ جَبَرِيلُ ، وَهُنَاكَ
قَدْ جَعَلُهُمَا شَخْصَيْنَ . وَبَاقِ النَّسْبِ كَمَا هُنَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ » .

وروى في هذا المصدر نسبة لوالدته المتصل بـ زهرة فجاء فيه
أن « والدة المرحوم أبي السعود الشريفة عفيفة بنت بهاء الدين بن
إبراهيم بن بهاء الدين بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن شمس الدين
الحسن بن على بن أبي الحسن بن الحسين شمس الدين بن زهرة أبي الحاسن
ابن الحسن بن زهرة أبي الحاسن بن على أبي المواهب بن محمد بن إبراهيم
ابن محمد بن أحمد بن الحسين بن إسحاق المؤمن بن الصادق بن محمد الباقر
ابن علي زين العابدين بن الإمام السبط الشهيد الحسين » ...

ويرى في عمود النسب لأبيه اسم صفي الدين الأردبيلي ، ومن ذريته إسماعيل الصفوي الذي جلس على عرش فارس وأسس فيها الأسرة الصفوية ، ومنها « على سياه بوش » الذي رحل إلى بلاد الروم وتزوج سيدة من حلب ثم قفل إلى بلاده ، وخلفها أجداد الأسرة الكواكبية .

ومن أعرق علماء حلب من أسرة الكواكبى الشیخ « محمد بن حسن بن
أحمد الكواكبى » الذى تولى منصب الإفتاء فيها ، وكان مولده بها سنة
ثمانى عشرة وألف هجرية (١٦٠٩) وتوفى بها سنة ست وتسعين
وألف هجرية (١٦٨٥) وله مؤلفات في علوم الفقه والأصول
والكلام والمنطق ، منها : شرح الفوائد السنلية ، ونظم الوقاية ، ونظم
المنار ، وإرشاد الطالب ، وشرح كتاب المواقف ، وحاشية على تفسير
البيضاوى ، ورسالة في المنطق ، وتعليقات على تفسير سورة الأنعام .

وأول من اشتهر من الأسرة باسم الكواكبى - فيما يقال - محمد أبو يحيى بن صدر الدين . قال صاحب كتاب « نهر الذهب » في كلامه عن جامع أبي يحيى الكواكبى :

« يظهر أنه جامع قديم وأنه اشتهر باسمه الحالى نسبة إلى محمد بن إبراهيم بن يحيى الكواكبى ؛ لأنه وسعه وأقام فيه أذكاره ، فلما مات دفن فيه ، وبنى عليه سليمان بن عبد الله الجركسى « قبة من ماله . وهو جامع فسيح له قبلة متوسطة تقام فيه الصلوات وال الجمعة ،

بعله منارة فوق بابه ، وفي غربيه قبة أبي يحيى المذكور ، مكتوب في الجدار الكائن فوق رأس الضريح :

وليس عجياً أن تيسر أمرنا
بحضرة هذا القطب حاوی المناقب
وليٌ سلاه الإله باطفه
وولي فألاه صنوف المواهب
وما مات حتى صار قطباً مقرباً
ونال من الغفران أعلى المراتب
هديتنا إلى هذها المقام بطبيه
كما يهدي الحادى بنور الكواكب

وفي صحن المسجد في جهته الغربية عدّة قبور لبني الكواكب ، وفي شرقيه حوض يجرى إليه الماء من قناة حلب ، ولهذا المسجد وقف قديم هو الآن ثلاثة حوانين في سويفة على ، وله مخصوصات من وقفي حسن أفندي ابن أحمد أفندي الكواكبى ووالده المذكور ، ويوجد على يسراه الداخل للجامع حجرة لتعليم الأطفال وفي جانبها صهريج سهل يجرى إليه الماء من قناة حلب عمرته هبة الله بنت حسن أفندي المذكور ، وهى أم حسن بك ابن مصطفى بك . وفي جانب المسجد من شرقيه مدرسة تعرف بمدرسة الكواكبى يصعد إليها بدرجات وهى عامرة نيرة مشتملة على قبلة وحجرتين ^(١) .. .

ويقال إن السيد أبي يحيى عرف باسم الكواكبى لأنه كان يعمل في الخدادة ويتقن صنع المسامير التي تسمى الكواكب لاستدارتها ولمعانها ، فنسب إليها . ثم سلك مسلك المتصوفة فنبه فيها شأنه وتوارد عليه التلاميذ والمربيون ومنهم أمراء ورؤساء ، كانوا يقصدون إليه وهو في حسكه أو في ذكره ، فلا يجسرون على التحدث إليه حتى يأذن لهم ، لحيته وورعه ، وسميت طريقة آل الكواكبى بالطريقة الأردبيلية نسبة إلى أردبيل من أذربيجان ، وهى الصلة التي ينتمى إليها صدر الدين وصفي الدين المتقدمان .

ومن أعلام الأسرة الدين ترجم لهم في كتاب « إعلام النبلاء » الشيخ

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب لمؤلفه الشهير بالغزى .

« حسن أفندي ابن أحمد أفندي الكواكبى المتوفى سنة ١٢٢٩ هجرية » ترجمة العلامة عبد الرزاق البيطار الدمشقى في تاريخه « حلبة البشر » فقال في وصفه : « هو كعبة الأدباء ونخبة العلماء من اشهر بالفضائل وشهد له السادة الأفاضل .. تولى منصب الإفتاء في مدينة حلب ، وكان حسن الأخلاق كريم الطباع ، وكان العلامة المرادى مفتى دمشق - لما كان في حلب - يتردد عليه كثيراً وامتدحه بعدة قصائد ... وترجمة الشيخ عبد الله العطائى في رسالته - الهمة القدسية - المدرجة بتأمها في ترجمته .. ومن آثاره كتاب سماه - التفاصح واللوائح في غرر المحاسن والمداائح - جمع فيه نظم والده وما مدح به من شعراء عصره وما مدح به أسلافه ، وعقد لكل واحد من هؤلاء الشعراء ترجمة .. » .

ومن هؤلاء الأعلام الشيخ أحمد الكواكبى الذى ولد سنة خمس وأربعين ومائتين وألف وتوفي سنة ثلاثة وألف ، وجاء في ترجمته انه « تلقى العلوم التقلية والعلقانية على أشياخ عصره في الشهباء ... وأخذ الطريقة الشاذلية أعن الشيخ بكرى البلبانى وكان شديد الصحبة للشيخ أى بكر الهلالي يمضى معظم أوقات فراغه معه في الزاوية الهلالية ، وأقرأ في المدرسة الكواكبية والمدرسة الشرفية وفي الجامع الأموى منذ وجهت إليه وجهة التدريس فيه سنة ثلاثة وثمانين أو مائتين ، وأشهر بعلم الفرائض وتحرير الصكوك ، واشتغل بأمانة الفتوى ، وعين عضواً في مجلسى إدارة الولاية . وكان ربعة أسمر اللون نحيف الجسم أسود العينين ، وخطه شيب في أواخر عمره ، وكان رقيق الحاشية ظريف الحاضرة لا يمل منه جليسه حسن الخلق جداً . وربما أوقفه ذو سؤال زماناً غير يسير وهو يستمع له ولا ينصرف حتى يكون السائل هو المنصرف ، وكان وقوراً مهياً قنوعاً متصلباً في دينه وقادفاً عند الحق ، وكان يعرف اللغة التركية إذ كان يندر من يعرفها بحلب خصوصاً من العلماء ، وحدث مرة أن الخلط نيابة القضاء في حلب وتأخر قادومه ثب فاراد الوالى إذ ذاك ألا تراكم الأشغال في المحكمة الشرعية .

فكلف رئيس الكتاب أن يتولى القضاء وكالة فقال له : لا يجوز توكيلاً
والى ولا ينفذ قضاء من يوكله ، فقال له : أنا وكيل الخليفة فلي أن
أوكل . فأبى عليه القبول ، فتکدر منه وأخرجه من عنده ، ثم إنه
أراد تنفيذ مقصده فكلف المترجم إلى الوكالة ، فأجراه إلى ذلك فسر
جداً وكتب له في الحال منشوراً بتوكيله إياه في القضاء ، فذهب إلى
المحكمة الشرعية ، وصار الناس يتطلعون إلى صنيعه : كيف يوفق بين
أمر الوالي والحكم الشرعي . فكان يسمع للخصمين ويضبط مقامهما ،
ثم يشير عليهما بالصلح ويرهما أحسن وجه للاتفاق ولا يزال يعظهما
بالموعظة الحسنة حتى يصالحا ، فيكتب بهما صكاً . وقد حصل
المطلوب من القضاء . وإذا أبى عليه خصمان عن المصالحة قال لهما :
أتحكمانى بينكما ؟ فيحكمانه . فيكتب صكاً بتحكيمهما ثم يحكم بهما ،
ويؤخر تسليم صك الحكم إلى حضور النائب . ثم لما حضر النائب أمره
كل ما تم من قبل المترجم ونحوه صكوه . وقد اكتسب شهرة عظيمة
بهذا الصنيع ، فكان من بعد ذلك وقفاً على الإصلاح بين الناس ، وربما
حضر مجلساً للإصلاح بين خصمين ، فوجد الذي دعاه غير محق .
فكان لا يألوا جهداً في نصحه وإرجاعه إلى طريق الحق ، وإنما كان
موفقاً في ذلك لأنَّه إنما كان يقصد وجه الله تعالى ، وكان متولياً على
جامع جده أبي يحيى وخطيباً وإماماً فيه^(١) .

والشيخ أحمد الكواكبى هذا هو والد المترجم ومعلمه ومربيه
ومورثه جملة صفاته وسجاياه ، كما يرى من تفصيل سيرته في موضعها .
وقد نشأ المترجم في هذا الجيل من أجيال الأسرة وهي على عهدها
بمنازل الشرف والعلم : أبوه أهل للقضاء في الخصومات بفضله وسمته ،
وأهل للتدریس في أكبر المعاهد بعلمه وصلاحه . وأخوه الأصغر
« مسعود أفندي » يشترك في معاهد العلم عضواً بالجمع العلمي في
دمشق ، ويشترك في معاهد الحكم عضواً بمحكمة التمييز ، وفي مجالس

(١) إعلام النبلاء بتأريخ حلب الشهباء ، تأليف محمد راغب بن محمود بن هاشم الطياغي الحلبي .

السياسية عضواً بمجلس المبعوثين ، ويقول عنه رئيس المجتمع العلمي الأستاذ محمد كرد على في الجزء الثاني من مذكرةاته بعد كلامه عن أخيه عبد الرحمن صاحب الترجمة : « وكان هذا يقول لي : إن شقيقه مسعوداً أعلم منه ، وقد كتب لي الحظ الأولى أن زاملته سنتين في المجتمع العلمي العربي ، رأيته فيها ورصفاً مثال العلماء العاملين الذين ذكرت كتب الرجال ترجمتهم العظيمة ، وكانوا من اعتن بهم العلم وارتقي الفكر الإسلامي ، حملت روح هذين الحبيبين الشقيقين والخبرين الكاملين فما سقطت فيما على عيب من عيوب الأدباء جل الصانع ، وسجلت أنهم تقدماً جيالهما في كل معانٍ الفضل والنبل ، وما أسفنا إلى أن يعيشَا كأكثر أبناء الفقهاء عيش التوكيل والخنوع يأكلون ويشربون ويتناسلون ويجمعون من حطام الدنيا ما وصل إلى أيديهم . فالدم الظاهر ينم عن صاحبه كيما تقلب به الأحوال ، ولا يحتاج إلى من يدل عليه .. » .

ولسنا نحتاج إلى أكثر مما تقدم فيها رواه الرواة والمعاصرون عن أسرة الكواكبى للتعریف بأوائل نسبه ومنتسباته وأخلاقه وشمائله . ففي صفحات الكتب وأقوال المحدثين أخبار متذكرة من قبيل ما أجملناه تعبيده أحياناً في مختلف العبارات أو تزيد عليه ما ليس يزيد في معزاه . ولكننا نجترىء باليسير منها لأنه أجزاء متذكرة يتم بعثتها بعضاً ، وينتظم منها تاريخ متصل الحلقات منذ عرف اسم الأميرة في موطنها إلى مولده وأيام حياته ، وكلها - سواء منها الخبر المروى والخبر الذى تذكينا عنه معالم المدينة وأثارها - ينتهي إلى نتيجة واحدة تكفى للتعریف بحاضرها وماضيه الذى كان له الأثر الواضح في حياته وعمله ، فن هذه المعالم والأخبار نعلم أن « عبد الرحمن » قد وعى دنياه وهو يتلقى من ذكريات قرمه قسوة النبل والمعرفة ، وتمسك به الذكرى الغابرة إلى عهود الأسلام لاف الذين نهضوا بزعامة الدين وزعامة الدولة ، وتحفزوا للعرش من صوامع العبادة ومساجد المسارس والهدایة . وقد (الكواكبى)

يتأنى المؤرخ حين يبحث عن الأسانيد القاطعة فيها يتحراء عامة المؤرخين ورواة الأخبار عن القديم ، ولكنه لا حاجة به إلى الآناء فيها وعنته ذاكرة الأحياء من أبناء الأسرة وأثبتوا به إيمانهم بما كان لهم من سابقة وما ينبغي لهم من حياة حاضرة . فلا خلاف على هذه الذكريات بين أبناء الأسرة وأبناء المدينة التي تأصل فيها الأبناء بعد الآباء والأجداد على مدى أجيالها المذكورة ، ولا خلاف بين الرواة المعاصرين في عراقة الأسرة الكواكبية في مدينة حلب وإقليمها من حولها ، وإنما مختلفون فيمن تسمى باسمها لأول مرة من أجداد عبد الرحمن لأبيه أو لأمه ، ويقال إن أبا يحيى — أحد أجداده — كان يسمى « البرى » نسبة إلى « البرة » على القرب من حلب ، ويقول صديقه ومؤرخه الأستاذ كامل الغزى في مجلة الحديث الحلية : « إنه عرف بالكواكبى لاتصال أحد أسلافه بآل الكواكبى من جهة النساء المعروفات بعراقة النسب » . ولا يذكر — على أية حال — ذو نسب كواكبى بالمدينة غير آل عبد الرحمن في حياته وحياة أبيه وجده .

وقد حدث في حياة عبد الرحمن حادث ذو بال في تاريخ الأسرة وتأريخه بل تاریخ دعوته وتفكيره . فاتّقلت نقابة الأشراف من بيت الكواكبى إلى بيت « الصياد » شيخ الطريقة الرفاعية وشيخ مشايخ الطرق بعد ذلك في أنحاء الدولة التركية . ولكنه لم تنقل للشك في نسب الأسرة الكواكبية أو لثبوت نسب الأسرة الأخرى أسرة محمد ابن حسن وادي المشهور بأبى الهدى الصيادى . وإنما انتقلت لرضى الولاية عن زعيم هذه الأسرة ونفورهم من الأسرة الكواكبية ، وهذا هو المشل القريب الذى لمس فيه عبد الرحمن عيوب الحكم في الدولة وأدرك به مواطن الحاجة إلى الإصلاح ، قبل أن يدركه بالبحث والاطلاع .

وأحسب أننا نحتاج قبل اختتام هذا الفصل إلى كلمة موجزة عن الأسرة الصفوية التى يجمعها عمود النسب بالأسرة الكواكبية ، كما تجمعها

«الطريقة الأردبيلية»، منذ أيام مؤسسيها، صنف الدين المشهور، فإن الاتصال بين النسبين قد يفسر لنا الغابر بالحاضر، ويفسر لنا ميراث الشعور، منذ القدم بين الأسرة والدولة العثمانية، أو دولة السلطان سليم على التخصيص.

فمن الثابت أن الشاه إسماعيل الصفوي قد نشأ كما يقول مؤرخو الإفرنج من «أسرة دراويش» ينتسبون إلى بلدة أردبيل بأذربيجان، ويرتفعون بعمود النسب إلى الإمام علي والسترة الزهراء.

ومن الثابت أن الأسرة الصفوية من عهد مؤسسيها كانت على دراية بتنظيم الجماعات السرية وعلى أهمية لتجميع الجموع بالخالفة والعصبية.

ومن الثابت أن النساك من زعماء الطريقة الأردبيلية كانوا يزورون دمشق وبيت المقدس ويتزورون على المدن في الطريق بين شمال فارس وببلاد الروم.

ويقول المؤرخ اللبناني المسيحي - شاهين مكاريوس - في كتابه الذي وضعه عن تاريخ ليران ياذن الشاه ناصر الدين: «لها عائلة علماء أعلام وأئمة كرام وأصحاب تقوى يوقرهم الأئم».

ثم يروي قصة قيام الدولة فيهم فيقول بعد الإشارة إلى الشيخ صني الدين: «وكان لهذا الشيخ الفاضل أعون يصدعون بأمره، وهو لا يأمر بغير الطيب والإحسان، وخلفه ابنه صدر الدين وعقبه من الأولياء مشاهير مثل خواجه علي وجنيد وحيدر، من اشتهروا بالفضل والعلم والتقوى، وكان صدر الدين في أيام تيمور، وقد أخذ له مقرأ في مدينة أردبيل من أعمال أذربيجان مثل أبيه، فزاره يوماً هذا البطل العظيم وسأله أن مر بما قرر أقضه في الحال. قال: أريد منك أن تطلق سبيل الأسرى الذين أتيت بهم من بلاد الأترارك. ففعل تيمور بإشارته، وحفظ الأترارك هنا الجميل لصدر الدين وعائلته و كانوا بعدئذ هم السبب في توليها الملك كما سبقجاء، وليس في التاريخ ذكر أمر يدل

على الإقرار بالجميل بعد مرور الأجيال مثل هذا الأمر . وأشهر ما يذكر عن خواجه على أنه حج إلى القدس الشريف وما ت فيه وخلفه حفيده جنيد ، فاجتمع لديه خلق كثير حتى خاف الأتراك شره ، وحارب أحد رؤسائهم فاضطره إلى الفرار إلى ديار بكر حيث قابله حاكمها الأمير حسن بالإكرام وزوجه أخته ، وقصد جنيد بعد ذلك بلاد شرван فحاربه حاكمها وقتلها ، فخلفه السلطان حيدر ، وكان أمير — أوزون — حسن حليفه فتفوّى بنصرته على الأعداء . وصار بالتدرج حاكماً على كل بلاد إيران في مدة السلطان أبي سعيد الذي مر ذكره . وما ت قدفن في أربيل ، فخلفه ابنه السلطان على ولكن القلاقل كثُرت في أيامه وظلت عائلة صفي الدين في خطر دائم ، يوماً تصعد إلى الأوج ويوماً تنحط إلى الحضيض ، حتى قام السلطان إسماعيل ابن السلطان على ، وملك البلاد . وهو في اعتبار المؤرخين أول ملوك الدولة الصفوية ، ولا يعرف عن شاه إسماعيل في أيام صغره غير القليل ، إلا أنه استلم قيادة الأعوان في الرابعة عشرة من عمره فحارب عدو عائلته حاكم شروان وقتلها ، ثم هجم عليه الأتراك والتركمان من ناحية الأناضول ففرق شملهم وانتصر على كل أعدائه ، فنودى به سلطاناً على مملكة إيران وما يتبعها وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وكان إسماعيل صوفياً مثل أفراد عائلته وليس له أعداء وأعوانه كثير . فرأى بعد الإمعان أن يدخل مذهب الشيعة الاثني عشر الجعفرية إلى إيران و يجعلها مذهب السلطنة ، ففعل ذلك وفاز بمبراده ولم يلق معارضة تذكر ؛ لأن الإيرانيين عدوا هذا الانفصال استقلالاً لهم وفضلوا مذهب القائلين بتكريم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومن ذلك اليوم صارت بلاد إيران مقر الشيعة بين المسلمين ، وعصت خراسان وبلغ وغيرها من الولايات أمر السلطان إسماعيل في بدء حكمه على عادتها فحاربها كلها وانتصر عليها وامتد نفوذه هذا السلطان امتداداً عظيماً حتى رزق عدوه كبيراً لم يقدر عليه هو السلطان سليم العثماني الشهير ، قصد بلاد إيران بخيله ورجله البالغ عددها مائة وخمسين ألفاً ومائة مدفعة ،

وذلك بعثة دون مخابرات دولية لدى الحكومات ، وقام إسماعيل
لحرابته بكل ما لديه من القوة وهو يوم شاه بهمدان بطلب الصيد والقنص
ودافع عن بلاده في جلiran بخمسة عشر ألف نفس بأفربيجان ،
فتقهقر أمامه وكسر شر كسره مع أنه ظهر في الحرب بسالة غريبة ،
وكان الأتراك يحاربون بالمدافع والإيرانيون بالسلاح القديم . غير أن
انتصار الأتراك لم يؤثر في إيران لأنهم اضطروا إلى الرجوع في الشتاء
لشدة البرد وقلة الرزاد . ولكن إسماعيل ظل حزيناً من بعد تلك الكسرة
إلى آخر أيامه ، ويروى أنه لم يضحك من بعد ذلك اليوم ولم يترك لبس
السواد أيضاً . ولما مات السلطان سليم تقدم إسماعيل على بلاد الأتراك
لأخذ بالشأر فأخضع بلاد الجركس وهي يوم شاه تابعة للأتراك ، وعاد
عنها فعرج على أردبيل ليزور قبور أجداده فقضى نحبه هناك ودفن فيها
مأسوفاً عليه . . .

• • •

ترى هل نرى في تاريخ هذه الشعية من أردبيل ما يأبى أن تلحق
به تسمة تلائمه من تاريخ الشعية الكواكبية ؟ إن تاريخ الأسلاف ليس بـ
في الزمن كالمقدمة التي تنتظر البقية من أعمال الخلفاء والأبناء ، وما
أحرى عبد الرحمن أن يكون البقية المنظورة لمقدمة صدر الدين ! وما
أحرى الأسرتين أن يتسلل فيما نبع واحد من النجدة والورع والهمة
والصلابة والسماحة تشابه فيمن عرفناه منها حتى الآن على تنوع الموضع
والمصادين ! .

شيء واحد يستوقف المؤرخ من اختلاف الشعية الصيفوية والشعية
الكواكبية ، ولكن اختلاف متوقع ينفي كل ما فيه من الغرابة بانتظار
وقوعه على الوجه الذي صار إليه .

فالشعية الصيفوية أخذت مذهب الشيعة الإمامية حين قام منها الأئمة
على عرش إيران ، والشعية الكواكبية تدين بمذهب أبي حنيفة من أئمته .
السنة لأنه المذهب الذي غالب على المدينة حيث درجوا وتعلموا وأنجبو

الأبناء المتعلمين والأساتذة المعلمين ، وربما كان من أتباع صدر الدين أحناف كثيرون كما يعلم من كثرة مریديةه من الترك المتنقلين إلى إيران في أسر السلطان تيمور .

وقد كان أتباع الكواكبى للمذهب الحنفى لا يمنعه أن يدعوا إلى وحدة المذاهب وإقامة الإمامة على غير قواعد الخلافة في الدولة العثمانية . فربما كان هذا التصرف بين الشعبتين على المنهج المتظر من كليهما قرابة ياطنية تمحو ما يتراهى للنظر من ظواهر الاختلاف .

الشّاة

الطفل أبو الرجل .

صدق من قالها بما عنده من لفظها ومعناها ، فإن الرجل الكبير يتولد من الطفل الصغير فهو ولد وسليله على هذا التعبير .

وقد كان عبد الرحمن الصغير أباً مبكراً للرحلة المخادد المفكر الحكيم صاحب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » ورائد النهضة العربية في طباعة الرواد .

من أقسى ما يصاب به الطفل في نشأته أن يفقد الأم ويغترب عن الأب وعن الجيرة التي فتح عليها عينيه من دنياه .

وقد أصيب الطفل عبد الرحمن بهذه المحن جمِيعاً ، فصلب لها عوده الللن و هو دون العاشرة ، ونما على معدن الجهاد في طبيعته قبل أوان الجهاد في عنفوان شبابه ، فن هذا الطفل الدارج من المهد نشأ ذلك الكهل الذي أقدم على مخاطر الهجرة والرحلة الطويلة على غير أمل في العودة إلى الوطن وعلى غير أمان من الغيلة والضيـك والمشقة ، وهو رب أسرة وأبو أبناء وفرع أرومـة تأصلت في منتها – الذي قطع نفسه عنه – منذ مئات السنين .

تقول الأوراق الرسمية إن صاحب الترجمة ولد حوالي سنة ١٨٤٨ م (١٢٦٥ هجرية) ويقول ابنه الدكتور أسعد إنه ولد بعد ذلك بسنوات ، وطلب تصحـح تاريخ المولـد لدخول الـانتخابـات ، وإنـما كان مولـده الثـابت من سـجلـات الأـسرـةـ فيـ سـنة ١٨٥٤ م (١٢٧١ هـ) ، وـتـوفـيتـ والـدـتهـ سـنة (١٢٧٦ هـ) وـهـوـ فيـ نـحوـ السـادـسـةـ مـنـ عـمـرـهـ ، أوـ هـوـ قدـ نـاهـزـ العـاشرـةـ إـذـاـ أـخـلـانـاـ بـالـرـوـاـيـةـ الرـسـمـيـةـ .

والمرجح أنه كان أصغر من سنه في الأوراق الرسمية عند وفاة والدته ، فإن أبيه قد أودعه حضانة خالته السيدة صفية بانطاكيه فأقام بها إلى سنة ١٣٨٢ هجرية ثم عاد إلى حلب للدخول المدرسة الكواكبية ، ولو كان قد بلغ العاشرة ~~عند~~ وفاة أمه لاستغنى عن الحضانة في هذه السن وصلاح للدخول المدرسة الكواكبية بغير تأجيل . ولو صبح تاريخ الأوراق الرسمية لكان نحو السابعة عشرة حين عاد من أنطاكيه للدخول المدرسة ، وهي سن متأخرة لمن يهتم بالدراسة في مثل أمرته .

وقد تعلم الكواكبى في مكتب بانطاكيه أو مدرسة حلب كل ما يتلقاه التلميذ فيما من العلوم المدرسية ، وتعلم اللغتين التركية والفارسية ومبادئ الرياضيات على الأساتذة الخصوصيين من أصدقاء أبيه ، وتلقى من أبيه صفوة العلوم الدينية والأدبية التي كان يتقنها ، وهو كما تقدم من معلمى الجامع الأموى وأصحاب المناصب الشرعية .

قال صاحب المئار : « إن الفقيه درس قوانين الدولة درسًا دقيقاً وكان محيطًا بها يكاد يكون حافظاً لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشريائع ، ولهذا عينته الحكومة في لجنة امتحان الخامين ، ولا أعلم أنه برق في فن أو علم مخصوص فاق فيه القرآن ، ولكنه تلقى ما تلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث إذا أراد الاشتغال عملاً أو تأليفاً أو تعليمًا يتمنى له أن ينفع نفعاً لا ينتظر من الدين صرفاً فيه أعمارهم . . . على أن الفقيه لم يتعلم شيئاً من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملائكة والفلسفة في مدرسة ، وإنما عمدته في هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائم التركية والعربية » .

ولا يخفى أن طالب العلوم الفلسفية لا يحتاج في عصر الكواكبى أو في العصر الحاضر إلى غير اللغة العربية للتتوسيع فيها غاية ما ينشده من توسيع المتخصصين أو المستطلعين . أما المعارف العصرية فقد يسمى الناشئ العصرى بما كان يتيسر منها للقارىء الذى يجهل اللغات الأوروبية قبل مائة سنة ، ولكنه في الحقيقة مخصوص وافر لا يستهان به في

زمانه ، إذ كان في وسع العارف بالعربية أو التركية أن يطالع مئات من الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية في العلوم والأداب ، وأن يطالع معها المجلات والصحف التي تكتب في هذه العلوم والأداب أو تنقلها عن ثقافتها وأعلامها ، وقد تحدث الزهاوي عن نفسه فقال إنه لم يزود من المعرفة العصرية بزاد غير مطالعاته في المجلات العربية والتركية وبعض الكتب المترجمة التي وصلت إلى يديه في بغداد ، وبهذا الزاد — ولا زيادة عليه — أصبح في مقدمة الباحثين المعدودين إلى أوائل القرن العشرين ، فضلًا عن مكانته الشعرية وعمله في مجالس النواب .

ولا نخال أن الكواكبي فاته مر جمع هام يعنيه أن يطلع عليه في موضوعات تخشه وتفكريه ، بل لا نخال أنه ضيع فرصة يستفيد منها علمًا أو خبرًا نافعًا من زوار حلب الذين يجتمعون بمشله في مركزه ووجاهته بين قومه ، وكانت حلب لا تزال في عهد نشأته مثابة الزائرين والمقيمين من فضلاء الشرق والغرب ، وبينهم وكلاء الشركات التي كانت تتأسس في المدينة على طريق التجارة الهندية الشرقية قبل افتتاح قناة السويس ، وبينهم فئة من الإيطاليين في إبان ثورتهم القومية ، وفئة من الفرنسيين في إبان ثورتهم الدستورية ، وكثير منهم مثقفون ينتمون إلى حزب من الأحزاب الثورية في بلادهم وينقلون معهم آراء فلاسفتهم وزعمائهم وأبناء طوائفهم وجماعاتهم ، ومن هؤلاء ولا شك عرف الكواكبي ما عرف عن « الفيبرى » صاحب الاستبداد الذي أشار إليه في كتابه ، ولا يبعد أن يكون قد انضم معه في محفل من محافل « الكربونارى » التي أفسها ثوار إيطاليا لمنافسة الماسون الإنجليز أو الفرنسيين وجعلوا يرجون فيها بفضلاء الأمم الأخرى لنشر مبادئهم وتأييدهم دعوتهم إلى الحرية ، وهي قربة يومئذ من دعوة الشاعر العربي إلى الوحدة القومية والاستقلال عن السيادة التركية .

والظاهر من سيرة الكواكبي ومن كتابته معاً أنه أصاب من الثقافة القديمة والحديثة ما يرشحه لأعماله في المدينة ولرسالته في العالم العربي

والعالم الإسلامي على عمومه ، فلم يوكل إليه عمل من أعمال الحكومة أو المطالب الاجتماعية إلا أثبت فيها كفاية الإدارة الحسنة والنشاط المنجز والتصرف المبتكر الذي يخرج به على الأثر من جمود الورثة المشهور في عرف الغربيين بالروتين ، ويعضى به إلى نتيجته المقصودة التي عطلها التقليد وطول الإهمال .

عمل وهو ينادى الثانية والعشرين في صحيفة « فرات » العربية التركية التي أنشأها المؤرخ التركي الكبير أحمد جودت باشا قبل عمل الكواكب فيها بنحو عشر سنوات ، ثم أنشأ في حلب أول صحيفة عربية باسم « الشهباء » مع زميله هاشم العطار ، ثم أنشأ صحيفة « الاعتدال » بعد تعطيل الشهباء لصراحتها في نقد الإدارة وتلميحيها إلى وساوس السلطان عبد الحميد ، فأصابها ما أصاب الشهباء بعد قليل .

ويأس الكواكب من أداء رسالة الإصلاح بالكتابة المحجور عليها في الصحافة المهددة بالتعطيل . فقبل العمل في وظائف الحكومة وتولى في هذه الوظائف ضرورياً منوعة من أعمال الإدارة والقضاء والتعليم ، ومنها وظائف لها اتصال بالتجارة كادارة حصر الدخان ولجنة البيع والفراغ التي تستبدل أرض الحكومة ، ورئاسة غرفة التجارة ، وغيرها من الوظائف التي تدعى إحصاءها ونكتفي في هذا المقام بدلالها جميعاً على كفاية الرجل لكل عمل تولاه ، وعلى تلك القدرة المللهمة التي أعانته على إحياء كل وظيفة عهدت إليه من موات الورثة أو « الروتين » ونجاحه في تنظيفها وتطهيرها بعد نفوس الغبار عنها ، واستصلاحها للإنتاج والتعمر .

فن مبتكراته في المجلس البلدي أنه جعل للسايحة طريقاً غير طريق الإبل والدواب ، وأقام في ضواحي المدينة سلاسل من الحديد للفصل بين معالم الطرق وتسهيل السير للمشاة .

ومنها أنه زاد أجور العمال سداً للفرائض الرشوة والاختلاس ،

وأنه زتب أوقات العمل وموضوعاته وخصوص الأماكن لكل منها منعاً للزحام والانتظار ، وأنه تتبع المهربين للدخان وأجرى عليهم الرواتب والوظائف التي تغفهم عن التهريب ، وأنه ضبط أعمال الغرفة التجارية بالإحصاءات ونظمها على مثال الغرف التجارية في عواصم الحضارة .

ومن مشروعاته إعداد العدة لإنارة المدينة وضواحيها بالكهرباء ، وبناء مرفأً للسويدية وجلب الماء إلى حلب من نهر الساجور ، وتجفيف المستنقعات التي كانت فيها مرضى منعاً للأوبئة والحميات الدورية .

وقد أقام في حلب معظم أيامه لم يفارقهها قبل سفره منها إلى القاهرة غير مرات قليلة في رحلات قصيرة ، إحداها أبعد فيها الرحلة إلى الآستانة حيث علم أبو الحدى بمقدمه فنقله إلى داره وحاول اجتذابه إلى حظيرته واستيقاه تحت نظره ، فاطله الكواكبى بالوعد حتى تمكن من العودة إلى بلده بغير اختياره .

وفي خلال هذه الأعمال والوظائف جرت عليه فزانته — وصراحته — عداوة أعداء العمل النزيه والقول الصريح ، فابتلى في ماله ورزقه ، وتمحل الولاة المعاذير الواهية لمصادرة أرضه وإتلاف مرافقه ، وأقاموه بمرصد للتهم والوشيات كلما نشب فتنة أو وقعت جريمة لصقت به الفريدة العاجلة وصنعت الجاسوسية صنعيها في تلفيق الأسانيد وتلقين الشهود وتدبير المحاكمات ، وينقضى الوقت في شغل شاغل من هذه التهم ومن جهوده وجهود أنصاره في دفع شرها ورد كيدها ، ومنها ما يبلغ به الخطر مبلغ الاتهام بالخيانة وعقوبة الإعدام ...

يلقى حجر على القنصل الإيطالي فيهم الكواكبى لأن القنصل أصيب في جوار داره ويطلق الرصاص على الوالي فيهم الكواكبى لأن الكواكبى اشتakah وأنهى عليه ، ويستجر جماعة من أبناء الجالبيات فيهم الكواكبى لأنه حسن العلاقة محبوب بين أبناء هذه الجالبيات .

ومن نبل هذا الرجل الكريم أن الوالي الذي اتهمه بتدبير الجريمة

لاغتياله — جميسل باشا — وقع في خصومة عنيفة بينه وبين القنصل الإنجليزي في المدينة ، فلماً القنصل إلى نفوذ دولته في العاصمة ، وبادرت العاصمة إلى التحقيق على غير عادتها ، فقدم مندوب الوزارة المحقق إلى حلب وهو يعلم بزاهة الكواكب وصدقه ويعلم أنه مطلع على الحقيقة من شهادته وتوجهاته ، فأبى مرؤدة الرجل أن يؤيد وكيلاً لدولة أجنبية تغم التأييد في البلدة من وراء فوزه في هذه الخصومة وانتصاره على أكبر ولايتها ، وشرح الموقف لمندوب التحقيق من هذه الوجهة ، فسلم الوالي من عاقبة هذه الأزمة ، ولم يسلم الكواكب من أذاء .

وأخطر ما أتهموه به أن يتواطأ مع دولة أجنبية لتسليم البلاد إليها ، وهي جريمة عقوبها الموت إذا ثبتت ، وثبتت بالشبة القوية عند ساسة العصر إذا تعلرت الأسانيد القاطعة ، وأوشكت قرائن التزييف والتهديد أن تطبق على المتهم البريء لولا أنه نجح في نقل المحاكمة من قضاء حلب إلى قضاء بيروت ، فكان ابتعاد المحاكمة عن مقر التزييف والتهديد سهلاً إلى جلاء الشبهة وثبت البراءة ، بعد أن ضاع الرجاء فيها أو كاد .

إن سيرة هذا البريء المظلوم مادة دراسة للمظالم والأباطيل ، وإن أعداءه في بلده أعنوان همته وعزمه ، فلولاهم لجاز أن يسكن إلى مقام يستطيع ويختمل ، ولكنهم أحسنوا غير عامدين ولا مشكورين فجاوزا به حد الأحتمال .

ثقافة الكواكب

كان الكواكب « ابن عصره » .

ووجه الإنسان من الثقافة أن يعيش في عصره لا يتخلّف عن شأوه في علمه ولا في عمله ، فليس للثقافة من حسنة ألزم لها من هذه الحسنة في مجال المعيشة ولا في مجال الدعوة إلى التجديد والإصلاح .

فالرجعي الجامد يعيش في الأيام الماضية .

والطوبى الحال يعيش في الأيام المقبلة .

ولكن الرجل المثقف يؤودي للثقافة كل حقها إذا استفاد من معارف زمانه ولم يتقيّد بمقاييس الزمان السابق وعقابيه ، فعمل كما ينبغي أن يعمل كل من تحرر من قيود التقليد التي يرتبط بها المقلد وهو لا يفقه معناها . والذين أصابوا من ثقافة القرن التاسع عشر كما أصاب الكواكب كثيرون يعودون بالمشات ، ولكن الذين هم من ثقافتهم فضل كفضله آحاد يعودون على أصابع اليدين .

إن فضل المثقفين في عصر الكواكب أنهم تعلموا كما فرضت عليهم البيئة أن يتعلموا ، وسيقوا إلى العلم مع الزمان كله ، غير مخربين .

أما فضل الكواكب في ثقافته فهو أكبر من فضل واحد :

إنه فضل المثقف الذي تلقى ثقافته من ثمرة اجتهاده ومشيّطه .

وإنه فضل المثقف الذي بلغ بوسيلته ما لم يبلغه أحداده بأضعف تلك الوسيلة .

وإنه فضل المثقف الذي انتفع بثقافته ونفع بها قومه ، وجعلها عملاً متنجاً ، ولم يتركها كما تلقاها أفكاراً وكلمات .

تلّى الكواكب في المكاتب والمدارس ما يتلقاه الأطفال الصغار ،
فكُلّ ما يتعلمه الفقى الناشئ أو الرجل الناضج هو كُلّ ما تلقاه في بيته
واستفاده من مطالعاته .

وتعلم من اللغات غير العربية — لغتين شرقيتين هما التركية والفارسية ،
وكليتاهم تأخذ الثقافة العصرية منقوله من اللغات الأوربية ، متفرقة بين
أشتات من الكتب والصحف ، فبلغ بهذه الوسيلة في مطلبه الذي عنده
شأواً لم يسبقه فيه رواد الثقافة من مناهلهما في لغاتها ، وبين أيدي الأساتذة
والملئين من أهلها .

وعرف ما عرفه بهذه الوسيلة فعمل به كُلّ ما في الوعي أن يعمل
في زمانه ، وأبقى أساسه من بعده صاحباً للبناء عليه .

وذلك فضل النبوع وفضل الزعامة ، لا يستوعبه أن يقال إنه عمل
رجل من المثقفين ، حتى يقال بل رجل من المثقفين النابغين العاملين ..
ولا يطلب من المثقف العامل أن يحيط بمعرف عصره ويقتضي كل
جديد من بداعه جيله ، فليس ذلك ميسور ولا هو بلازم للمثقف العامل ،
 وإنما يعنيه أن يعرف ما يعنيه في عمله ، وأن يعممه على التحور الذي جددته
معارف الزمان ولم يكن ميسوراً لمن يتركون القديم على قدمه .

وكان الكواكب يعمل في إصلاح المجتمع الإسلامي وإصلاح
الحكومة المستبدة ، فلم يدع باباً من أبواب المعرفة التي تعينه على قصده
لم يأخذ منه ما يكفيه ويغطيه ، ولم يزهد في أصل من أصول هذه المعرفة
إلا ما كان من قبيل الفضول في تحقيق غاياته القرية وجهوده المرجوة .

فليس من زاد هذه الدعوة أن يملأ ذهنه أو يملأ صاحفه بالمطروحات
أو الموسوعات في شروح التواريخ وتفاصيل المذاهب الاجتماعية ودساتير
الحكومات والدول بين قديم منها وحديث .

وليس من زادها أن يسبح في عالم من فتاوى الفقهاء وفروض المفسرين
وعشاق التأويل والتخرير .

بل يكفيه من الزاد - ويرى على الكفاية - أن يعلم من أحكام دينه ما يميز به الصحيح وغير الصحيح ويهدى به إلى القوم من الرأي والاعتقاد وغير القوم . ويكتفي أن يعلم من أحوال عصره علاقات الدول والأوطان ، وبجمل الواقع الثابتة من دعوات الحرية والإصلاح ، وذلك هو الزاد الذي يعلم المطلعون على كتابيه أنه كان موفراً لديه .

فن صفحات « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » نعلم أنه كان على اطلاع حسن في مسائل الدين ، وكان على دراية محققة بتواريخ الأمم الإسلامية ، وكان من الملمين أولاً فأولاً بالفتح العلمية في العصر الحديث يفهم منها ما لم يكن يفهمه غير القليلين في أوربة نفسها يومئذ من آراء الرواد السابقين فيها ، فكان ملماً بمذهب النشوء والارتفاع ، ملماً بآراء العلماء في أطوار المادة وحركات الأفلاك وتكوين الكرة الأرضية والمنظومة الشمسية ، وكان في شؤون الاجتماع والسياسة يعلم بأخبار الثورة الفرنسية وأخبار الزعماء والعامليين على استقلال الشعوب وتوحيد الأقوام ، ويتابع قواعد الحكم ومواضع التفرقة بينها ، وينظر في الأخلاق والعادات التي تفترق بالفوارق بين أمة منها وأمة وبين حكومة منها وحكومة ، وبخض الشؤون العملية بعنایته الأولى غير معرض عن جوانبها الأدبية ، فلما يختي عليه اسم الشاعر الذي أبدع الأناشيد أو الخطيب الذي أثار النخوة ، ولكنه يقنع من ذلك بالحظ الذي سلك عنده « شيلر » في سلك حسان والكميت ، فلما نظره كلف نفسه الاطلاع على أناشيد المرشدين وخطب الخطباء ، بل لا نظنه كان يعز بها في لغة من اللغات التي حمسها لو أنه سأله عنها ، ولكنه لم يعلم بالأساء إلا لعلمه بالدعوات التي أبرزتها في صفحات روايتها ومؤرخيها .

• • •

ولَا اختلاف في مذهب الثقافة الدينية ، على اعتقاد الكواكب ، بين التجديد والمحافظة على تراث السلف الصالح في صدر الإسلام . لأن تهضة المسلمين إنما تقوم على تطهير الدينية الإسلامية من نفسيات

الخرافة، أو حواشى البدع ^{التي} اصقت بها في عصو ز الجمود والتقليد، فالمحافظة في اعتقاده مرادفة للتجديد على أقوام سبله، واعتبار الكواكب من صنف المحافظين في الدين لا يخرجه من زمرة المجددين المتشددين في طلب الإصلاح، بل هو على قدر غلوه في المحافظة على تراث السلف يغلو في دعوة الأجيال المقبلة إلى التحرر والتجديد.

وقد كان يشتهي في المحافظة أحساناً فيتخرج من تغيير العادات في غير حرج، كما نرى في اعتقاده الذي أنسى به على السلطان محمود لأنه لا اقتيس عن الإفريقي كسوthem وألزم رجال دولته وحاشيته بأيمانها حتى عممت أو كادت، ولم يشا الأتراك أن يغيروا منها الأكادم رعاية للدين لأنها مانعة من الوضوء أو معسرة له».

وإن هذا الانتقاد لإفراط في المحافظة يتحققه بزمرة المحافظين الغلاة في حرصهم على سمت الشفاف وزيه الذي لا مساس له بجوهر العقيدة، وقد رأينا من معاصريه أنه ربما نزع إليه إفراطاً منه في السخط على مسلمتين الدولة وأسائلهم في التقرير بين الشرق والغرب والقديم والحديث، ولكنه كما نرى من محافظته على زيه في وطنه وبعد الهجرة منه إلى الهند والمديار النصرية - لم يكن يعمل غير ما يقول، ولم يكن يلتفت بكلامه ما يتறّض فيه بسلوكه. فإنه بقي على سنة أسلافه - قبل عهده السلطان محمود - فلم يبدل زيه إلا ليابس العباءة والعقال.

وربما جنح في أواخر أيامه إلى آراء بعض المتصوفة في تفسير الكائنات الغيبية بالمعنى النفسي والرموز الروحية، وأبعد ما ذهب إليه من ذلك قوله في فصل التريسة من طبائع الاستبداد: «إن يشا الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواطر الخبر، وإن شاء تابس بالرذائل حتى يكون أحاط من الشياطين، إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر ..».

ورد هذا في الطبيعة التي ظهرت بعد وفاته ولم يرد في طبعة من الطبعات التي أصلبواها في حياته، ولعله من بهذا الخاطر بعد اطلاعه

على التفسيرات الحديثة على أطراف من كلام الصوفية المتأخرة ،
ولأن حاله قد غفل في مطالعاته الدينيّة عن تفسير كتفسير السيد محمد الالوسي
المتوفى سنة ١٢٧٠ هجرية ، فإنه يشير إلى أمثل هذه الخواطر كما فعل
بعد تفسير الآية عن زلل آدم وحواء إذ أكلاه من الشجرة فقال : « وبينا
هما يتفرجان في الجنة إذ رأيهم طاوس تجلّى لهما على سور الجنة فدانت
حواء منه ، وتبعها آدم فوسوس لهما من وراء الجدار ... ومشهور حكاية
الحيّة .. يشير أو لهما عند سعاداتنا الصوفية إلى توسله من قبل الشهوة
خارج الجنة ، وثانيهما إلى توسله بالغضب . وتسور جدار الجنة عندهم
إشارة إلى أن الغضب أقرب إلى الأفق الروحاني والحيز القلبي من
الشهوة . وقبيل إن توسله إلى ما توسل إليه إذ ذاك مثل توسله اليوم إلى
إزال ل من شاء الله تعالى وإضلله ، ولا نعرف من ذلك إلا الهوا جس
والخواطر التي تفهي إلى ما تفهي ، ولا جزم عند كثير في دخول
الشيطان في القلب بل لا يعقلونه ، ولهذا قالوا : إن خبر (إن الشيطان
يجرى من ابن آدم مجرى الدم) محمول على الكثراية عن مزيد سلطانه
عليهم وانقيادهم له ، وكأنى بك تختار هذا القول ، وقال أبو منصور :
ليس لنا البحث عن كيفية ذلك ولا نقطع القول بلا دليل ... » .

وقد تقدم من كان يقول - كاجلبيأي وأبى بكر الرازى - إن أثر الشيطان فى دم الإنسان كأثر النفس فيه ، فليس للشيطان وجود جسدى فى داخل البنية الإنسانية ، وليس له من سلطان عليه غير ما يتغلب به على هواه .

فإن الكواكب قد لاحت له هذه اللمحات العابرة فما عدا بها تملك
الخواطر الصوفية ولا تملك الخواطر الطيبة التي أوردها مورد الاتهام ،
ولم يقطع بالقول — على حد عبارة السيد الألوسي — بغير دليل .

ولا تزال سمة الثقافة العصرية أغلب السمات على هذا الفعل المستير ، تجذبه المحافظة على سنة السلف أحياناً ، بل تجذبه كثيراً ، ولكنها لا تجذبه إلى جانبها إلا من جانب التجديد ، لأن التجديد عنده هو محظوظ الفضول عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة والاجتياح الفضول عن العقيدة الإسلامية والعودة بها إلى بساطة الحرية والاستقامة والاجتياح في الفهم المزدهر عن قيود التقليد .

أسلوب الكواكب

كانت أساليب الكتابة في أواخر القرن الثامن عشر لا تتعدي
أساليب الرسائل و «الخطابات» أو «الإفادات» بين عامة وخاصة.

وكانت الرسائل العامة - وهي رسائل الدواوين - مفرغة في
قوالبها التقليدية تتكرر على صورة واحدة في مناسباتها فلا يستريح الكاتب
أن يصرف في ألفاظها ولا في ترتيب عباراتها وصيغة استهلاها وختامها ،
أو «ديجاجتها وتفعيلتها» باصطلاحهم الذي حافظوا عليه نحو قرن كامل
بعد هذه الفترة .

وجرى الاصطلاح على المفردات المتفرقة كما جرى على الجمل
والعبارات في تلك الرسائل الرسمية ، فأصبحت لغة الدواوين «لغة
خاصة» بين الفصيحة والدارجة تتخللها الكلمات التركية أو الكلمات
العربية بأوزانها التركية ، وتندر فيها ملاحظة قواعد الإعراب فضلاً
عن قواعد الصرف على أصولها العربية .

ولم تكن هناك «كتابة» بمعناها المفهوم في أغراض الأدب والثقافة ،
فلم يكن في القرن الثامن عشر من يكتب ليعبر عن فكرة أدبية أو عن
حالة نفسية ، أو ليصور للقارئ معنى مبتكرأ من عنده أو معنى
مفهوماً من معانى العلم والمعرفة ، وإنما الكاتب يومئذ من كان يستظهر
أنماطاً من الصيغ يتداولها جميع الكتاب على صورة واحدة في مناسباتها ،
ولا يستطيعون إعادةتها بمعناها على صورة أخرى غير التي حفظوها
وتداولوها .

أما كتابة «التعبير» فقد تعطلت في عصور الجمود والتقليد ولم
يشعر أحد بالحاجة إليها للتأليف وانتصنيف أو للإفضاء بما عنده من

الخواطر والآراء : إذ لم يكن ثمة من يؤلف ويصنف : ولم تكن ثمة خواطر وآراء يتبادلها الكتاب والقراء ، بل لم يكن ثمة من يقرأ القديم ويرغب في نسخه وحفظه ، وفي تعلمه وتعليمه ، لقلة العناية بالعلم في غير أغراضه المتواترة التي يكتفون فيها بالحفظ والنقل والحاكا .

وطلت الكتابة للتعبير معطلة إلى أوائل القرن التاسع عشر الذي تبنت فيه البلاد العربية لوقفها من أمم الحضارة ، فاحتاجت إلى التعلم منها كما احتاجت إلى إحياء علومها وأدابها التي بقيت لها بقية من الفخر بها والحنين إليها . فانبعثت الكتابة العربية الحديثة مع حركة الترجمة وحركة الطباعة . وولدت « أساليب الكتابة » في مولدها الجديد يوم احتاج المترجم إلى فهم شيء مفصل مشرح بين يديه يؤديه من عنده بعبارة عربية تطابقه في معناه ، ويوم شعر بالضرورة التي تلجمه إلى مراجعة كتب السلف ليتعلم منها أساليب الأداء ويستوعب منها مخصوصاته من المفردات والتركيب .

وبدأت الكتابة العربية — مع ابتداء حركة الترجمة والطباعة — ضعيفة متغيرة تشبه كتابة الدواوين وتنتفت إليها ، ثم نشطت من عقابها قليلاً قليلاً حتى استقامت على قدمها في شيء من الاستقلال والثقة ، فانقضى جيل من المترجمين والكتاب أو جيلان قبل أن تظهر في عالم الكتابة العربية أقلام يتميز بينها قلم من قلم ، وأسلوب من أسلوب ، ويتحدى القراء عن أسلوب هذا الكاتب وأسلوب ذاك .

وتتنوعت الأساليب على حسب القراءات والمطالعات ، فالذين أكثروا من قراءة كتب الأدب أو قراءة كتب التفسير والأحاديث النبوية ظهرت في أسلوبهم جزالة اللفظ وسلامة التركيب وقلت فيه أخطاء النحو والصرف وما خذ اللغة على الإجمال ، والذين أكثروا من قراءة كتب التاريخ والدراسات الاجتماعية وراجع الحقائق والأحكام ظهرت في أسلوبهم سلاسة التعبير وسهولة الأداء ودقة المعنى على منهج أصحاب العلوم أو أصحاب الأحكام ، ولكنهم لم يسلموا من بعض الخطأ .

قواعد الإعراب والتصريف على ديندين أمثالهم ونظرائهم بين الكتاب الأقدمين .

وربما اتضح الفارق بين الأسلوبين بتسمية الأعلام من كتاب كل مدرسة متبعة في ثقافتنا العربية ، فهما مدرستان : أدبية ينضوي إليها أمثال ابن المقفع والبديع والجرجاني وابن عبدربه وابن زيدون ، وعلمية ينضوي إليها أمثال الغزالى وابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة وسائر كتاب التواريخ والرحلات ومباحث الأخلاق والاجتماع .

• • *

والكواكبى قد بدأ حياته الصحفية بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وأخذ يشاد في فن الكتابة خلال تلك الفترة المتوسطة بين ابتداء حركة الترجمة والطباعة وانتشار المطبوعات من كتب السلف ، وما استتبعه من شيوع الفصاحة والاستقلال بالتعبير .

ولا أدل من أصالة طبعه من أسلوب كتابته ، فإن أسلوبه ينم على مطالعاته ، ومطالعاته تتم على الوجهة التي اتجه إليها بفطرته واستعد لها بتربيته ، وهى وجهة العمل على محاربة الاستبداد وتدعيم مبادئ الحرية .

وكان الكواكبى كثير المطالعة فيما ينفعه في هذا المطلب ويستحوذ خطاه إلى هذه الوجهة ، قليل المطالعة فيما عداه من كتب العلم الذى يسميه علم اللغة أو العلم الموكل بشئون المعاد بعزل عن شئون الحياة ، وإلى هذا يشير في كتابه « طبائع الاستبداد » حيث يقول : « إن المستبد لا يخشى علوم اللغة — تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأكثراها هراء وهذيان . نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو سحر بيان يحمل عقد الجيوش » .

ثم يقول : « كذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد الخالصة بما بين الإنسان وربه ؛ لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تربيل غشاوة ، وإنما يتلهى بها المهوسون » ..

إلى أن يقول : « ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمـةـ النظريةـ والفلسفةـ العقليةـ وحقوقـ الأئمـ وطبائعـ الاجتماعـ والسياسةـ المدنيةـ والتاريخـ المفصلـ والخطابةـ الأدبيةـ ، ونحوـ ذلكـ منـ العلومـ التيـ تكبرـ التفوسـ وتوسيـعـ العقولـ وتعـرفـ الإنسانـ ماـ هيـ حـقـوقـهـ .. » .

ومن المؤلفين الذين ذكرـهمـ فيـ مقدمةـ طبائعـ الاستبدادـ أولـئـكـ الذينـ أـلـفـواـ فيـ عـلـمـ السـيـاسـةـ مـزـوـجاـ مـاـ الـأـخـلـاقـ كـالـرـازـىـ وـالـطـوـسـىـ وـالـغـزـالـىـ وـالـعـلـانـىـ ، وـهـىـ طـرـيـقـةـ الـفـرـسـىـ ، وـمـزـوـجاـ بـالـأـدـبـ كـالـمـعـرـىـ وـالـمـنـبـىـ ، وـهـىـ طـرـيـقـةـ الـعـرـبـ ، وـمـزـوـجاـ بـالـتـارـيـخـ كـابـنـ خـلـدونـ وـابـنـ بـطـوـطـةـ ، وـهـىـ طـرـيـقـةـ الـمـغـارـبـةـ » .

ولا يرى من مطالعاته فيـ الشـعـرـ أنهـ كـانـ يـخـفـ إـلـىـ قـرـاءـةـ شـيـءـ مـنـ المـنـظـومـ عـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ المـثـالـ الذـىـ كـانـ يـسـتـشـهـدـ بـهـ فـيـ بـعـضـ فـصـولـ «ـ أـمـ القرـىـ »ـ أـوـ «ـ طـبـائـعـ الـاسـتـبـادـ »ـ كـفـوـلـ المـنـبـىـ :

وـإـنـماـ النـاسـ بـالـمـلـوـكـ وـمـاـ تـفـلـحـ عـرـبـ مـلـوـكـهـاـ عـجـمـ
أـوـ قـوـلـهـ الذـىـ اـسـتـشـهـدـ بـهـ عـلـىـ صـفـةـ الـمـسـبـدـ :

إـذـاـ سـاءـ فـعـلـ الـمـرـءـ سـاعـةـ ظـنـونـهـ وـصـدـقـ ماـ يـعـتـادـهـ مـنـ تـوـهـمـ
أـوـ قـوـلـهـ فـيـ وـصـفـ الـجـهـلـاءـ الـمـسـخـرـينـ :

بـأـرـضـ مـاـ اـشـتـهـيـتـ رـأـيـتـ فـيـهـ فـلـيـسـ يـفـسـوـهـاـ إـلـاـ كـرـامـ
أـوـ قـوـلـ أـبـيـ الـعـلـاءـ :

إـذـاـ لـمـ تـقـمـ بـالـعـدـلـ فـيـنـاـ حـكـوـمـةـ فـنـحـنـ عـلـىـ تـغـيـرـهـاـ قـدـرـاءـ
وـلـمـ يـذـكـرـ مـنـ شـعـرـ الـجـاهـلـيـةـ غـيرـ كـلـامـ لـعـمـرـ وـبـنـ نـفـيـلـ يـنـعـيـ فـيـهـ عـلـىـ
الـجـاهـلـيـينـ عـبـادـهـمـ لـلـأـرـبـابـ الـكـذـبـةـ وـلـمـ يـأـنـهـمـ بـالـحـرـافـةـ :

أـرـبـاـ وـاحـدـاـ أـمـ أـلـفـ رـبـ؟ـ أـدـيـنـ إـذـاـ تـقـسـمـتـ الـأـمـوـرـ
تـرـكـتـ الـلـاـتـ وـالـعـزـىـ جـمـيـعـاـ كـلـلـكـ يـفـسـعـلـ الرـجـلـ الـخـبـرـ

فهو قارئ تقوده فطرته إلى مطالعاته ، وكاتب تسرى إلى قلمه أساليب الموضوعات التي يطالعها ولا تصلح لأسلوب غيرها ، وبخاصة حين يجري بها القلم في الصحف السيارة حيث كتب الكواكبى مقالاته الأولى ومقالاته الأخيرة التي اجتمع منها كتاب طبائع الاستبداد ، وما كتبه أثناء ذلك في غير الصحف — كأم القرى — فانما هو فصول متتابعة تصلح للنشر في الصحف الدورية على النحو الذى ظهرت به في الكتاب .

وكان الكواكبى رحالة مطبوعاً على السياحة في الآفاق ولم يكن قصاراه أنه رحالة على صفحات الأوراق ، وقد طالع كتب المؤرخين والرحالين قبل أن يخرج من بلده للطواف في الأرض والكتابة للتاريخ ، وبباشر الرحلة في صفحات الكتب قبل أن يباشرها على متون الإبل والسفن في الصحاري والبحار ، فنقرأ ابن خلدون وابن جبير وابن بطوطة ثم قرأ مقالات الكواكبى خيل إليه أنهم قد بعثوا من مرادهم في رحلة من رحلات العصور يكتبون ويسجلون ما شهدوه وكابدوه لأنباء العصر الحديث .

وقد اتسم أسلوبه بسمة الأسلوب الذى تكتب به التوارىخ والرحلات ، وسلست عبارته في نسق مرسل واضح يقرر الواقع ويتبع المشاهدة ويتبسط في وصف ما يراه بالفکر كما يتبسيط في وصف ما يراه بالعيان .

ولا يخفى أن هؤلاء الكتاب — كما قدمنا — قد تخصصوا لتسجيل المشاهدات الاجتماعية والتاريخية ولم يتخصصوا لمباحثة اللغة والبيان ، فليس من الغريب أن تتسرب إلى أقلامهم أخطاء الألسنة في زمانهم ، وأن يتردد في عباراتهم بعض السهو الذى يتحرز منه اللغويون وكتاب الأدب ، في مدرسة ابن المقفع والبديم والجاحظ وعبد الحميد . وشأن الكواكبى في ذلك قريب من شأن ابن خلدون وابن جبير ، بل من

شأن الغزالي وابن مiskawayh وسائر أصحاب الأفلام، التي لم تتفرق للأدب واللغة وشغلتها دقة التعبير عن دقة الإعراب.

تقرأ له — مثلاً — في تعريف الاستبداد : « إن الناظر في أحوال الأمم يرى أن الأمراء يعيشون متلاصقون متراكمون ... أما العشائر والأمم الحرة ... فيعيشون متفرقون ». أو تقرأ مثل قوله : « الأزواج الحمقاء ... ولا يخرج قط ... ». وقوائين لكافة الشعوب » .. « وحياة النائم المزعوج بالأحلام^(١) » .. « وعلى هذا النسق يوضع كتاباً للمنبهيات » .. « وإن هؤلاء الأئمة الأقدمين لا يقدروا أن يطلعوا على مالا يقدر المتأخرؤن أن يطلعوا عليه ». « ولا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنه^(٢) » ... إلى أشيه هذه المأخذ التي كانت تشيع في صحافة عصره ولم يكدر يسلم منها كتاب الأدب والبيان ، وقد يعتبر الكواكبى من أقل زملائه ونظرائه تعرضاً لهذه المأخذ والهبات .

ولا ننسى أن « الكواكبى » كان يتحرى فيها يكتب ويعمل شيئاً واحداً لا يتحول عنه بفكرة ولا بقوله ، وهو محاربة الاستبداد .

ولا ننسى أن معيار القول النافع عنده أن يخشاه المستبد ولا يطمئن إليه ، والمستبد لا يخشع علوم اللغة التي أكثرها هزل وهذيان ولكنه يخشع من الكلام حماسة الخطابة ، لأنها تعقد الأولوية وتحل عقدة الجيوش كما قال .

ولهذا كان هذا الأسلوب الخطابي من الأساليب الخبيثة إلى الكواكبى في كتابته ، وكان يخجل إليه أحياناً أنه يلقى بالقسم جانباً ليتكلم إلى القراء كلام الخطيب على المنبر لمن يصغون إليه بالأسماع ، أو يصغون إليه بالقلوب بدل الأسماع .

(١) أم القرى

(٢) طبائع الاستبداد

وكانوا نراهم بملائكة ولهو يختتم كلامه على الاستبداد والترقي بهذه الكلمات :

« على ذكر اللوم الإرشادي لاح لى أن أصور الرفق والانحطاط في النفس وكيف يتبعى للإنسان العاقل أن يعنى إيقاظ قومه وكيف يرشد هم إلى أنهم خلقو لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة ، فيه كرم ويحرك قلوبهم ويناجيهم وينذرهم ، بنحو الخطابات الآتية » .

ثم يقول :

« يا قوم ! ينذرنى والله الشعور هل موقفى هذا في جموع حى فأتحيه بالسلام ، أم أنا أخاطب أهل القبور فأتحيهم بالرحمة .

« يا هؤلاء ! لست بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين . بل أنتم بين بين فى بروز يسمى السبت ، ويصبح تشبهه بالنوم .

« يا رباه : إنى أرى أشباح أناس يشبهون ذوى الحياة وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون ، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون .

« يا قوم ؟ هذاكم الله . إلى متى هذا الشقاء المدید ، والناس في نعيم عقيم ، وعز كريم . أفلأ تنتظرون ؟ » .

وفي مثل هذا المقام يلتفت بعد ذلك بصفحات ليخاطب الشرق والغرب بهذا الخطاب ، إذ ينادى الشرق . أولاً : قائلًا :

« رعاك الله يا شرق ! ماذا أصاباك فأخل نظامك ؟ والددر ذاك الدهر ، ما غير وضعك ولا بدل شرعيه فيك » .

« رعاك الله يا شرق ! ماذا عراك وسكن منك الحراك . ألم تزل أرضك واسعة خصبة ومعادنك وافية غنية ، وحيوانك رايناً متناسلا ، وعمرانك قائماً متواصلا ، وبنوك — على ما رببهم — أقرب للخير من الشر ... أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم ضعفاً في القلب ، وعندهم الحياة المسمى بالجبانة ، وعندهم الكرم المسمى بالإتلاف ، وعندهم القناعة

المسماة بالعجز ، وعندهم العفة المسماة بالبلاء ، وعندهم الجاملة المسماة بالذل ؟ .. نعم ما هم بالسالمين من الظلم ولكن فيما بينهم ، ولا من الخداع ولكن لا يفتخرون به ، ولا من الإضرار ولكن مع الخوف من الله » ..

ثم يلتفت من خطاب الشرق إلى الغرب ليخاطبه على هذا النحو قائلاً :

« رعاك الله يا غرب وحياك وبياك . قد عرفت لأنحائك سابق فضلها عليك ، فوفيت وكفيت ، وأحسنت الوصاية وهديت ، وقد اشتد ساعد بعض أولاد أخيك ، فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانته أنجحاب أخيك على هدم ذاك السور ، سور الشؤم والسرور ، ليخرجوا بأخوائهم إلى أرض الحياة ، أرض الأنبياء الهداء .

« يا غرب ! لا يحفظ الدين غير الشرق إن دامت حياته بحريته ، وقد الدين يهددك بالخراب القريب .. » .

ولم يكن أسلوب المنبر ليسعده في جميع الأحوال لأنه أسلوب لم يخلق له ولم يطبع عليه ، ولكنه كان يكتب أحياناً ويحس أنه يشور ثورة الخطيب فيعمد نارة إلى أسلوب التوكيد والتشييد ، ويعمد تارة أخرى إلى أسلوب التصوير وتحريض الخيال ، ولا يخافه التوفيق أحياناً في هذا الأسلوب .

ومن ذلك قوله : « المستبد عدو الحق ، عدو الحرية ... والحق . أبو البشر والحرية أنهم ، والعوام صبية أيتام ، نيام » .

أو قوله : « لو كان المستبد طيراً لكان خفشاً يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل ، ولو كان وحشاً لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في ظلام الليل .

أو قوله : « الاستبداد لو كان رجلاً يحتسب وينتسب لقول : أنا الشر ، وأبني الظلم ، وأبني الإساءة ، وأبني الغدر ، وأبني المسكينة ، وعمي الضر ، ونحالي الذل ، وأبني الفقر ، وبنني البطالة ، وعشبرتني .

الجهالة ، ووطني الخراب ، أما ديني وشرف وحياتي فالمال المال ..»
أو كقوله : « إنه المعرك الذى .. قل في البشر من لا يجول فيه
على فيل من الفكر ، أو على جمل من الجهل ، أو على فرس من القراءة ،
أو على حمار من الحمق ، حتى جاء الزمن الأخير فجأ فيه إنسان الغرب
جولة المغوار الممتطي في التدقق مراكب البحار » .

ومن توكيدهاته الخطابية ما يجري فيه على مثل قوله ، « الاستبداد
أشد وطأة من الوباء . أعظم تخريراً من السيل . أذل للنفوس من السؤال .
داء إذا نزل بالنفوس سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي القضاة القضاء ،
والأرض تناجي ربها بكشف البلاء » .

ومنها ما يجري فيه على التوكيد بالتكلرار كقوله عن التعاون : « به
قيام كل شيء ما عدا الله وحده . به قيام الأجرام السماوية . به قوام كل
حياة به قيام المواليد . به قيام الأجناس والأنواع . به قيام الأمم
والقبائل . به قيام العائلات : به تعاون الأعضاء . نعم ؛ الاشتراك فيه
سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع . فيه سر الاستمرار على الأعمال
التي لا تفي بها أعمار الأفراد » .

ومنه ما يجري فيه على التوكيد بمثل هذا التكرار : « يجددون النظر في
الدين نظر من لا يغفل بغير الحق الصريح . نظر من لا يضيع التسائج بتشويش
المقدمات . نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة . نظر من يريد
وجه ربه لاسمه الله الناس إليه » .

ونتائج عند قوله : إن المصلح ينبغي أن ينظر في الأمور « نظر من يقصد
إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة ، ونظر من يريد وجه ربه لاسمه الله الناس
إليه » .. فإنه قد أودع هذه الكلمة روح هذا الأسلوب الفصيح بمقصده
البين وصيود صاحبه على هذا المقصود طوال حياته ، بل أودعه في الحق روح
كل أسلوب يؤدي للقارئ من وراء الجمل والمفردات فوق ما تؤديه ألفاظه
ومعانيه ، فإن إخوان الكواكب الذين عاشروه وألفوا الاسماع إليه وقراءته

معاً يقولون : إنهم كانوا يؤمّنون بشيء واحد من حديث لسانه كما يؤمّنون به من حديث قلمه ؛ كانوا يؤمّنون قبل كل شيء بإيمان المتكلّم بفكرةه وشعوره ببداية دعوته وصدق رغبته في إقناع غيره بما هو مقتضى بضرورته لعامة فوّهه ، وأسلوبه في الحديث وأسلوبه في الكتابة متقاربان متعادلان لا يقع بينهما من الاختلاف إلا أن يكون اختلاف القائل المرسل بين الناس والقائل المحتفل على هيئة بيته وبين نفسه ، وعلى هذا الوجه يصبح أن يعتبر أسلوب الكواكب نمطاً من أنماط الحديث الخطابي أو الخطابة المكتوبة ، على الطريقة التي تنسى للمتحدث المطبوع وإن لم يكن في المحافل من الخطباء المطبوع عن .

ولا شك أن الكواكب قد حاول كل وسيلة من وسائل التعبير لإبلاغ دعوته « إظهاراً للحقيقة لا إظهاراً للفصاحة » . . فإذا قد عالج نظم الشعر وأثبت في أم القرى بعض منظوماته في شبابه ، فافتتح الكتاب بإحدى القصائد يقول منها :

درake فإن الدين قد زال عزه
 فكان له أهل يوفون حقه
 هلموا إلى بذلك التعاون إنه
 هلموا إلى «أم القرى» وتعاونوا
 فإن الذي شادته الأسياف قبلكم

واختتم الكتاب بتحصيدة أخرى يقول منها :

فَغَيَّرَ اللَّهُ عَنْكُمْ سَبَّاغَ النَّعْمَ
وَأَهْلَهَا مَصَاحِنَ فِي شَوْنَهُمْ
بَدْوَنْ إِشْرَاكٍ أَسْبَاعَ وَلَارِمْ
رَجَعَى إِلَى دِينِ أَسْلَافٍ ذُوِّهُمْ
فَاسْعَوْنَا لِنَهْضَتُكُمْ يَا خَبِيرَةَ الْأَمَمِ
شَتَّى الْخَلَاقَ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عِجَمٍ
خَفَّرَاءَ سُودَاءَ حَوْلَ الرَّكْنِ وَالْحَرَمِ

ولم نقرأ له نظاماً غير هاتين القصصتين ، وهما — كما يرى القاريء — من الشعر الذي يوصف بأنه شعر العلماء ، لعله حاوله زماناً ولم يجد فيه بغيته من نشر الدعوة وتبيه النفوس والأذهان ، فعدل عنه وارتضى لدعوته أفق الأساليب لها وهو أسلوب المواجهة الخطابية على منبر الصحافة كما صنع في كتابه « طبائع الاستبداد » ؛ ومثله أسلوب الفضول التي يكتبه كأنها خطب ألقاها المتكلمون وتعاقبوا على إلقاها والخوار فيها كما يتعاقب المتفاوضون في مؤتمر الحاضرة .

إن الكواكبى لقدير على أن يجد نفسه حيث يريدها — كما يقول الغربيون في تعبيراتهم — فلم يبحث طويلاً حتى وجده ، ولم يبحث طويلاً بعد أن وجد دعوته حتى وجد أسلوبه ، وهو أسلوب الكاتب الذى يواجه القراء كما يواجه المستمعين .

المؤلف

توفر الكواكبى على قضيتين اثنتين لم يستغل زماناً طويلاً بقضية غيرهما ،
وهما قضية البحث فى أسباب تأخر الأمم - ولا سيما أمم العالم الإسلامي ،
وقضية البحث فى عوامل الاستبداد فى حكم الدول ، ولا سيما الدول العثمانية .

وأودع زبدة آرائه عن قضية العالم الإسلامي فى كتابه « جمعية أم القرى » .
وأودع زبدة آرائه عن الحكم والاستبداد فى كتابه « طبائع الاستبداد
ومصرع الاستعباد » .

فهو قد استوفى رسالة التأليف فى كلتا القضيتين اللتين تجرد لها طوال
حياته فلا بقية من هذه الرسالة إلا أن تكون بقية الشرح والتفصيل . . .
أما لباب الرسالة وغایتها فقد استوفاها الكتابان .

ونعلم من أقوال مترجميه العارفين به أنه وضع كتاباً سماه « صحائف
قريش » وكتاباً آخر سماه « العظمة لله » وترك ديواناً من الشعر لم تبق منه غير
كتاشة من القصائد فى الحكمة والنسب وأغراض المدح والرثاء والهجاء تزيد
أبياتها على ثلاثة آلاف .

أما « صحائف قريش » فهو تذليل لكتابه الأول « أم القرى » تضمن
على ما يظهر نخبة من فصول الصحيفة الدورية التى أشار فى الكتاب إلى
اتفاق الجمعية على إصدارها ، وقد أوصى المؤلف قراءه أن ينتظروها
ويحفظوها : « فن يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على إشاعته بين
الموحدين ، وليحفظ نسخة منه ليضيف إليه ما سيتلوه من نشريات الجمعية
باسم صحائف قريش التى سيكون لها شأن إن شاء الله في النهضة الإسلامية
العلمية والأخلاقية » .

ولم يطلع أحد من زملائه في القاهرة على هذه «النشريات» ولا ورد من أخباره فيها أنه طبع صحيفة منها حيث كان يطبع كتبه ورسائله ، ولكن ابنه الدكتور محمد أسعد يقول في مجلة الحديث : إن الكتاب كان معداً للطبع «ولكن حال دون ذلك سياحته الطويلة المذكورة في غير هذا المكان ، ثم وقوع الوفاة الفجائية ، فصودر مع الأوراق المصادر و أرسل هدية إلى السلطان فلم أُعثر له على أثر» .

أما كتاب «العظمة لله» فهو كتاب سياسي «كسائر ما خطته يمينه» على قول الأستاذ محمد كرد على في الجزء الثاني من مذكراته ، وهو يقول قبل ذلك في هذه المذكرات : «الغالب أن السلطان اغتبط بموت الكواكب وأراد القضاء على أفكاره المضرة فأرسل مدير معارف بيروت — عبد القادر القباني — يأخذ أوراقه ويرضى أسرته بمبلغ من المال ، فما حمل إلا عدداً معيناً من كتب الكواكب المطبوعة . أما المخطوطة فأخذها أحد البالغين الراشدين من أولاده ، وفيها كانت أوراقه السرية وبعض كتبه التي بدأ وضعها ، ومنها ما قرأ لي مقدمته واسمها : العظمة لله . . .» .

والذى نرجحه ونستدل من عنوان الكتاب عليه أنه إضافة إلى — «طبائع الاستبداد» ينكر فيها على المستبدین تطاولهم إلى مشاركة الله في عظمته وينكر فيها على الخانعین من رعاياهم خصوصعهم لتلك العظمة . ولد نحاله قد ذهب فيها شوطاً بعيداً وراء المقدمة التي أطاع عليها صديقه كرد على ، لأنه لم يطلعه على شيء بعدها مع ملازمته إياه إلى يوم وفاته .

أما الديوان فن أمشلته ما أشرنا إليه في الكلام على أسلوبه وهو يعيد فيه — نظماً — بعض ما كتبه نثراً في «أم القرى» ، وطريقته فيه طريقة العلامة في منظوماته التي يخاطبون بها نظراءهم مخاطبة العارف للعارف ، ولا تراد لخطاب قراء الشعر عامة ، لأنها «مفهومات» لا تبلغ قراءها من جانب التخييل واستجاشة الشعور .

ويخطر لنا أنه في مدحه وهجائه أراد أن يستعين بالنظم على اسمالة أمراء الجزيرة العربية الذين زارهم في رحلته إلى المشرق ، وأنه وقف هجاءه على

الذين استحقوا نقداً في كتابيه ثم استحقوا في صفحه الشخصيه نقداً غير
نقد المبادئ والأراء .

وإن ضياع هذه الأوراق يمثل خسارة تاريخية
يأسف لها قرأوه ومتزهه ، ولكن الخسارة فيها قدر أهون من قدر كما
يقال في مقام السلوى لكل مصيبة لا حيلة لها . فإنها من الخسائر التي يعوض
على كراحتها ، وعوضها أن يسلم الكتابان اللذان أودعهما صفوه التجارب
والدراسات من يواكير شبابه إلى ما قبل وفاته ، وبادر إلى نشرهما بعد تردد
منه في نسبهما إليه ، وما كانا ليسلما من مصير كمصير تلك الأوراق المفقودة
لو لم يبادر إلى طبعهما قبل أن ينقضى عليه عام في القاهرة ، وقبل أن تشغله
عهداً رحلاته التي لا يملك فيها موعد ذهاب ولا موعد إياب .

• • •

الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية

قبل أن ننتقل من الكلام على المؤلف إلى الكلام على مؤلفاته نبدأ القول
بيان الموقف الذي أوحى إليه اختيار موضوعه في تلك المؤلفات ، بل أوحى
إليه اختيار رسالة في الحياة ، وهو موقفه بين قضية الاستقلال وقضية الجامعة
الإسلامية ، وكيف اتفق له الإيمان بالإصلاح الديني ، والإصلاح الوطني
في وقت واحد .

لقد فتح عينيه على المسائل العامة في إبان المشكلة الشرقية بين حوادث
جبل لبنان وحوادث أرمينية ، وأُوفى على الكهولة في إبان حركة الجامعة
الإسلامية والخلافة العثمانية التي ابتعثها السلطان عبد الحميد الثاني .

وكلتا الحركتين – الجامعة والخلافة – كثيرة الشعب مترامية الأطراف ،
يبلغ من تشعبهما أن يرى فيها الرأيان المتناقضان وكلاهما من وحي الإخلاص
والغيرة على الوطن وعلى الدين .

فكان من دعاء الإصلاح من يرى أن الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة
الإسلامية الكبرى هي القوة التي بقيت لأمم الإسلام في عصر الاضمحلال ،
وقد أعزتها قوة المال والعتاد وقوة العلم والصناعة وقوة السياسة والسيطرة
الدولية ، فلا أقل من قوة التضامن والاتحاد .

وكان في تلك الوجوه المتشعبة أن الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة
العثمانية تحمل هذه الدولة تبعات المشاكل والأزمات التي تتعرض لها شعوب
الإسلام في الشرق والغرب ، ويخشى عليها في ضعفها وأضطراب أحواها
أن تسوء بها فهى تنفع شعوب الإسلام بمجهودها ولا هي تنجو بنفسها
من عواقب ذلك المجهود .

(الكتاب الثاني)

ومن وجوه هذه القضية المتشعبه أن الإطناب في لقب الخلافة يضفي على صاحب ذلك اللقب قداسة تحميه من نقد الناقدين وماخذ طلاب الإصلاح وتوخر أعمال الإصلاح التي يرجى منها الخير للدولة العثمانية ، وقد تؤخرها على سبيل القدوة في سائر بلاد المسلمين .

ومن وجوهها المتشعبه أنها تخرج الشعوب التي تطالب حقوقها في ظل الحكم التركي ، فلا تدرى كيف تقدم أو تحجم بين رعاية حقوقها وبين العمل بما تقتضيه علاقتها بالخلافة وبالجامعة الإسلامية .

وليس من وجوهها الضعيفه أن إعلان الجامعة الإسلامية في العالم يعزز نشاط الحزب المتعصب وأحزاب التبشير بين الغربيين ويقوى حجتهم في مناهضة الأحزاب السياسية التي ترمي إلى فصل السياسة عن الدين ، بل يقوى حجة المستعمرين الذين يتلمسون الترائع لغزو البلاد الشرقية ويتلقفون هذه التراعة لترويج مطامعهم كلما أعزتهم ذرائع السياسة .

هذه طائفة من تلك الوجوه المتشعبه التي يتوجه لها أنصار الجامعة ، وخصومها ، ومصلحها هذا التشعب أنها مسألة واحدة تجمع في طبها ثلاث مسائل كبرى ، كل مزدحم مكظوظ بالخنايا والتفاوض والعرقل .

فهي في الواقع مسألة الدولة العثمانية ومسألة الخلافة ومسألة الجامعة ، وكل منها مسائل شئ تتفرق في كل وجهة ، ولا يجمع بينها غير العتوان .

مسألة الدولة العثمانية هي مسألة البلقان الذي سمي بحق « مخزن البارود » وهي مسألة الأرمنية والمسألة الطورانية ، ومسألة الشعوب التي يحكمها الترك ولا تتكلم التركية ولا تنتمي إلى سلالتهم بين عناصر الأجناس .

ومسألة الخلافة هي مسألة الإمامة عند الشيعة وأهل السنة ، ومسألة الولاية الشرعية بحق الإرث والعصبية أو بحق الشوكة والسلطان القائم ، حيث قام من بلاد المسلمين .

ومسألة الجامعة تفتح أبواب الجامعة السياسية والجامعة الروحية وما إليها من جامعات التعاهد والإتفاق على شئون الثقافة والمعاملات .

ولا ينفتح القمّم المغلق حتى يخرج منه ، الرصد الهاشّل منتشرًا من محبوه يضيق به الفضاء . وإنما اضطر عبد الحميد إلى فتح القمّم لأنّه حيلة من لا حيلة له سواه .

كان يسمع بأذنيه — كما يسمع العالم كله — اسم دولته الدائمة عند أعدائه المترقبين بها في القارة الأوروبية بلا اختلاف بين قادر منهم وعجز وبين مستعمر منهم ومبتدئ في صناعة الاستعمار ، يتعلق بتصيّب له يفرضه من ذلك الملك المباح .

كان اسم « الترك » أو تركية الرجل المريض عنوانًا على البلاد العثمانية ، أيًا كان ساكنوها من مسلمين أو غير مسلمين ، ومن ترك أو عرب ، ومن — أوربيين أو آسيويين أو إفريقيين .

كانت « جامعة » في الحق يجمعها الطمع من أشتات الطامعين ، وليس بينها من وحدة قط في رأى أولئك الطامعين إلا أنها تهالك إلى حين ، في طريق التفرق والزوال .

وكان لابد له من جامعة باقية لا يزيّلها عمل إنساني ، ولكنها قد تنشط بعمل إنسان يؤيده الله . وتلك هي جامعة الإسلام بولاية خليفة المسلمين .

وليس عبد الحميد أول من تلقّب بالخلافة من سلاطين آل عثمان ، ولكنه كان أول من وضعها هذا الوضع الحاسم في معرك السياسة العالمية والسياسة الداخلية ، وأول من جعلها مسألة حياة أو موت في تاريخ الدولة التركية .

أما قبل عصر عبد الحميد فقد كان للترك عامة موقف من مسألة الخلافة غير هذا الموقف ، سواء منهم الترك العثمانيون والترك السلاجقويون ، والشعوب التي غلب عليها اسم الترك في الدولة الإسلامية وليس منهم ، كالبديل والشراكسة .

فقد تمكّن رؤساء الترك من زمام الخلافة في عهود كثيرة ولكنهم تبيّنوا ولم يتقديموا لادعائهما ولعلهم لم يجدوا السبيل إلى ادعاء حقوقها التي

كانت مقصورة على الأمة العربية ، ينتهي بها أناس إلى أهل البيت النبوى ويتوسع أناس آخرون في يجعلونها عربية قرشية ، ومن الشعوب الإسلامية غير العربية من كان يحصرها بين أهل البيت في أبناء على وفاطمة رضوان الله عليهم ، فلا يجوزها لبني العباس ولا يعترف لهم بحقوقها إلا اجتناباً للفتنة ورعاية للضرورة والقيقة .

وجرى العرف نحو ثلاثة قرون على وحدة الخليفة في العالم الإسلامي ، فن نازع فيها فإنما ينزع فيها لأنه أحق بها على دعوه حسب الشروط التي يشرطها في مذهبها لصحة الإمامة ، فيذهب خليفة ويأتي بعده خليفة ، ولا تستقر الخليفة في وقت واحد لاثنين بحججة واحدة . وقد حدث أن الأمويين أقاموا لهم دولة بالأندلس فلم يعلموا خلافتهم على الأمم الإسلامية مع خلافة بني العباس ببغداد ، ولم يخطر لعبد الرحمن الناصر أن يتلقب بلقب أمير المؤمنين عام (٣٥٠ - ٣٠٠هـ) إلا بعد قيام الدولة الفاطمية على مقربة منه في المغرب ومناداة أمرائها لأنفسهم بالخلافة ولم يعارضهم الأمويون يومئذ إلا بتكذيب نسبتهم إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، بل تصدى لهم من أمراء الموحدين من ينتسب إلى البيت النبوى لينازعهم الحق في إمارة المؤمنين .

وبعد قيام الدولة الفاطمية أصبح في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء ، بين منتب إلى النبي ومنتسب إلى قريش ، وكلهم في نسبتهم العامة عرب قرشيون .

فلا كثراً الجند من الترك في عاصمة الخليفة العباسية ملك قادتهم زمام الدولة وبسطوا نفوذهم في قصر الخليفة ، وصار كل من في القصر تبعاً لهم مطيناً لأمرهم ، بين حراس وماليلك وجوار وخدم وعيون وأرصاد ، وانفرد الخليفة وحده بمقام الخليفة وليس له منها غير الاسم والخاتم وخطبة الجمعة في المساجد ، وتهيأت للقيادة من الترك فرصة المناداة لأنفسهم بالخلافة في بغداد لو لا أنهم علموا أنهم يقيموا بها على غير أساس من الدعوى الشرعية ، وأنهم لا يطمئنون إلى ولاء رعاياهم من الترك أنفسهم إذا اغتصبواها بغير حجة من الشرع والسن المأثورة . فتسى أولئك القيادة باسم السلاطين

وجعلوا يتقلدون مناصبهم في الدولة بتفويض من الخليفة صاحب الحق الشرعي في التنصيب والعزل والتقويض ، وكان بعضهم يستطيع ضرب السكك باسمه كما فعل طغرل بك السلاجق وزير القائم بأمر الله العباسي ، لأنه تولى أمور المعاش و « الإدارة » بتفويض من صاحب الصفة الدينية ، وهي الأمور التي يتولاها صاحب الشوكة و « السلطان » .

ومما يدل على رسوخ الإيمان بشروط الخلافة بين أمم المشرق الإسلامية أن رؤساء الدول التي قامت فيه تجنبوا لقب الخليفة أو أمير المؤمنين واكتفوا بلقب السلطان أو الأمير أو النظام أو الشاه ، ولم يشذ عن هذه القاعدة ملوك إيران من الشيعة لأنهم يدينون بالإمامية لغير الملك صاحب العرش ، وإنما يكون الملك نائباً عن الإمام محمد المنتظر إلى موعد أبوته في آخر الزمان .

وعلى هذا اتفق العرف في المشرق على اجتناب لقب الخليفة بغير شروطها وجري العرف على ذلك في مصر بعد زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، فإن ولادة الأمر من الأيوبين — و منهم صلاح الدين العظيم — كانوا يتلقبون بألقاب الملوك والسلطانين و يحفظون شارة الخلافة لوريثها من الفاطميين إلى أن يبايعوا بها خليفة بغداد على مذهب أهل السنة الذي يدين به بنو أيوب ، وعادت الخلافة وظيفة موحدة في العالم الإسلامي بعد زوال الدولتين الفاطمية والأندلسية ، فانفرد بها خليفة بغداد ، وإن لم يبق له منها — كما تقدم — غير الخاتم والعنوان .

ثم قضى « هلاكو » على آخر بنى العباس وقامت في مصر دولة المماليك الشراكسة فلم يقدم أحد منهم على ادعاء الخليفة ، بل عمد أقواهم وأشجعهم الظاهر بيبرس إلى الحيلة لإحياء لقب الخليفة وإسنادها إلى صاحب صفة شرعية من المنتسبين إلى بيوتها العريقة ، فجاء برجل مجهول زعم أنه من ذرية بنى العباس وأشهد على ذلك شاهدين مجهولين في قضية علنية بمحضر كبير القضاة ، ثم بُويع هذا الرجل المجهول بالخلافة وتوارثها منه بنوه إلى عهد السلطان سليم العثماني الذي تلقى البيعة من آخرهم بالخلافة وعزز هذه البيعة بلقب « خادم الحرمين » .

وقد كان سلاطين المماليك في مصر يستفيدون من إقامة « الخليفة العباسى » بينهم حجة يقاولون بها خصومهم أصحاب الإمارات والممالك الإسلامية الأخرى فيقاومونهم أو يغرون عليهم مفوظين بالقتال من صاحب الصفة الشرعية ، وكان أقوى أولئك الخصوم سلاطين آل عثمان فى بلاد الروم وما جاورها على مترفة من حدود البلاد المصرية ، وهم السلاطين الذين تلقبوا بلقب « الغزاوة » وجعلوه بدليلا من لقب الخليفة الذى لا يقدرون عليه . فلما فتح السلطان سليم مصر وقضى فيها على دولة المماليك لم يكن يعنيه على ما يظهر من بيعة « الخليفة العباسى » إلا أن يتلقى تفويضه لأحد غيره من الأمراء المسلمين بحجة شرعية لقتاله ، فانتزع منه صفة الخليفة ليسقط كل حجة تجيز عصيائه أو إعلان الحرب عليه ، وهو السلطان المعروف له بمقام « الغازى أمير المؤمنين » .

على أنه سواء كان هذا كل قصده من بيعة الخليفة العباسى أو كان له مطعم آخر من تأسيس الخليفة العثمانية — لقد وقفت المسألة عند هذا الحد في عهده وعهود خلفائه ، فلم يحاولوا أن يفرضوا بها فريضة جديدة في صفة الإمام أو شروط الإمامة ، ولم يتخذوا منها مذهبًا جديداً لتقرير حقوق الملك وحقوق الخليفة الشرعية للتمييز بين هذه الحقوق أو لتوحيدها والتوفيق بينها . وسكت شيوخ الإسلام في القسطنطينية عن بحث هذه المسألة من الوجهة الفقهية حتى لامهم الكاتب التركى المستعرب « حسن حسنى الطويرانى » عام (١٨٥٠ - ١٨٩٧ م) على إغفالها وقال في رسالته عن إعمال الكلام على مسألة الخليفة بين أهل الإسلام : « إن رأى الجمهور الجارى على لسان علماء المسلمين أهل السنة والمدون في كتب المعتقدات التي تدرس في العواصم كنفس القسطنطينية العظمى ومصر ومكناة والشام وبغداد وغيرها أن الأئمة من قريش ، حتى إن حضرة صاحب الدولة والفضيلة عمر لطفي أفندي شيخ الإسلام السابق لما كتب حاشيته على العقائد النسفية لم يكتب شيئاً بالسلب أو الإيجاب على مسألة الأئمة من قريش واختار التوقف » .

وكل ما ذكره هذا الباحث المطلع عن استخدام سلاطين العثمانيين لصفة

الخلافة « أن المرحوم مصطفى باشا العلمدار الشهير لما رأى أن المملكة العثمانية قد أخذت تنكش من أطرافها على النقيض من انساط قوة أوربا وتقدمها وتبين أن القوة قد ابتدأت تخدمها في مقاصدها اغتنم فرصة إيقاع البيعة للمرحوم الغازى السلطان محمود خان سنة ١٢٢٣ هجرية فبایع له واشترط شروطاً بين الخليفة وبين أمراء الأطراف في الروملي ، فكان على مقام السلطنة أن ي العمل بالشريعة وألا يقتل أحداً أو يصادر مال أحد إلا بوجه شرعى وعلى الأمراء السمع والطاعة وأن كلهم تحت التكافل . وأشهد على ذلك العهد شيخ الإسلام وعموم الرجال وتم الوفاق على تأييد الأمان العمومى والشرع العادل وعادت وفود الأمراء إلى بلادهم

قال : « ولما رأى رشيد باشا الكبير أن لا سبيل للإصلاح إلا بعهد يناسب الزمان اغتنم فرصة جلوس السلطان الغازى عبد الحميد خان وأصدر منه الخط الشريف المعروف بخط كل خانة ، وفيه قرر ذات الخليفة رفع قوانين المصادرة وأوجب العمل بالشرع وعدم سفك الدماء بلا حق ورأى تنظيم النظمات والقوانين المطابقة لأحوال الشريعة . ولتكن علم رشيد باشا أن هذا العهد لا يزيد على العهد الذى استحصل عليه مصطفى باشا العلمدار الشهيد من قبل ولم تغرن عنه الجامعية العثمانية ، فأحب أن يأمن على مشروعه فحصل على قيد في ذلك الخط الشريف ألا وهو إشهاد الدول على هذا المشروع وصرح بذلك في الخط الشريف فهو للدول بهذا العمل مبادى مسوغات التداخل الأجنبى بدعوى التأمين على الحقوق والأرواح . فنفع من جهة وأضر من جهة أخرى » .

ويفهم من كلام الطوizerاني بعد ذلك أن سياسة السلطان العثمانى كانت ترافق في عصره بين وجهتين : وجهة الخلافة ووجهة الملك على نظامه الحديث في البلاد الأوروبية ، لعله يدفع عنه غائلة التعصب الأوربى بمحاراة العصر في نظمته السياسية .

قال المؤلف الذى يبدو من سيرته ومن أقواله أنه كان على معرفة بمحرى السياسة العليا في زمانه : « ثم رأى العثمانيون رأياً آخر بعد ثمانى وعشرين سنة واحتجوا بأن احتياجات الدولة تضطرها إلى مبدأ مدنى يكفى لمقابلة التزاحم

السياسي ، وهناك صدر القانون الأساسي مصدقاً عليه من جلالة مولانا السلطان الأعظم وانعقد بمقتضاه مجلس الأمة مدة ثم رئي أنه غير مناسب للحال فلم يجتمع بعدها . أما أعضاء مجلس الأعيان فلا يزالون موظفين وإن لم يجتمعوا . لكن لما كان إلغاؤهما مخلاً بالقانون الأساسي العثماني لم يلغيا بالكلية ولم تزول القوانين موقتها ينتظر الحكم عليها بالدلوام إلى ما بعد عرضها على الجلسين إن اقتضت الحكمة إعادة تمهيدهما .

وطلت حالة التردد بين وجهة الخلافة ووجهة الملك على هذا التحو
المليبس حتى نشطت دعوة الخلافة ونشطت معها دعوة الجامعية الإسلامية
في وقت واحد بعد ولادة عبدالحميد بسنوات قليلة وعلى أثر اعتقاد مؤتمر
برلين وأفتتاح مؤامرات التقسيم التي اتفقت عليها الدول الكبرى لانتزاع
بلاد الدولة العثمانية من سيادتها بغير فارق بين الإسلامية منها وغير الإسلامية.

ولا خفاء يمقصد السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعية الإسلامية باسم الخلافة العثمانية ، فـا كان مثله في حضنافته ودهائه أن يطمع في سيادة فعلية على بلاد المسلمين باسم جامعـة الإسلام ، فإن أهون ما في هذا الطمع من الخطوب الجسام يوقعـه في حروـب لا طـالة له بها مع عصبة المستعمرـين التي تـملـكـ كثـيرـاً من بلـادـ الإـسـلامـ أو تـنـطـلـعـ إـلـىـ اـمـتـلـاـكـهاـ ، وـقـدـ يـوـقـعـ هـذـاـ الطـمـعـ فيـ حـرـوـبـ معـ الـأـمـمـ الـإـسـلـامـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـرـالـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ الـاسـتـقـلـالـ وـلـوـ كـانـتـ فـيـ ظـلـ سـيـادـتـهـ الـعـامـةـ ، وـهـيـ السـيـادـةـ «ـالـاسـتـيـةـ»ـ الـتـيـ كـانـتـ تـرـبـطـ بـعـضـ الـأـمـمـ بـدـوـلـةـ آلـ عـمـانـ مـنـذـ فـتوـحـهـاـ الـأـوـلـىـ .

فغاية الأمر فيما قصد إليه السلطان عبد الحميد من دعوته إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة أن يحسم بعطف العالم الإسلامي في وجه التعصب الأوروبي المطبق عليه من كل جانب ، وأن يستمع العالم الإسلامي إليه حين يناديه بتلك الصفة لأنه أكبر ولاة الأمر فيه وأعظمهم مركزاً في مراسيم السياسة الدولية ، ولم يكن يخفى عليه أن العالم الإسلامي لا يقارع المسلمين سلاحاً ولا ثروة ببروة ولا نفوذاً بتفوذاً ، ولكنه كان يقنع منه بما يستطيعه في كفاح الاستعمار ويعلم أنه يستطيع الكثير مما يخشاه المستعمر ون

وبعض هذا الكثير المخى أن يقلق حكوماتهم وشركائهم ويقاطع متاجرهم ويدخل بينهم بالتأييد والخدلان في خصوماتهم ويثير عليهم رعایاهم المتمردين من يستشارون باسم الحرية والمبادئ الديمقراطية ويجدون في العمل على التفرقة بين شئون الدين وشئون السياسة ، وقد كان للسلطان عبد الحميد خبرة بهذا الفن من فنون الدعاية شهد به الغربيون والشرقيون ، وبلغ من خبرته أنه كان يستخدمه لتأليب فريق من رعایاهم على فريق وتنفير طلاب الإصلاح أنفسهم من يحرجونه بطلب الإصلاح على غير هواه .

وعرف دعوة الجامعة الإسلامية جميعاً غاية ما يراد من هذه الدعوة باسم الخلافة العثمانية أو باسم الإسلام على التعميم .

فالسيد جمال الدين الأفغاني — أكبر دعوة الجامعة في عصره — يصرح بغایة الجامعة التي يدعو إليها فيقول من رسالة عن الوحدة الإسلامية :

« لا أنتس بقولي هنا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هنا ربما كان أمراً عسراً ، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع . فإن حياته ب حياته وبقاءه ببقاءه . إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تفضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات » .

« هذا أوان الاتفاق . ألا إن الزمان يؤتكم بالفرص وهي لكم غنائم . فلا تفرطوا . . . إن البكاء لا يحيي الميت . إن الأسف لا يرد الفائت . إن الحزن لا يدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح . . . » .

ولما ضرب المثل بملوك الإسلام الذين يقتدى بهم في حفظ حوزته ودفع أعدائه لم يقصر كلامه على الخلفاء منهم ، بل عدد من ملوكهم طائفة من أمثال « محمود الغزنوی وملکشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي . . . » عدا السلاطين العثمانيين الذين لم يتلقبوا بلقب الخلافة .

وربما كان الأمير شكيب أرسلان أشهر الدعاة إلى الجامعة الإسلامية باسم الخلافة العثمانية . فإنه عاش بين القدسية وعواصم الغرب زمناً في خدمة هذه الجامعة ، وهو مع ذلك يقول في تعقيبه على فصل الجامعة الإسلامية

من كتاب حاضر العالم الإسلامي : « إن الخلافة لم تستتم شروطها الصحيحة إلا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن إلا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الغاشم ، وما انقادت الأمة إلى هذا الملك العضوض الخالف لشروط الخلافة سواء كان من العرب أو من الترك ، إلا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج » .

وكان الأمير شكيب يستوجب هذه الدعوة وهو لا يجهل أحوال السلطان عبد الحميد ، بل يقول عنه من تعليقاته على الترك في تاريخ ابن خلدون : « وفي زمان السلطان عبد الحميد ساءت الأحوال في مقدونية ، لأن السلطان كان أكثر همه في المحافظة على شخصه ، وكان شديد التحيل إلى درجة الوسواس . فاستكثر من الجوايس وصار بأيديهم — تقريباً — الحل والعقد » .

ثم يقول : « وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمي أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجوايس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم وأصبح الناس يبالغون في الروايات عن الجوايس فساعت سمعة الحكومة وسخط الرأي العام على هذه الحالة . . . » .

* * *

على أن الجامعية الإسلامية — بغايتها التي أحملناها فيما تقدم — ليست من المسائل التي تسمح بالخلاف بين أحد من المسلمين في أرجاء العالم على حقها وعلى صوابها في شرعة الدين أو الخلق . وإنما يعرض لها الخلاف — بل يشتد — حين ترتبط بمسألة الخلافة العثمانية وحين تتطوى هذه الخلافة على معنى السيادة والتبعية في الحكومة .

فالخلافة على هذه الصفة يرفضها القائلون بإمامية قريش ويرفضها الداعون إلى استقلال العرب بسيادة الحكم ، فيضطرون اضطراراً إلى الأخذ بمبدأ الخلافة العربية القرشية ؛ لأنهم إذا سلموا مبدأ الخلافة للشوكة لم يتيسر لهم ترشيح دولة إسلامية لها من المركز الدولي يومئذ ما كان للدولة العثمانية .

ويعتقد الداعون إلى القومية العربية بحق أن الجامعية الإسلامية لا تناقض

الدعوة إلى الجامعة العربية ، ولا يلزم في توثيق عرى المسلمين أن تكون جامعتهم وقفاً على خدمة بنى عثمان وأن يكون مستقبل الإسلام مرهوناً بمستقبل دولتهم ، وسعى الأمم الإسلامية في سبيل الحرية والمنعة موقوفاً على سياسة تلك الدولة ، بل على سياسة القائين بالحكم فيها على غير مشيئة المصلحين وطلاب التقدم من أبنائها .

وقد تنصل أناس من الترك أنفسهم من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية في أواخر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنهم أرادوا أن يقيموا الحكم في بلادهم على مبدأ « مدنى » كما قال الطوغرلاني فيما تقدم ، وأن يدحضوا حجة المتعصبين من الغربيين كلما شنوا الغارة عليهم باسم الدين أو باسم حماية رعايا الدولة غير المسلمين ، ومن الترك من كان يؤثر الدعوة إلى الجامعة الطورانية على الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ويخيل إليهم أنهم قادرون بهذه الوسيلة على تأسيس « اتحاد امبراطوري » يقوده الترك وتشترك فيه الأقوام التابعة للدولة العثمانية على تعدد الملل والأديان .

ومما أعلم في هذا الصدد من ذكرياتي الشخصية أن جماعة « تركيا الفتاة » بحثت في مصر بعد إعلان الدستور العثماني عن صحيفة عربية تدفع عنها وشرح مقاصدها فاختارت صحيفة « الدستور » التي كفت أكتب فيها وكان يصدرها الكاتب المؤمن النزيه « محمد فريد وجدى » رحمة الله ، وكان فريد من أشد الكتاب في مصر غيرة على الجامعة الإسلامية ، فأبى أن يجدهم إلى اقتراحهم لاشترطهم أن تكف الصحيفة عن ذكر الجامعة وترفع من صدرها أنها لسان حالها ، وقد حدث هذا بعد وفاة الكواكبى بخمس سنوات ، وقبل هجوم إيطاليا على « طرابلس الغرب » وهجوم النساء على بلاد البشناق ، تنفيذاً للسياسة الأوروبية التي سوها « بتقسيم تركية الرجل المريض » .

ويبين هذه الدعوات المتشابكة نشأ الكواكبى ونفذه ببصره إلى ما وراء الأفق المكشوف لمعاصريه ، فاستطاع — كما سرر — أن يختار ما يرضيه العربي الذى يؤمن بدينه ويعرف عقبات الطريق إلى قبلته ، ولكنه ينظر إلى مستقبل العرب والإسلام نظرة الثقة والإيمان .

أم القرى

أول كتاب وضعه الكواكبي كما تقدم في التهيد السابق ، فهو باكورة أعماله القلمية وفاتحة اشتغاله بالتأليف .

أما من ناحية التفكير والتحضير فلا يحسب الكتاب من أعمال الكواكبي ، لأنّه نتيجة لدراسة طويلة وصلّ منها إلى نهاية الرأي في أحوال العالم الإسلامي وأسباب ضعفه وبواعث الأمل في صلاحه ونقدّمه ، فهو مخصوص بحياة فكرية وفقها على هذه الدراسة في جوهرها ، ولم تكن دراساته الأخرى إلا شعاباً متفرعة عليها .

« وجمعية أم القرى » اسم أطلقه المؤلف على مؤتمر عام تخيل انعقاده في مكة المكرمة وجمع فيه مندوبيين ينوبون عن أم العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يمثلون الهند والصين والأفغان والعراق والهجاز والشام ونجد واليمن ومصر وتونس ومراكش وغيرها من الأقاليم المشتركة بين هذه الأقطار ، وألقى على لسان كل منهم خطاباً يشرح حالة المسلمين كما اختبرها من شئون بلده وما يعلمه عن شئون سائر البلدان الإسلامية ، واجتهد في إتقان صورة المؤتمر السري بما له من الخاضر المسجلة والرموز المصطلح عليها وعلامات الأرقام التي يتّفهّم عليها الأعضاء ، لأنّه أراد أن يتمّ الصورة شكلاً على ما يظهر ، أو أراد أن يوقع في روع القارئ ما يبعث عنده الثقة باجماع العزم على العمل وقيام المؤتمرين على تنفيذه ، إلا أنّ الثابت من روایة أصدقائه وآلـه أنه ألف الكتاب قبل رحلته إلى مصر وإلى الهجاز ، وتحدّث هو عن هذا الكتاب إلى صديقه السيد محمد رشيد رضا - صاحب المنار - فلم

يزد على أن قال إن للجمعية أصلاً وتوسيع في سجله ، وعاوده غير مرة بالتنقيح والمحذف والزيادة .

وفي وسعنا أن نفهم هذا «الأصل» على سبيل الظن من تصفح ألقاب المندوبين في الكتاب . فلابد أن يكون المؤلف قد التقى في بلده بآناس من فضلاء المسلمين الذين يترددون عليه في طريق الحج فذاكرهم في مسائل الدين ومصالح المسلمين وسمع منهم وأسمعهم ما عنده من الآراء والمعلومات في هذه الشؤون ، ولا حاجة إلى التوسيع في قراءة السجلات للتيقن من هذه الحقيقة البدنية ، فإن لمحه عابرة إلى الألقاب التي اختارها المندوبين تشعر القارئ بمعرفة حسنة للأمم التي نسبهم إليها ، يجوز أن تعرف بالسماع والاطلاع ، ولكن لا يجوز أن تكون كلها سماعاً وأطلاعاً مع إمكان المقابلة في حلب بيته وبين الوفدين إليها من عامة الأقطار الإسلامية لختلف المقاصد والوجهات ، ومع عناية المؤلف باستيعاب الأخبار والآراء في موضوع كتابه قوله أصدقه إن لها أصلاً توسيع فيه .

انظر مثلاً إلى ألقاب الأستاذ المكي والصاحب الهندي والفضل الشامي والمولى الرومي والمجتهد التبريزى والرياضي الكردى والعالم النجدى والحدث البىنى والعلامة المصرى والخطيب القازانى ، وسائل الألقاب وعنوانين الخطاب التي تخللت المساجلات والخطب على لسان هؤلاء الأعضاء .

إن هذه الألقاب لم توضع جزاً ولم يتميز بعضها من بعض لأسباب تتعلق بأفراد المندوبين ولا ينظر فيها إلى خصائص شعوبهم أو إلى السمات العامة التي تبرزهم بين جملة المسلمين ، فإذا جاوزنا الألقاب إلى السجلات وما وعنه من الآراء والأوصاف والواقع ومناخ التفكير وضح لنا أن المؤلف قد صدر فيها عن علم واسع بأحوال الشعوب الإسلامية وأحوال السادة المتخصصين فيها للإمامية العلمية والفتوى الدينية ، ويجوز كما أسلفنا أن يجتمع هذا العلم للمؤلف بالاطلاع والسماع على الألسنة ، ولكن بعيد عن الظن الذى لا يجوز في حكم العرف والعادة أن يصل إلى حلب قصادها والعابرون بها من أرجاء العالم

الإسلامي ولا يتفق بينهم وبين الكواكب لقاء مقصود أو غير مقصود ، يتطرق فيه الكلام إلى حديث كحديث أم القرى كما سجلته مخاضر الكتاب .

وغير بعيد أن يكون « الكواكب » قد سمع بعض هذه الآراء واطلع على بعضها روصل إليها وإلى غيرها باطالة التأمل وإمعان النظر ونقلب المسائل على شئ الوجه ، غير أن هذه الآراء لا تحتوى الكتاب ولا تغنى عنه ، فإن الكواكب لم يعرضها عرض الحكاية ولا عرض النقل والرواية ، بل كان عمله فيها عمل « الغربلة » والتحليل والنيابة عن المناقشة والموازنة والأخذ والرد الذي لا يأتي في غير المجتمعات المشهودة .

فكل سبب من أسباب الأعضاء المترفين يعلون به ضعف المسلمين ينتهي إلى أن يكون سبباً من ناحية ونتيجة من ناحية أخرى ، وكل عرض من أعراض الجمود يجري به الدور والتسلسل على هذه الوتيرة ، إلى أن تنتهي كلها إلى سبب الأسباب في عقيدة الكواكب كما نفهمها في دينه وهجراء في التفكير ، وليس هناك سبب لجميع الأسباب غير الحكومة السليمة أو غير الاستبداد .

فليماذا يضعف المسلمون ؟ .

يضعفون لأنهم أهملوا آداب الدين التي نهضوا بها في صدر الإسلام .

ولماذا أهملوا آداب الدين ؟ .

لأنهم جهلو لبابه وأخذوا منه بالقشور ؟ .

ولماذا جهلوها ؟ .

لأنهم فقدوا الهمة وقنعوا بالضعة واستكأنوا إلى الخور والتسليم .

ولأن أن تتابع حلقات السلسلة عكساً كما تابعتها طرداً ، فتقول لأنهم فقدوا الهمة لأنهم جهلوها ، ولأنهم جهلو لأنهم أهملوا آداب الدين ، ولأنهم أهملوا آداب الدين لأنهم ضعفوا .

فكل علة من هذه العلل هي مقدمة من جهة ونتيجة من الجهة الأخرى ، إلا الحكومة الشيئية في تعليل الكواكب فإنها تبطل الدور والتسلسل لأنها ملتقى الأسباب والنتائج في كل عرض من الأعراض . فالاستبداد جهل وضعف وإهمال وآفات تعرض للرعاية ثم تعرض منهم للرعاية فتجرى دوالياً في حلقة مفرغة لا تنتهى أبداً مع بقاء الاستبداد ، ومن ثم يصبح أن يقال إن الفكر في أم القرى هي الفكرة في طبائع الاستبداد ، وإن طبائع الاستبداد لا يحتوى شيئاً لا يكتبه من كتب أم القرى قبل التتفريح أو بعد التتفريح .

ويقول الدكتور سامي الدهان في ترجمته للكواكب في سلسلة نوابغ الفكر العربي إن كتاب أم القرى : « صدر في حياته منقحاً بقلم السيد رشيد رضا أو بقلم الشيخ محمد عبده كما قال الأب شيخو » ويشير الدكتور سامي الدهان بهذا إلى قول الأب شيخو في تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين عند كلامه عن أم القرى إنه « نظر فيه الشيخ محمد عبده » .

ثم يعقب الدكتور الدهان قائلاً « وكل الذي نستطيع أن نقول في أسلوب كتابته إنه قريب من أسلوب هذين الرجلين وهو أسلوب الفحول الملائكة العصر » .

ولا نرى ما يراه الدكتور الدهان من التشابه بين أسلوب الكواكب وأسلوب الأستاذ الإمام أو تلميذه السيد رشيد . فان في الكتاب من مأخذ النحو والصرف والتركيب ما يتمحاج من السيد رشيد غاية التبرج ولا يسكت عن نقاده إذا عرض عليه ، كما صنع مراراً في تعقيبه على الرسائل والمصنفات التي يقرأها لأصدقائه وزملائه ، والأستاذ الإمام يكتب بقلمه على نهج غير نهج السيد رشيد كما يظهر من أسلوبه في « رسالة التوحيد » وفي « الإسلام والنصرانية » وفي المقالات الأدبية ، ويقع الالتباس أحياناً بين أسلوب الإمام وأسلوب تلميذه لأن قراء المغار كانوا يحسبون أن تفسير القرآن الذي كان ينشر فيه مكتوب بقلم

الشيخ محمد عبده وهو في الحقيقة ملخص أو مقتبس من دروسه في الرواق العباسى بقلم صاحب المinar ومن هنا يظن أن الأسلوبين على شبه قريب وهما مختلفان مع اتفاقهما في التحرز من المآخذ اللغوية واجتناب الصيغ المولدة والصيغ التركية .

ولا يمتنع عندنا أن يكون الشيخ محمد عبده أو السيد رشيد قد نظرا في الكتاب وأبدى عليه بعض الملاحظات وأخذ المؤلف بما أبدىاه . بل نحن نجزم براجعتهما لآراء الكتاب ونصححهما بحذف طائفة من العبارات السياسية التي وردت فيه . وثبتت هذه المراجعة من المقابلة بين النسخة التي طبعها السيد رشيد في مطبعة المinar والنسخة التي لم يشرف على طبعها . فقد حذفت منها العبارات التي اشتدت فيها الحملة على الدولة العثمانية ، واتبع السيد رشيد في حذفها رأى الأستاذ الإمام فيها وجهه إليه من النصائح غير مرة . إذ قال السيد رشيد وهو يعد وجوه النقد التي كان أستاذه يصارحه بها : إنها تشمل « الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الأحيان » ... قال : « وهذا ما كنت أكرهه أنا أيضاً فيعرض لي من الضرورة ما يحملني عليه . وجل عملى المهم منها كان سرياً . وقد أشرت إلى ذلك في فانحة المحدث الشانى عشر من المinar سنة ١٣٢٧ ولم نزل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله .. ».

والمشهور عن الأستاذ الإمام أنه ابتدى بالمتابع المرهقة من آفات السياسة حتى ملها واستعاد بالله منها في كلمته المعروفة « أعود بالله من السياسة .. . ومن ساس ويسوس وسائل ومسوس » وطبق يتصح لمريديه باجتنابها لتجھیص القول في المبادئ والأصول التي يتجرد الناس من أهوائهم وماربهم عند نظرها ولا يصدرون عنها ذهاباً مع وساوس العصبية ونوازع المنفعة والتفاق . وقد كان الأستاذ الإمام يبيع النقد ويأبى الحملة على الدولة العثمانية في محنتها ، وأحرى به أن يأبى الإغرار في هنا النقد على طريقة الكواكب كلها استشارته حاسة الدعوة فشيد النكير وبالغ في الاتهام ، ومن دلائل هذه المبالغة - ولا ريب - أنه استطاع أن يكتب « أم القرى » و « طبائع

الاستبداد» ويخرج بهما من حلب ويحملهما في طريقه ولا يحال بيته وبين ذلك كما حيل بين أصحاب الأقلام وبين أمثال هذه الكتابة في الأقطار الأوروبية لزمانه ، وكما يحال بيته وبين أمثالها في بلاد الدول المستيدة التي تخضع لحكوماتها المطلقة .

ولا نعتقد أن مراجعة الأستاذ الإمام أو صاحب المنار تجاوزت هذه الملاحظة إلى غيرها من أفكار المؤلف وأرائه ، ومن تجربه وتعليلاته ، فإن مادته من هذه الأفكار والآراء ومن هذه التجارب والتعليلات أوفر جداً من أن تحتاج إلى مدد يضاف إليها ، وحسبه نموذج واحد يلمسه بيديه ولا يقدر على الفكاك منه ليقيس عليه كل ما أحصاه في أم القرى من فساد السلطة الدينية والسلطة السياسية في عصور الاستبداد أو عصور التخلف والجمود .

حسبه نموذج «أبي الهدى الصيادى» الذى انتزع نقابة الأشراف من بيت الكواكبى بغير حق من حقوق النسب أو الفضل أو الكفاية ، ليضعه أمامه وينقل عنه آفات السلطتين ومواطن الحاجة إلى علاج هذه الآفات والمقابلة فيها بين الداء والدواء .

لقد كان الكواكبى ينعي على جهلاء المسلمين استغاثتهم بأصحاب الأحضر ولا يفرق بينها وبين الشرك بالله ويضرب المثل على ذلك بقولهم :

عبد القادر يا جيلاني ياذا الفضل والإحسان
صرت في خطب شديد من إحسانك لا تنساني

وقولهم :

رفاعى لا تضيعنى أنا المحسوب أنا المنسوب

وكان هؤلاء الجهلاء يستمدون دعاءهم من كتاب «قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعى وأتباعه الأكابر» الذى يؤلفه الصيادى أو يأمر بتأليفه وينشره وينشر معه التصانيف من قبيله عن «فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب» و «الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف» و «ذخيرة المعاد في ذكر

السادة بنى الصياد». إلى غيرها من كتب المشور والمنظوم في أشياه هذه التراثات.

وكان الكواكبى ينعي على العصر أن يرتفع بالجهلاء إلى مساند الأمة العلماء ، ولا بضاعة لهم من العلم والورع إلا بضاعة الحيلة والدسيسة وصناعة الزلنى والتقرب إلى السلاطين والأمراء ، وقد ينقلون مناصبهم بالوراثة إلى ذريتهم فيوصفون في المهد بصفات الجهابذة والأولياء .

وقد كان الصيادى ينال غاية ما ينال من ألقاب العلم والشرف ويتشفع عند ولادة الأمر لمن يطمع في نيلها وهو من الجهل بالكتابة بحيث يستكتب «المحاسيب» ما ينسبونه إليه من تلك التصانيف في كرامات الأقطاب .

قال الأستاذ خير الدين الزركلى صاحب الأعلام – وهو خبير بأصحاب السير والترجم من أبناء الجيل القريب – : «إن الصيادى صنف كتباً كثيرة أشتكى في نسبتها إليه ، فلعله كان يشير بالبحث أو على جانباً منه فيكتبه له أحد العلماء من كانوا لا يفارقون مجلسه ، وكانت له الكلمة العليا عند عبد الحميد في نصب القضاة والمفتيين . . . وله شعر ربما كان بعضه أو كثير منه لغيره

نقول : ومن هذا الشعر ما بعث به إلى الأستاذ الإمام يشنى فيه على رسالة التوحيد :

نعم فيها اختيارات ونسج دقيق فيه درب للطراز
وغايتكم بما قد صين فيها مزهه بحكم الاعتقاد
فقدم نساج در هدى ثمين مفيض للعباد وللبلاد

وقائل هذا الشعر ومن يستعيره من نظم غيره سواء ، وآية الجهل فيه أن يحسبه ناظمه أو طالب نظمه جديراً بالإهداء إلى شارح هجج البلاغة وراعي الشعراء والأدباء .

والكواكبى يعلم أن أمراء المسلمين تأخروا وأخرروا معهم رعایاهم لأنهم أحاطوا عروشهم بشراذم من الحاشية المتملقين واستمعوا إلى مشورتهم في

اختيار الولاية والرؤساء من أذنائهم وأقربائهم وإقصاء المرشحين للولاية ، والرئاسة من الكفاءة المخلصين والأمناء العاملين .

فإن لم يكن قد علم ذلك من مشاهداته ومطالعاته فهو مدفوع إلى علمه بما يبصره أمامه من ذلك المثل البارز ولو كان وحيداً في زمانه ، وما هو بالوحيد .

فالصيادي كان يتحكم في مناصب القضاة والمحققين كما قال صاحب الأعلام وكان يتحكم في مناصب الولاية والرؤساء فيستند لها إلى أصحابه وأقربائهم وينهض هؤلاء إلى مراكزهم وهم يعلمون ما تفرضه الوظيفة عليهم وأولئك تعظيم شأن المحسن إليهم والتشهير بمن ينافسهم وينافسونه من جلة العلماء ودعاة الإصلاح .

قال صاحب المغار : إن أبو المهدى سعى في إسناد ولاية طرابلس إلى أحد أصحابه فأصبح الناس يمحجون عن ذكر اسم حمال الدين والشائع عليه في مجلسه ، ولم يقنع أبو المهدى بمقاصدته لهذا المصلح الكبير في حياته في البلاد التي يتناولها نفوذه من ولايات الدولة العثمانية ، فكتب إلى صاحب المغار بعد وفاة حمال الدين كتاباً (في التاسع والعشرين من رجب سنة ١٣١٦هـ) — لعل الكواكب قد اطلع عليه — عتب فيه عليه لثنائه على حمال الدين فقال : « إنني أرى جريدة تلك طافحة بشقاوتها المتأفغن حمال الدين الملفقة ، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زوراً . وقد ثبت في دوائر الدولة رسميأ أنه مازندرانى من أحلاف الشيعة ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » .

وكان هذا ديدن الصيادي في إنكار الحبيب على غيره والاستئثار به لنفسه ولو لم يكن صاحب الحبيب من منافسيه على نقابة الأشراف أو حراسة الأوقاف .. وإنما يقطع عليه السبيل ليحمله ويحيط مسعاه ولو كان فيه خير عظيم للدولة وسائر المسلمين ، وكذلك كان تدبيره لاحباط سعي حمال الدين في التقرير بين الدولة التركية والدولة الفارسية لتفاق السياسة بينهما على

محاربة الاحتكار ومقاطعة الدول المستعمرة التي تعتمد على إحداها ، تخويفاً لها من عواقب المقاطعة على مطامعها الاقتصادية .

فإذا جاز أن تخفي على الكواكب أسباب الفشل الذي منى به المسلمين فيها وعاه التاريخ أو أحاطت به التجربة والمحادثة ، فليس من الجائز أن تفوته أسباب الفشل التي تقتصر عليه داره وتسلبه قراره ، ويبتليه بها الصيادي في شرفه ونسبه وعمله واجتهاده ، ولا يرضيه منه إلا أن يعرف له بالشرف الذي اغتصبه منه ويجزيه بالتأييد والتكمين على محاربته لياه .

غير أن الكواكب لم تعوزه الأمثلة غير هذا المثل في بلدهه وفي عاصمة الدولة ، فكل من تولى الحكم في حلب كان مثلاً كهذا المثل في كشفه عن المساوى وهدايته إلى مواطن الإصلاح ، ووسائل الكواكب إلى كشف الحقيقة غير قليلة في نطاق حياته ومحال معيشته ، إذا صرفاً النظر عن مطالعاته ومحادثاته . إذ هي وسائل الرجل المتصل بوظائف القضاء والإدارة ومراسيم التجارة وشركات الاحتكار ، وهي إلى جانب ذلك وسائل الرجل الذي يحمل تكاليف الوجاهة ويقيمه الناس مقام المسؤول عن مرافق البلدة وخفايا الكسب والسعى فيها من مباح ومحظور .

إن المباحث في « أم القرى » تجربة شخصية لعبد الرحمن الكواكب لا تعوزها الزيادة من تجربة غيرها ، فليس في الكتاب فكرة يعز عليه في ذكائه وبخثه أن يستوحى من مكانه وزمانه ، ولا غصاً على مثله أن يسترشد بعد ذلك بنصائح ذوى الرأى فيما يذاع أو لا يذاع ، وفيما يحسن نشره لحينه أو يحسن إرجاؤه إلى حين .

وعلى الجملة يصح عندنا أن نفهم أن جوهر الكتاب وهو البحث عن علل الأمم الإنسانية وعوامل شفاؤها عمل خالص للكواكب فرغ منه في بلدهه قبل هجراته منها .

أما موضع تقييده والإضافة إليه والحدف منه فهو شكل الكتاب ،

وَمَا كَتَبَهُ فِيهِ أَخْبَرًا عَنْ شَكْلِ «الْجَمِيعَةِ» كَمَا تَخْيِلُهَا وَكَمَا اعْتَقَدَ بَعْدَ رَحْلَاتِهِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَنَّهُ أَقْرَبَ إِلَى تَنْفِيذِهِ ، وَقَدْ نُشِرَ الْكِتَابُ فِي طَبَعَاتٍ مُتَلَاقِحةٍ فَأُعْيَدَ فِيهِ مَا حُذِفَ مِنْهُ ، فَلَا التَّبَاسُ الْيَوْمَ بَيْنَ عَمَلِ الْكَوَاكِبِيِّ فِي «أُمِّ الْقَرْبَى» وَبَيْنَ عَمَلِ النَّاصِحِينَ فِيهَا أَبْقَاهُ وَفِيهَا حُذِفَهُ مِنْهُ إِلَى حِينَ .

طَبَّاعُ الْاسْتِبَادَ

هذا الكتاب الذي يعد آية الكواكبى ، يتتألف من سلسلة مقالات نشرها لأول مرة في صحيفة المؤيد وتناول في كل مقالة منها عارضاً من عوارض الاستبداد التي يشاهد أثراها في أحوال الأمم والأفراد ، وانتهى الكتاب وقد بحث فيه جملة العوارض الاجتماعية التي تصاحب الاستبداد في أحوال الدين والعلم والحمد والثروة والأخلاق والتربيه والتقدم ، ومهد للمقالات بتعريف الاستبداد ثم عقب عليها بوسائل الخلاص منه والغلبة عليه .

ومقالات الكتاب جميعاً تنبئ عن دراسة وافية للعوارض التي شرحتها أو أجمل القول فيها ، وتدل على تأمل طويل في موضوعاتها يستفاد من النظر والتجربة كما يستفاد من الإطلاع والمراجعة ، ولهذا خطر للأستاذ أحمد أمين مترجم زعماء الإصلاح أنها نتيجة دراسته بعد أن « ساح في سواحل إفريقيه الشرقية وسواحل آسيا الغربية ودخل بلاد العرب وجال فيها واجتمع برؤساء قبائلها ونزل بالهند وعرف حاليها ، وفي كل بلد ينزلها يدرس حالاتها الاجتماعية والاقتصادية وحالاتها الزراعية ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقه ، ونزل مصر وأقام بها ، وكان في نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته ولكنه عاجله منيته ... نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في الحالات والجرائم ثم جمعت في كتابين اسم أحدهما — طبائع الاستبداد — والآخر — أم القرى — ... » .

والواقع أن الكواكبى درس موضوعات الكتابين قبل رحلته المطولة في البلاد الشرقية وقبل هجرته من حلب إلى القاهرة ، وقد عنى

حفيده الدكتور عبد الرحمن الكواكبي بالتنبيه إلى ذلك في مقدمة الطبعة الأخيرة من كتاب أم القرى التي طبعت هذه السنة (١٩٥٩م) فقال إنه « لابد في هذه المناسبة من الإشارة إلى حقيقة تاريخية تلقى ضوءاً على موضوع هذا الكتاب، وهي أن جدِّي رحمة الله أَلَفْ (أم القرى) وطبائع الاستبداد قبل هجرته إلى مصر، وكان عمِّي الدكتور أَمَدْ الكواكبي يتولى تبييض أم القرى له في حلب؛ كما أخبرني أيضاً عالم حلب الثقة المرحوم الشيخ راغب الطباخ أنَّ المؤلف أطْلَعَه عليه قبل سفره إلى مصر، ولما كان السيد الفراتي لم يغادر حلب خالِل مقامه فيها إلا إلى استانبول ولم يقم بجولاته إلى العالم الإسلامي إلا بعد رحيله إلى مصر، فإنَّ المؤتمر الذي عقد في مكة، ويدور عليه موضوع الكتاب، إنما هو مؤتمر تخيله المؤلف ليعرض فيه آرائه ..».

ويطابق هذا القول ما رواه الأستاذ الغزى الأستاذ سامي الكيالى صاحب مجلة الحديث كما نشره في مجلة الكتاب (سنة ١٩٤٧م) إذ يقول :

« . . . وقبل سفره يوم واحد زارني في منزلي يودعني وأخبرني أنه عازم في غده على السفر إلى استانبول لتبديل نيابته، أى نيابة قضاء رأسيا - وكانت عالماً بكتابه (جمعية أم القرى) وقد شعرت منه العزم على إطْبَعَه فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره، إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها، وحُلْرَتَه من ذلك وقلت له : إياك يا أخي والسفر إلى مصر ! فإنك أنت أدخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك، لأنك تُعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم - جوز تورك - ولا يتأخر واسْمُك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من بشدة المعارضه وانتقاد الأحوال الحاضرة . فقام : لم أُعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك . وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه ، ثم ودعني ومضى ، وأنا أسائل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته وأن يجعل التوفيق رائده والنجاح مرشدَه وقائده ، وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣٦٦ هجرية (هكذا) .. وبعد أن مضى

على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر ترقية كتاب طبائع الاستبداد الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً بخلاف كتاب جمعية أم القرى . فقد أطلعنا عليه مراراً ، ثم إنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما في المابين السلطاني ضجة عظيمة وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية .. بيد أنها رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأنهما في سهرنا المرة بعد المرة ॥ . .

فالدراسة التي توفر عليها في الكتابين كانت من مطالعاته وتجاربه ومشاهداته في حلب والآستانة وغيرهما من بلاد الدولة العثمانية ، وهي كافية لمن كان في مثل فضنته للإحاطة بظواهر الاستبداد وخوافيه والعلم بأثر الاستبداد في أحوال الأمم الكثيرة التي كان من اليسير عليه أن يتصل بها بين موطنها وعاصمة السلطنة الكبرى ، وليس عليه أن يبحث في غير تجربة واحدة ليعلم كل ما أثبته في الكتاب من أثر الاستبداد في الدين والعلم والمحاجة والآدلة والثروة وعوامل التقدم ، وتلك هي تجربته لمساعي « أبي المهدى الصيادى » ووسائله في الاستئثار بنقابة الأشراف ومنصب شيخ المشايخ في الدولة ، مع ذلك إجاه الذى كان يعيشه على اللعب بمعظاهر المجد ومداورات السياسة كما يشاء .

وقد صادف الكواكبى التوفيق في موعد وصوله إلى القاهرة ، فإنه وصل إليها وهي في فترة من فترات الجفاف المتداولة بين « يلدز » و « عابدين » ولو لا ذلك لتعذر نشر المقالات في صحيفة المؤيد لسان القصر الخديوى وهو يتحفظ غاية التحفظ في الإشارة إلى الدولة بكلمة تؤيد وشایة الجواسيس فيما اتهما به الأسرة الخديوية غير مرة من التطلع إلى الخلافة والعمل على إثارة الفتنة في البلاد العربية ، ولكن « المؤيد » يومئذ كان في حل من ذلك التحفظ الشديد ، ليعرب عن استياء الخديوى من خطة الدولة ويوجه إلى سادة « يلدز » بالمساومة على مواضع الخلاف .

ومع هذا لم يستغن الكاتب عن بعض المساندة عند عابدين وحاشيته

لتهوين الأمر على الصحيفة وتيسير مقامه في البيئة التي اختارها ولم يكن له بد من اختيارها ، فقد حرص على هذه المصناعة إلى أن فرغ من نشر المقالات وأظهرها في أول طبعة فقال في تقدّمها : « أقول وأنا المضطرب للإكتمام حسب الزمان ، الراجح أكتفاء المطالعين الكرام بالقول عنى قال ، إنني في سنة ثانية عشر وثلاثة وألف وسبعين زائراً في مصر على عهد عزيزها ومعزها حضرة سعيد عم النبي العباس الثاني الناشر لواء الحرية على أكتاف ملوكه ، فنشرت في بعض الصحف الغراء أحاجيًّا عالمية سياسية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ومنها ما اقتبسه ، غير قاصد بها ظلاماً بعينه ولا حكومة مخصصة . إنما أردت بذلك تذكرة الغافلين مورداً الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المشتبون لما هم فيه ، فلا يعتبُون على الأغيار ولا على الأقدار .. » .

ولقد كان في وسع الكواكب أن ينشر مقالاته في صحيفه من صحف الاحتلال التي كانت تباهي بمحاربة السيادة العثمانية خدمة للسيادة البريطانية ، ولكنه لو فعل ذلك لخرج عن صفتة الإصلاحية الإسلامية ، وعرض نفسه لشبهات الدعاية الأجنبية ، ووطن العزم على القطعية الدائمة بينه وبين البلاد المشمولة بسيادة الدولة والمطالبة بالولاء لها في جوازاتها وشروط الإقامة فيها والرحلة منها وإليها ، ويظهر من كلام اسمه وتوقيعه بالحرف الأول منه أنه لم يكن قد وطن العزم على ذلك عند وصوله إلى القاهرة ، وأنه أراد أن يختبر الحالة فيها حوله قبل أن يقطع بالعزم الأخير على المسار الذي لا رجعة فيه .

• • •

والمرجح عندنا أنه طوى كتاب طبائع الاستبداد في حلب ولم يطلع عليه أصدقاءه لسبب غير التحرج من خطره والحذر من إفشاء خبره إعانت أصحابه بكمان سره . فإنه أطاعهم على كتاب أم القرى وفيه

من المخدورات ما لا يقل عن أخطر المخدورات في كتاب طبائع الاستبداد . فقد صرخ فيه بالدعوة إلى الخلافة العربية وأنكر الخلافة على بني عمان ورماهم بالتواطؤ مع الدول على التكبيل بمسلى الأندلس ، ومسلى الإمارات الأسيوية ، وقد يرد على الخاطر أنه أغفل هذه المسائل في النسخة المخطوطة واكتفى فيها بالتلخيص دون التصريح وبالإشارة دون الإسهاب ، ولكن الكتاب يشتمل بعد إغفال هذه المسائل على مأخذ منكرة أخذها على الأمراء المستبددين وعزرا فيها تخلف المسلمين إلى مساوئهم وسوء سياساتهم وتدليسهم على رعاياهم وتقريفهم للمفسدين والدجالين من الولاة ورجال الدين ، ولم يقل عن المستبددين كلمة في طبائع الاستبداد إلا كان لها نظير في معناها ومرماها من فصول أم القرى على ألسنة المسلمين الترك والعثمانيين ، وهو تصريح بالحكومة المقصودة لم يرد له نظير في طبائع الاستبداد ، إذ يتبع له عموم القول أن يعلن في تقديم الطبعة الأولى أنه « لا يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصصة » .

فليست الخيبة سر كمان الكتاب عن أصدقائه الذين أطاعهم على كتاب جمعية أم القرى ، وإنما نرجع أنه طواه عنهم لأنه لم يفرغ من وضعه في صيغة النشر والتلاوة ، ووقف به عند تدوين العناوين ورتووس التعليقات وإعدادها للتوسيع فيها وإفراطها في قالبها الآخر عند تقديمها للطبع أو للنشر في الصحف ، ويتبيّن ذلك من المقابلة بين مقالات المؤيد ومقالات الطبعة الأخيرة بعد تنقيحها فإن الاختلاف بينهما أشبه بالاختلاف بين عجالة التحضير وبين النسخة المتممة للنشر والتلاوة . وقد ظهرت الطبعة المنقحة في صفحات الطبعة الأولى ، وقال الدكتور عبد الرحمن الكواكبي إنه « ينشر هذا الكتاب للمرة الأولى على العالم العربي منقحةً ومزيداً بقلم المؤلف ، وهو مختلف كثيراً عن النسخة المطبوعة والمتداولة حتى اليوم » .

ويروى الأستاذ سامي الكيالي عن الدكتور أسعد الكواكبى ابن المؤلف أنه أخبره « بأن والده رحمة الله قد أضاف على الكتاب بعد طبعه إضافات كثيرة ، والهواشى الذى يحتفظ بها بقلم والده تولى كتاباً مستقلاً بحجم الكتاب المطبوع وهو يعتزم طبع هذه النسخة قريباً ليطلع العالم العربى على ثمرة أفكار والده فى الحرية والاستبداد » .

ونجتزء فى المعارضة بين الطبعة الأولى وبين النسخة التى طبعتها الدكتور أسعد وصدرت منذ ستين — بال مقابلة بينهما فى موضوع واحد يدل على سائر الموضعى : وهو كلامه على التربية .

ففي الطبعة الأولى وردت مقالة الاستبداد والتربية بالنص الذى نقل منه ما يلى إذ يقول :

« خلق الله فى الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد . فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدanh ، أى أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وقد سبق أن الاستبداد المشهوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسمام ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم ، بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدى الاستبداد بقوته . واستعداد الإنسان لاحد لغايته . فقد يبلغ في الكمال إلى ما فوق مرتبة الملائكة لأنه هو المخلوق الذى يحمل الأمانة وقد أبتهاكافة العالم ، ويصبح أن تكون هذه الأمانة هي تخbir تربية النفس على الخير أو الشر ، وقد يتلبس بالرذائل حتى يكون أحط من الشياطين بل أحط من المستبددين ، لأن الشياطين لا ينزاعون الله في عظمته ، والمستبدون ينزاعونه شيئاً ، ولكن حاجة في النفس . والمتناهون في الرذالة قد يقبحون شيئاً لا لغرض ، حتى قد يعتمدون الإساءة لنفسهم » .

« الإنسان في شأنه كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه ؛ ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخبر أو شمال الشر ، فإذا شب يبس

وينتقل على أمواله ما دام حياً ، بل تبقى روحه إلى أبد الآبدين في جحيم الندم على التفريط أو نعيم السرور ببقاء حق وظيفة الحياة . ما أشبه الإنسان بعد الموت بالفرح الفخور إذا نام ولذت له الأخلاص وبالجرائم الجانبي إذا نام فغشيتها قوارص الوجдан بهوا جس كلها ملائمة ولإيلام .

أما في الطبعة الأخيرة فهذه المقالة ترد على الصيغة التالية :

« خلق الله في الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد ، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدanh . أى أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد سبق أن الاستبداد المشتوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام ويسيطر على النفوس فيفسد الأخلاق ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم .. بناء عليه تكون التربية والاستبداد عاملين متعاكسين في النتائج ، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته ، وهل يتم بناء ورائه هادم ؟ .. الإنسان لاحد لغاية رقياً وانحطاطاً ، وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه الذي تحمل أمانة تربية النفس وقد أبأها العوالم ، فائم خالقه استعداده ثم أوكله لخيرته ، فهو إن يشاً الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة إن كان هناك ملائكة غير خواطر الخير ، وإن شاء تلبس بالرذائل حتى يكون أحاط من الشياطين إن كان هناك شياطين غير وساوس النفس بالشر . على أن الإنسان أقرب للشر منه للخير ، وكفى أن الله ما ذكر الإنسان في القرآن إلا وقرن اسمه بوصف قبيح ، كظلم وغور وكفار وجبار وجهول وأئم . ما ذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه فقال : قتل الإنسان ما أكره .. إن الإنسان لکفور .. إن الإنسان لن يخسر .. إن الإنسان ليطغى .. خلق الإنسان عجولاً .. خلق الإنسان من عجل .

« ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته . فالمستبدون من الإنسان ينazuونه فيها . والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبشاً لغير حاجة في النفس ، حتى وقد يتعبدون الإساءة لأنفسهم .

« الإنسان في نشأته كالغصن الرطب ، فهو مستقيم لدن بطبعه ، ولكنها أهواء التربية تميّل به إلى عين الخير أو شعاع الشر ، فإذا شبه يبس ويبيّن على أمياله ما دام حيّا ، بل تبقى روحه إلى أيد الآبدين في نعيم السرور باتفاقه حق وظيفة الحياة ، أو في جحيم الندم على تفريشه . وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالإنسان الفرح الفخور إذا نام ولذت له الأحلام ، أو بالحريم الجانبي إذا نام فغشيتها قوارص الوجдан . فهو جس كلها ملائم وألام » .

• • •

ولم تخل مقالة من مقالات طبائع الاستبداد من مثل هذا التتفريح أو مثل هذه الزيادة على قلة في بعض الموضع وكثرة في غيرها . إلا أنه فارق بين النسختين كالفارق بين المسودة المعدة للتذكرة والتحضير والنسخة التي فرغ منها عمل التأليف .

على أن العبرة بروح الكتابة وما نسميه « نفس الكاتب » في كلتا النسختين . ولم تكن هذه « الروح » في المقالات ولا في الطبعة الأولى بأخفى منها في الطبعة التي ظهرت بعد وفاة المؤلف ، بل نرى أن روح الكاتب كانت في « مسوداته ومذكراته » أبرز منها في طبعتها الأخيرة ، كما يتفق أحياناً في الكتابة التي تملّها السجية عفو الخاطر والكتابة التي يدخلها التتفريح وتعمل فيها المراجعة ، أو كما يتفق أحياناً بين الكتابة « المركزة » المتجمعة وبين كتابة التبسيط والإفاضة . وقد أحسن السيد محمد رشيد رضا حين شبه المقالات في الحالتين بالأديم المدود فقال في المثار إن « الكتاب كان مقالات مختصرة نشرت في المؤيد ثم مدها صاحبها من الأديم العكاظى وزاد عليها فكانت كتاباً حافلاً ينجلى له علمه الأول بصورة أوضح وأجلى » .

نعم ، أوضح وأجلى ، ولكن الأديم هو الأديم ولعله قبل مدة كان أوثق وأقوى .

وسرعان ما تداول القراء مقالة بعد أخرى من هذه «المذكرات» التي هيأها صاحبها للنشر في الصحافة حتى أحسوا أنها طبقة في النقد الاجتماعي لم يعهدوا لها لعامة الكتاب في الصحف؛ وعلموا من مطلعها أنها يقلم رجل من رجال الدين فخطر لهم أنها لا تكون لغير رجل من رجلين : الأستاذ الإمام محمد عبده أو السيد محمد رشيد رضا تلميذه ومربيه ، ولسنا نحسب أنه خاطر بخطر من يعرف أسلوب الرجلين ويحسن التمييز بينه وبين أسلوب تلك المقالات ، فإن بضعة أسطر من المقالات كافية للجزم بأنها أسلوب من الكتابة غير أسلوب الإمام وتلميذه الرشيد ، ولكن شيوع هذا الخاطر يدل على المزلة التي قدرها جمهرة القراء لصاحب تلك المقالات ، فلن يكون في تقديرهم إلا علمًا من أعلام الرأى والإصلاح .

ولم تقطع الظنون عند وقوف المطلعين على سر مقالات المؤيد ، فقد كان من اليسير على الكثيرين أن يفهموا أن محمد عبده وتلميذه الكبير لا يتسع لهما صدر «المؤيد» مع ما بينهما وبين القصر الخديوي من الجفوة والقطيعة ، ولم يكن من اليسير على قراء ذلك العهد أن يفهموا كيف يتسرى هذا البحث لكاتب شرق عرفا أنه لا يعلم من اللغات غير اللغات الشرقية ، ولا يحسن القراءة في غير لغته واللغتين التركية والفارسية .

قال السيد رشيد : « كنا على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح حتى إن صاحب الدولة مختار باشا الغازى أتمنا بتأليف الكتاب عندما اطلع عليه » .

ثم قال : « وقد زعم زاعمون أن معظم ما في الكتاب مقتبس من كتاب لفيلسوف إيطالي . ومن كان له عقل يميز بين أحوال الإفرينج الاجتماعية وأحوالنا وذوقهم في العلم وذوقنا يعلم أن هذا الوضع وضع حكيم شرق يقتبس علم الاجتماع والسياسة من حالة بلاده حتى كأنه يصورها تصويراً .. » .

وقال الأستاذ إبراهيم سليم النجار « سبق لي أن قرأت في شبابي كتاب (الكوانتراء - سوسيال) أي العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ثم انقطعت عن الرجوع إليه . فلما قرأت كتاب طبائع الاستبداد أعاد إلى ذاكرتي كتاب الكاتب الإفرنسي العظيم . ولو كان الشيخ العربي يعرف ولو قليلاً اللغة الفرنسية لعتقدت أنه أخذ عنه أو احتلني حلوه ، ولكن الحقيقة أن العقول النيرة والقلوب الكبيرة نيرة وكبيرة مهما اختلفت لغاتها وببلادها وأقاليمها .. » .

وإن الكواكبي نفسه ليعرف القراء والنقاد من متونة الظن في اقتباسه واطلاعه على وصف الاستبداد وعوارضه الإجتماعية في كتب غيره . فإنه قد ذكر ذلك في كلامه وبرع به دون أن تدعوه الضرورة إلى ذكره . فكل ما يفهم من قراءة « طبائع الاستبداد » أن صاحبه على علم واطلاع في موضوعه ، وتلذ بداعه لا حاجة إلى التنبية إليه . إذ كان من الغفلة أن يطالب الكاتب بالتأليف في موضوع لم يكن على علم به واطلاع فيه .

أما أن يكون الاقتباس على مثال ما نسميه بالسرقة المقصودة فذلك إسراف في الظن لا مسوغ له سواء رجعنا بالمعارضة والمضاهاة إلى الكتب التي سرد الكواكبي أسماءها أو إلى الكتب التي أضافت في هذا الموضوع ولم يكن في وسعه أن يطلع عليها أو يسمع بأسمائها .

قال الكواكبي : « لا خفاء أن السياسة علم واسع جداً يتفرع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شئ . وقلما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد إنسان لا يحكيث فيه . وقد وجد في كل الأمم المتقدمة علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطراداً في مدونات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب ، ولا تعرف للأقدمين كتب مخصوصة في السياسة لغير مؤسسى الجمهوريات في الرومان واليونان ، وإنما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنة ورسائل غوريغوريوس ومحررات سياسية دينية كنوح البلاغة وكتاب

الخرج . وأما في الشئون المتوسطة فلا تؤثر أحداث مفصلة في هذا الفن تغير علماء الإسلام . فهم أتوا فيه مزوجاً بالأخلاق كالرازي والطوسي والعلاوي وهي طريقة الفرس ، ومزوجاً بالأدب كالمعري والمتبي وهي طريقة العرب ، ومزوجاً بالتاريخ كابن خالدون وأبن بطوطه وهي طريقة المغاربة .

« أما المتأخرن من أهل أوربة ثم أمريكا فقد توسعوا في هذا العلم وأتوا فيه كثراً وأشبعوه تفصيلاً ، حتى لمهم أفردوا بعض مباحثه إلى سياسة عومية وسياسة خارجية وسياسة إدارية وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية إلى آخره . وقسموا كلها إلى أبواب شتى وأصول وفروع . أما المتأخرن من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون أتوا في أكثر مباحثه تأليف مستقلة ومزوجة مثل أحمد جودت باشا ، وكمال بك وسلمان باشا وحسن فهمي باشا ، والمؤلفون من العرب قليلون ومقلدون ، والذين يستحقون الذكر منهم فيما نعلم رفاعة بك وخير الدين باشا وأحمد فارس وسلمي البستاني والمعوق المدنى .. » .

• • •

ومن أيسر نظرة يدرك القارئ المطلع أن الكواكبى أراد أن يسرد بعض الشواهد على مبلغ اهتمام الأقدمين والحدثين بعلوم السياسة ومباحثها ، ولم يرد أن يستقصى مراجع الاطلاع في هذه العلوم والباحث ، ولا مراجع الاقتباس منها في « طبائع الاستبداد » .

ولو أنه قصد إلى الاستقصاء لما قاته أن يذكر من كتب الأقدمين أهم ما كتبه فلاسفة اليونان وأفضلها في بابه ، وهو كتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب السياسة لأرسطو ، وليس هذا ولا ذاك من رؤساء الجمهوريات ، ولا قاته أن يذكر الماوردي صاحب « الأحكام السلطانية » أو بدر الدين ابن جماعة صاحب « تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام » أو ابن تيمية صاحب « السياسة الشرعية » ، أو محمد بن علي بن طباطبا صاحب « الفخرى في الآداب السلطانية » ، أو ابن حمدون صاحب

«الذكورة في السياسة والآداب الملكية»، وغيرهم وغيرهم من صنفوا وألقو في هذه المباحث ولا يفوت المؤرخ ذكرهم في مقام الاستقصاء.

ولا يلزم أن يكون الكواكب قد اطلع على كتب المؤلفين الذين ذكرهم في مقدمة «طائع الاستبداد»، وإنما نرجح أن بعض هؤلاء المؤلفين كان يستدعيه إلى قراءته بإغراء من سرته ومناسبات تأليفه.

فن الصعب على باحث كالكواكب يعرف التركية أن يعرض عن قراءة «أحمد جودت» الصدر الأعظم الذي بلغ من عنایته بالعربية أن يؤلف في نحوها وبلاغتها ويعقب على التفسيرات القرآنية فيها، ولم يكن أروع من مصنفاته بين أدباء الترك والعرب بعد وفاته في أوائل القرن التاسع عشر (١٨٩٥) ومن الصعب كذلك على كاتب مثله يعرف الفارسية أن يعرض عن قراءة العلائي الملقب بالمحقق الثاني (١٤٦٣ - ١٥٣٤) وهو المنسّار الأمين المأمون للشاه طهماسب بن إسماعيل الصفوي الذي ينتمي والكواكب إلى أسرة واحدة، ولكتنا نراجع هؤلاء المؤلفين ونراجع غيرهم من المذكورين في مقدمة «طائع الاستبداد» فنعلم أنهم مؤرخون يروون أخبار الدول والحكومات ويعقبون على عهود السلاطين والأمراء ويتحدثون عن العدل والظلم وعن العادلين والظالمين في سياق هذه الأخبار، أو نعلم أنهم من فلاسفة السياسة الذين يفصلون القول في أوضاع الحكم ودساتير الديمقراطية والنظم النيابية، أو أنهم ناصحون من حكماء الدين والمعرفة يوصون بالخير ويخذرون من الشر ويعظون الناس بما ينبغي وما لا ينبغي في حق الله وحق الرعية، ولم يستخرج أحد من كتبهم ميحةً مفصلاً في تحليل عناصر الاستبداد وتفصيل عيوبه وأعراضه وأثاره في طوائف الرعايا على تعدد أطوارها وشواغلها كهذا المبحث الذي استوحاه الكواكب من تجربته ودراساته ونظراته وتأملاته، ولا يعود الفضل فيه إلى غير فطنته وابتكاره واستقلاله بفهمه وصحة نظره، فإن هذه المطالعات قد اطلع عليها المئات كما اطلع عليها الكواكب ولم يستخرجوا منها الكتاب الذي انفرد به ولم يسبقه أحد إليه.

ولأنما يصدق وصف الاقتباس على مؤلف واحد لم يذكره الكواكبى، في المقدمة ولكنه ذكره واستشهد به في كلامه على التخلص من الاستبداد، (فتوريو الفيرى)، الذي أردد اسمه بنعت المشهور في قوله: «هذا أذكر المستبدin بما أنثرهم به الفيارى المشهور حيث قال: لا يفرج المستبد بعظام قوته ومزيد احتياطه. فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير؟!».

ولابد أن يكون هذا المؤلف هو المقصود فيما رواه صاحب المزار من ينسبون أفكار الكواكبى إلى «فلاسوف إيطالى» معروف، فإنه صاحب أشهر كتاب عن الاستبداد ظهر في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٧٧)، وشاع بعد ذلك أىاماً شيوخ بين أيدي الثوار الإيطاليين، ولا سيما جماعة الكربونارى — الفحامين — الذين أسسوا جماعتهم السرية معارضة لجماعة البنائين أو الماسون، وتسرب أعضاؤها إلى كل مكان يغشاها الإيطاليون في موانئ البحر الأبيض ومدن الشرق الأدنى، ومنها مدينة حلب التي كانت «مركزًا مهمًا» لتجار البنديقية والمتكلمين باللغة التوسمكانية، وأوى إليها كثير من المثقفين والمهاجرين السياسيين منذ راجت فيها حركة التجارة على طريق الهند والأقطار الآسيوية.

وبين «الكواكبى» و«الفيرى»، شبه قريب في السيرة والمنزع وظروف الحياة، فكلاهما تعود الرحلة في طلب المعرفة بأحوال الأمم، وكلاهما اضطر إلى الكتابة في ظل الرقابة، وكلاهما نزل مختاراً أو مضطراً عن ثروته وعتاده، وزاد «الفيرى» فأسلم ما بقى له في الثروة إلى أخيه لتسليمها نفقة التي يحتاج إليها، رغبة منه في التفرغ للرحلة والكفاح بالقلم والدعوة اللسانية.

وكتب «الفيرى» مقالاته عن الاستبداد *Della Tirannide* فظهر فيها أثر اطلاعه على «روسو» و«منتسكىو» وعلى «بيكافلى» من قبل، ولم يظهر فيها مذهب خاص يميز للناقد أن يصفه بالفلاسوف.

كما وصفه القائلون بأن الكواكبى نقله بحروفه واعتمد عليه في تفصيل آرائه.

والتشابه بين رؤوس الموضوعات باد من النظرة العابرة إلى صفحات الكتابين فقد كتب ألفيرى في تعريف الاستبداد وتعريف المستبد ، ثم كتب عن الخوف والتملق والطموح ، ووزراء المستبد ، ثم كتب عن الانحلال والدين والمقابلة بين الاستبداد القديم والاستبداد الحديث وعن الشرف لالمزيف والمخد الكاذب وعن نفوذ الزوجات في عهود الاستبداد وعن وسائل المقاومة للاستبداد وعن الشعوب التي لا تحسن الطغيان وعن الحكومات التي تركن إليه ، ونظر في جميع هذه الموضوعات إلى أطوار الأمم الأوربية على خلاف منهج الكواكبى في النظر إلى الأمم الشرقية والتعمق في وصف أحواها ، مما يجيز لنا أن نقول إن مؤلف أم القرى كان خليقاً أن يكتب آراءه عن الاستبداد ولو لم يطلع على الرسالة الإيطالية .

ويتساءل الأستاذ أحمد أمين : كيف وصلت الرسالة الإيطالية إلى علمه ؟ وهو سؤال لا جواب له غير الخبرة إن لم تكن للكواكبى وسيلة أخرى للعلم بـألفيرى غير العلم بلغته . إلا أننا نعلم من « طبائع الاستبداد » إن ألفيرى كان مشهوراً عند الكواكبى في زمانه ، ونعلم أن هذه الشهرة لا تستغرب مع كثرة الإيطاليين في حلب ورغبة الكواكبى في الاستفادة من معلومات أصحابه الأوربيين المثقفين وهو كثير الاتصال بهم وهم يلقونه على الدوام في أعماله وأعمالهم ، وقد كان اسم « إيطاليا الفتاة » على كل لسان بين طلاب الحرية العثمانيين و منهم جماعة « تركيا الفتاة » الذين استعاروا اسمهم من اسم الجماعة الإيطالية ، وقد كان الإيطاليون يسعون في تلقين دعوتهم ولا ينتظرون من يسلمون عنها ، وكانوا ينتشرون في سواحل البحرين الأبيض والأحمر وينشرون فيها أنديتهم السرية التي تنتهي إلى طوائف الفحامين وتحاول أن تزاحم في ميادين السياسة طوائف الماسون — أو البنائين الأحرار — التي غالب عليها في

الشرق نقود الإنجليز والفرنسيين ، ومن تاريخ الكواكب بعد المиграة من حلب انعلم أنه كان يلتقي بوكلاء الحكومة الإيطالية في شواطئ بحر العرب وينتقل على إحدى السفن الإيطالية بإذن من أولئك الوكلاء ، فليس بالعسير بعد ذلك أن يعرف الكواكب شيئاً عن الكاتب الإيطالي « المشهور » كما وصفه في كلامه ، وأن يلم برؤوس الموضوعات التي طرقتها في رسالته عن الاستبداد وهو مشغول بكافحة الاستبداد منذ صباح ، وأن يعارض تلك الرسالة بما يقابلها معارضه الشاعر للشاعر في القصيدة المأثورة لديه ، ولا ينقل منه شيئاً بهذه المعارضه غير الوزن والقافية ، أو غير العنوان والمناسبة .

ونحن نرجح هذا الاحتمال على قول بعض المعاصرین إن الكواكب اطلع على ترجمة تركية لطبايع الاستبداد من عمل كاتب من أحرار الترك المهاجرين إلى سويسرا يسمى « عبد الله أمين » فإننا نشك في ذلك لأن مثل هذه الترجمة لا تطبع يومئذ في البلاد العثمانية ، وإذا طبعت في مصر فلابد أن تكون متداولة معهودة بين العثمانيين أصحاب الكواكب فلا يهم ذكرها ولا مختلف الباحثون في أمرها عند السؤال عن مصادرها ولا يتحقق حقيقة هذا الأمر على مختار باشا الغازى وهو وكيل الدولة العثمانية المسؤول عن أخبار هذه المنشورات التي تراقبها الدولة .

وأصاب السيد رشيد رضا إذ قال إن مباحث طبائع الاستبداد لا يكتبه قلم أوربي ولا يقتبسها شرق من المراجع الأوربية ، وترى على هذا أن « الفيبرى » نفسه لا يستطيع أن يصور عناصر الاستبداد كما صورها الكواكب من وحي تجاربه وتأملاته في البلاد العثمانية وفي بلده وإقليمه بصفة خاصة ، لأنه يحمل « مصورة » تريه ما يقع عليه حسه ولا تريه ما لم يشهده بعينيه .

فإذا كان جهل الكواكب بالإيطالية يبعث على استغراب علمه بالفيبرى ، فإن جهله لهذا الكاتب خاصة هو الغريب من رجل يعاشر

الإيطاليين ويسمع بثورتهم ويسمع أن ثوار الترك يستعبرون منهم تنظيم حركتهم ، ويسلمون لا شك عن كاتبهم « المشهور » أو يلتقي منهم البيان عنه بغير سؤال .

وما كانت الشبهة أن اتصال الكواكب بالإيطاليين قليل لا يسمح بهذه المعرفة ، وإنما الشبهة أنها كانت تزيد على اللازم لهذه المعرفة ، حتى خطر لبعضهم أنها تنتدء من الصحبة إلى « التواطؤ » على السياسة الخفية ، فلو لا المصادفة التي وقعت على الرغم من الكواكب ولم تقع باختياره ولا بتدبره لاستعصى على المدافع عنه أن يدحضها بغير حسن الظن وصدق الفراسة .

« حدث في يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا في حلب — السنيد أوريكو ويتو — يدعا كان راكباً عربته ، ماراً في محللة الجلوم ، التي هي محللة السيد عبد الرحمن الكواكب ، إذ وقع على ظهره حجر عاشر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً ، بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً يطلب فيه منه البحث عن الضارب وإجراء العقوبة القانونية ... هذه الحادثة فتحت للوالى باباً يلتج منه إلى الصاق هذه الجناية بالسيد الكواكب ، لا سيما وقد كانت الحادثة في محلته وعلى مقربة من داره ، وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن الكواكب منضم إلى عصابة أرمنية — وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة — وأنه قبل يومين أغوى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجراً أصاب ظهره ، محاولاً بذلك إحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين بحلب ... وفي الحال أصدر الوالي أمره بالقاء القبض على الكواكب وزوجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخموراً وأجلس على كراسي المحكمة لإصدار الحكم عليه^(١) » .

ويستوى اتهام الكواكب في هذه القضية وبراءته منها في تكليف الوشاة الذين رجموا بالظن فجعلوه صنيعة الإيطاليين ، فإن الصنيعة لا يسلمه حماته المزعومون إلى الموت وهم ينظرون !

(١) المجلد الثالث من مجلة الكتاب عدد يناير ١٩٤٧

شخصية مملوكة:

« كان مربوع القامة ، حنطي اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، واسع الجبين ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة ، لا غائزها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، أزج الحاجبين ، صغير أطراف ، معتدل الجسم بين السمن والهزال ، أسود الشعر ، قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى جهة مصر ».

هكذا وصفه صديقه الأستاذ إبراهيم سليم التجار ، وهو من عرفوه وصاحبوه فقال : « كان ربع القامة تمثيل إلى الطول قليلاً ، أبيض الوجه بياضاً مشرباً بشيء قليل من الحمرة ، شأن سكان البلاد الباردة ، ... وقد أحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ، مد فيها الشيب خيوطه ».

ووصفه ابنه الدكتور أسعد فقال : « كان ربعه إلى الطول أقرب ، قوى البنية ، صحيح الجسم ، عصبي المزاج بتأن ، أشهل العينين ، أزج الحواجب ، أبيض اللون ، واسع الفم ، عريض الصدر ، أسود شعر الرأس والذقن ، متألق في لباسه ، يتكلم بجهر هادئ وسلامة وابتسام ، يحسن السباحة والصيد والفروسية .. ».

وسعنا وصف سجاياه وملكاته العقلية من عاشره ، كما قرأنا هذا الوصف بأقلام مترجميه ، فرأيناهم يتفقون على سجايا خلقه وملكات عقله اتفاقهم على سماته وتكوين جسده ، كأنهم ينتظرون إلى ملامح محسوسة لا تخطيء العين رؤيتها ولا مختلف الناظرون إليها في وصفها ، فما من ترجمة له لم تبرز في الكلام عليه صفات الورق والخلم والفتنة والتجدة وعفة اللسان وحسن الملاحظة وصدق الإرادة ، وكأنما ثبتت

هذه الصفات في نفوس عارفيه ، لأنها جاوزت أن تكون صفات مقدورة وأصبحت أ عملاً متكررة يؤيد بعضها بعضاً فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها . وهي قد أصبحت فعلاً في عداد الأعمال المشهودة ولم تبق في حيزها من عالم السجايا والأخلاق ، وساحت لها منادح الظهور والثبوت مرات في جملة الوظائف التي عمل فيها فكان في كل منها أمن الجهر والسر خبيراً بعمله غيوراً على الضعفاء حريصاً على واجبه متطوعاً بما يزيد على الواجب كلما دعوه إلى ذلك دواعي النجدة والإنصاف .

ثم خلا من أعمال الوظائف فكانت بطالته في عرف الحكومة أدعى إلى إبراز تلك السجايا والملكات من كل وظيفة تولاها ، إذ كان يشغل وقته بالتطوع لدفع المظالم وإبلاغ الشكایات وتحمیص الأسانيد والنهوض بتکاليف الرئاسة وأعباء الوکالة الموروثة التي ألقاها على عاتقه مكانه من العلم والواجهة وسابق الخبرة بولالية أعمال الناس ، وافتتح لهذه الأعمال مكتباً مستعداً مفتوح الأبواب لمن يقصدونه بغير جراء ، بل يحمل النفقة أحياناً عن أصحابها الذين يعيهم حملها من ذوى الحاجات ، لا جرم يتفق واصفوه على سجاياه وملكياته ، بل على صنائعه وفعاليه ، كاتفاقهم على ملامحه وسماته ، فلأنها ملامع مشهودة وصفات جاوزت حيز الظنوں إلى حيز الأعمال .

ومرجع ذلك إلى أننا هنا أمام « شخصية مكونة » قام كيانها المتن على أسس عميقة من عوامل يئتها وأسرتها وظروف زمانها وظروف حياتها وسائر مقوماتها وعناصرها وتکاد كل صفة من صفات الكواكبى تنسب إليه فلا تعجب لاتصافه بها ولا تنقب طويلاً حتى تجد تفسيرها كافياً مائلاً في عامل من تلك العوامل المتأصلة في ظروف زمانه أو ظروف مكانه .

رجل يتطلع إلى قلب دولة وإقامة دولة من طريق الدعوة .
أى عجب أن يتطلع إلى ذلك رجل يعلم أن سلفاً من أسلاف أسرته أقام الدولة الصفوية من طريق الصومعة والمدرسة في بلاد غريبة عن

بلاده ، وأن الدولة التي يريد أن يقلبها قد ترتعزت في موطنها ولم تعد إليه بعد فترة إلا وهي على حال من الترتعز لا تؤذن بالسلام ؟ .

رجل دائم الشعور بعروبيته شديد الغيرة على نسبته العربية .

أى عجب أن يكون كذلك من يرجع إلى تاريخ بلده من قبل إبراهيم عليه السلام فيعلم أنها عربية ولم تزل عربية تحس عروبيها كلما أحسست أنها « تهان من أجل هذه العروبة وتظلم في سبيلها » ؟ .

رجل يتصدى للجهاد في هذا النبيل وينهض بأمانة الإمامة فيه ولا يت未成 لنفسه العذر في التخلف عنها .

أى عجب أن الإمامة أرجل توارث الإمامة في بيته فطلبته قبل أن يطلبها .

ورجل يعرف الاستبداد فلا يصبر عليه ولا يستقر معه على قرار .

فهل من عجب أن يكون كذلك مصاب بعسف الاستبداد في سرمه وفي تراث قومه وفي حقوق عشيرته وأله وأقرب الناس إلى جواره .

وإنه لعلم أثر الاستبداد في الدين والدنيا ، فأى عجب في هذا العلم وهو لا يتطلب منه إلا أن يعلم كيف توصل الكذبة من رجال الدين إلى اغتصاب حقه وحق بيته ، وكيف يختلسون النسب والحساب ويزيغون الشعائر والشرائع ليصلعوا من ثم إلى مجالس الصداررة في الدين والدنيا وبين الرعية والرعاة ؟ .

ورجل يتحفظ للثورة ، فأى عجب في ذلك وهو يعيش في عصر الثورة ؟ .

ورجل يتصل بالعالم في زمانه فلا تخفي عليه خافية من أخطاره وخطوبه ، فأى عجب في ذلك وهو في بلد تلقي عنده طرق العالم ولا ينقطع عنها أو ينقطع عنه الواردون إليه والطاردون عليه في سلمه وحربه ؟ .

رجل واحد ندبته الحوادث لرسالته ولم تدب لها أحداً غيره ،

فأى عجب في ذلك وهو الذي تهياً لتلك الرسالة بالاستعداد لها والقدرة عليها والشعور بدوافعها والعجز عن إغفالها والإغضاء عنها .

وقد تجرد الكواكب لرسالته وتفرد بها في بيته لأن هذا الاستعداد الموروث منذ القدم يسانده استعداد خاص به من فطنته وخلقه ومطالعته وبوعشه النفسية . فلا تكفيه الفطنة وحدها لأن الفطنة لا تقدم ولا تؤخر ما لم تسعدها الحالات التي تصر على الشدة وتقدم على الخاوف وتضططع بتكميل النجدة والمروعة ، ولا تغنيه الفطنة والخلق بغير ال بواسع النفسية التي تثير الضمير وتسجّل الحاطر ، وبغير البيان الذي استفاده من دراسته واطلاعه وحسن إصغائه إلى ذوى المعرفة والخبرة من صحبة ، ومن المصادفات النادرة أن يجتمع ذلك الاستعداد الموروث من القدم وهذا الاستعداد الخاص بصاحبه لأكثر من ناين واحده في حقبة واحدة ، وهو كاف لارتياح الدعوة الأولى على سنة الطبيعة من القصد في غير ضرورة للسرف والزيادة .

والشخصية المكونة المنذورة لرسالتها هي هذه الشخصية التي تعاونت فيها العوامل هذا التعاون بين حديث وقديم وبين خاص وعام ، وعلى هذا التكوين بنيت « شخصية » الرائد الذي كتب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » .

كان الرجل قضية حية متفقة المقدمات والتائج .

كان شخصية قوية حية لا موضع فيها لغموض أو التواء .

مفتاحها إذا تمسنا المفتاح لبعض زواياها أنها « شخصية عزيز قوم يغضب لكرامته وكرامة قومه » .

ولنا أن نفسر بهذا المفتاح كل سر فيها من أسرار الأعمال أو أسرار النبات .

في مصادر

وصل الكواكبى إلى مصر في منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفي بها في شهر يونيو سنة ١٩٠٢ وتخلل هذه الفترة رحلتان ، قال صديقه صاحب المزار عنها : « إنه وجه هبته أخيراً إلى التوسيع في معرفة حال المسلمين ليسعى في الإصلاح على بصرة ، وبعد اختباره الثامن بلاد الدولة العلية - تركها وعربها وأكرادها وأرمنها - ثم اختباره لمصر ومعرفة حال السودان منها ، ساح منذ سنتين في سواحل إفريقيا الشرقية وسواحل آسيا الغربية ، ثم أتم سياحته في العام الماضي فاختبر بلاد العرب التي كانت موضع أمله أتم الاختبار . فإنه دخلها من سواحل المحيط الهندي وما زال يوغل فيها حتى دخل في بلاد سوريا واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل وعرف استعدادهم الحربي والأدبي وعرف حالة البلاد الزراعية وعرف كثيراً في معادنها حتى إنه استحضر نموذجاً منها . وقد أنهى في رحلته الأخيرة إلى كراجي في موانئ الهند وسخر الله له في عودته سفينة حربية إيطالية حملته بوصية من وكيل إيطاليا السياسي في مسقط ، فطافت به في سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقيا الشرقية ، فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختباراً سبق به الإفرينج وكان في نفسه رحلة أخرى ي tumult بها اختباره للمسلمين وهي الرحلة إلى بلاد الغرب ولكن حالت دونه المنية التي تحول دون كل الأمان والعزائم .. » .

وقال الأستاذ جورجى زيدان في كتابه عن مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر عن رحلته : « وما يذكر له ونأسف لضياع ثماره أنه رحل رحلة لم يسبقها أحد إليها ويندر أن يستطيعها أحد غيره . وذلك أنه أوغل في أوسط جزيرة العرب ، فأقام على متون الجمال نيفاً وثلاثين

يوماً . فقطع صحراء الدهناء في اليمن ولا ندرى ما استطاعه من الآثار التاريجية أو الفوائد الاجتماعيه فعسى أن يكون ذلك محفوظاً في جملة متخلفاته . وتحول في هذه الرحلة إلى الهند فشرقي إفريقيا أيضاً وكان أجله ينتظره فيها .

والمؤرخ الحلبى الأستاذ الغزى ، وهو صديق الكواكبى ، يذكر هذه الرحلات فيما كتبه بمجلة الحديث ويشير إلى إشاعة القائلين إن المخديوى عباساً استدعاه ليقوم بالدعاه لخلافة مصرية وليسعى لدى الشيوخ وعربان الإمارات في ذلك ، ويروى أنه جاءه كتاب من قنصل إيطاليا في حديدة باليمن — وهو من أسرة الصولا بخليب يسمى فردیناند میخائيل — فذكر فيه أنه اجتمع بالسيد عبد الرحمن الكواكبى أثناء هذا الطواف ^(١) .

ولا تنفصل هذه الإشاعة عن إشاعة أخرى فحرواها أن الدولة الإيطالية يسرت له الرحلة لأنها كانت تطمع في نجاح المسعى إلى خلع الخلافة التركية منذ توجهت محاولاتها الاستعمارية إلى شواطئ البحر ، لعلها تستفيد من مصادقة الخلافة العربية المنتظرة بعد إقامتها على مقربة من مناطق نفوذها .

ولابد لكل ملتفت إلى هذه الإشاعة أو تلك من تفسير التناقض بين العمل للمخديوى عباس والعمل للإمامية العربية القرشية ، فإن عباساً لا يبذل المال لمن يسعى في إجهاط مسعاه وإثمار سواه عليه ، ولا مصلحة للدولة الإيطالية في إقامة الخلافة بأرض يحتلها الإنجليز ويسيطرون بها على شواطئ البحر الأحمر من شهاطا إلى جنوبها ، وليس ارتباط الأسرتين المالكتين في إيطاليا ومصر كافياً لحمل الدولة الإيطالية على اتباع هذه السياسة ، فلابد إذن من التفسير القاطع للظانون بين قولين لا يتفقان ، وإن اتفقا في شيء واحد وهو حرب الخلافة العثمانية .

* * *

(١) مجلة الحديث (١٩٥١) ، وكتاب « عبد الرحمن الكواكبى » للدكتور سامي الدهان .

أما اتصال الكواكبى بالخديبو عباس فيكتفى في تفسيره أن الكواكبى قد وصل إلى القاهرة خلال أزمة من الأزمات المستحكة بين « عابدين » و « يلدز » وبين « عابدين » و « نقابة الأشراف » التي كان « أبو الهدى الصيادى » يتولاها في عاصمة الخلافة ، فلا غرابة في اتحاد الخطة بين الخديبو وبين صاحب طائع الاستبداد في تلك الفترة ، ولا في التحالف بينهما على انتقاء الشر من دسائس « يلدز » ودسائس « نقابة الأشراف » في آونة واحدة .

وكانت هذه الفترة من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٢ أصلح الأوقات لانتفاع الكواكبى في مساعيه بزيارة القاهرة . فإنه استطاع أن ينشر مقالاته في « المؤيد » صحيفة الخديبو الشبيهة بالرسمية ، ولو لا ذلك لاضطر إلى الكتابة في الصحف المهمة بخدمة الاستعمار تعصباً منها للدول الأوربية على دولة الخلافة ، ولم يسلك هذا الطريق داع من دعوة الإصلاح في العالم الإسلامي إلا تعيرت به السبل من خطواته الأولى .

ومضت هذه السنوات والخديبو عباس يقاطع الآستانة ويأبى أن يقصد إليها في رحلة الصيف قبل أن يفلح رسالته إليها في تسوية المشاكل المعلقة بين يلدز وعابدين ، ومنها مشكلة قاضى مصر من قبل الآستانة ومشكلة جزيرة « طشيوز » التي استردها السلطان من الأسرة الخديبوية ، ومشكلة الصحافة التي تحمل على الدولة ويصرح المسؤولون في القصر السلطانى بانهائها إلى الخديبو ، أو بأن الخديبو على الأقل يقصر في استخدام نفوذه لإسكانها ، وقد غضب الخديبو غضباً شديداً يوم علم أن حاشية السلطان اتصلت بالسفارة الإنجليزية تسألاً أن تتوسط عند الوكالة البريطانية في القاهرة لكف الحملة على السلطان في صحافتها العربية والأجنبية . وقد سافر أحمد شفيق باشا إلى الآستانة في صحبة الوالدة للاحتجاج على ذلك وعلى غيره من مسائل الخلاف بين الأمير التابع والسلطان المتبع .

قال شفيق باشا في مذكراته — أول مايو سنة ١٨٩٩ — إنه أثار

هذه المسألة في حديثه مع باشكتاب المابين وأبلغه أن الخديوي يشعر بالإغضان عنه « في عدة مواقف آخرها أن المابين قصد إلى الحكومة الإنجليزية ليشكوا إليها عدوان صحيفية من هذه الصحف تصدر في مصر . كان الخديو وكيل السلطان الشرعي غير موجود » .

وشاءت أخبار هذه المشاكل في الدوائر السياسية بالاستانة فاستطلع السفراء أسرارها وتحدث غير واحد منهم إلى شقيق باشا عن حقيقتها ، ولا سيما سفراء الدول التي كانت تقاوم الاحتلال البريطاني ومنها يومئذ فرنسا وألمانيا وروسيا . قال شقيق باشا : « وفي اليوم التالي زرت سفير فرنسا فسألني عن سفر سمو الخديو للاستانة فأشرت إليه بأنه قد لا يأتي في هذا العام نظراً لأن شيئاً لا شجع سموه على الزيارة ، ولما سألني عنها باللحاج أخبرته موجزاً بمسألة الصحف فقال لي في النهاية إن كل شيء يزول عند وجود سموه بالاستانة . ثم قال : إنني سأنتهز كل فرصة وأعرف السلطان بالحقيقة وأكرر عليه ما سبق أن قاته وهو أن من صالحه أن يجعل الخديو راضياً لأن سموه لو خلع الطاعة لأوقع الخليفة في ارتباك عظيم » .

ثم قال : « وزرت السفارية الروسية فقابلني مكسيموف الترجمان الأول وله نفوذ عظيم في المابين ورحب بي وقال لي إنه علم بمسألة الصحف فأسف لما وقع .. » .

ومضي شقيق باشا يقول : « ... ثم ذهبت إلى المابين فلم ألق جديداً ، وهناك قابلت نجحيب بك ملحمة القويميسير العالى للدولة في البلغار ، فتعزقنا بعد قليل ، ودارت بيننا أحاديث أخبرني خلالها أن جماعة أى المدى أرادوا اجتذابه نحوهم ، فطلبوه منه أن يرسل تقريراً ضد الحضرة الخديوية وكان الواسطة في ذلك كريم أفندي صاحب جريدة تركيا التي تطبع في مصر . ولكنه أخذ الأوراق التي ثبتت ذلك ورفعها للسلطات ففصلت له الإرادة بحفظها عنده .. » .

ونقل شقيق باشا في مذكريات سنة ١٩٠١ « في ٢٤ نوفمبر أبلغني تحسين بذلك أن أباً الحديدي تمكّن من دخول السرّاى بعد أن كانت علاقته بها على غير ما يرام ، وألقي بدسیسة ضدّ الحديدي مؤدّاه أنّ سمهوه تآمر مع رفعت باشا الصدر الأعظم الذي توفّي أخيراً ، والقزّل أغاسى والمشير فؤاد باشا وغيرهم لخّام السلطان وتولية ولّي العهد ، وأنّ المتأمّرين أخذلوا رشوة قدرها عشرون ألف جنيه بواسطة الكريدي ليونيه وأنّ كنّت الواسطة بين الحديدي ورشاد أفندي ولّي العهد في هذه المؤامرة ... » .

وكان الحديدي في هذه الأثناء يسافر إلى الصحراء الغربية في تلك المابين تقارير الجوايس بأنّه « سيقابل هناك الشيخ جنينة وكيل السنوسى للمخابرات معه بشأن الخلافة العربية » .

وفي أول يونيو سنة ١٩٠١ كتب شقيق باشا في مذكرياته : « إنّ بطرس غالى باشا ناظر الخارجى توجّه من قبل كرومر إلى الحديدي وأبلغه أنّ الحكومة الإنجليزية وردّ لها بلاغ من سفير الدولة بلندن يقول فيه إنّ سمهوه أخذ في إرسال مدفع ونقوذ إلى التائرين في اليمن ... » .

وقال بعد ذلك إنه « في ٣١ أكتوبر طلب للسرّاى وعرض على تحسين بذلك صورة منشور عليه توقيع الحديدي بصفته خديوياً يدعو المسلمين فيه للخروج على السلطان ومبايحته بالخلافة ... ولكن جلاله الخليفة عرف أنّ هذه دسیسة » .

ودامت هذه الجفوة إلى صيف سنة ١٩٠١ حين شعر الحديدي بالتصيّق عليه من قبل الإنجليز ، فأخذ في التهديد لإصلاح العلاقة بينه وبين السلطان ، وقرر السفر إلى الأستانة قبل أن تبلغه الدعوة الساطانية بالحضور إليها كما جرت بذلك مراسم المابين .

• • •

ولا ندرى هل كان الكواكب يتحين الفرصة المؤاتية لسفره من حلب إلى القاهرة ؟ أو أنه نزل بها فوجد الفرصة مؤاتية له بعد وصوله

إليها . ولكن هذه الفرصة كانت ضرورية له في عمله فاستفاد منها أثناء مقامه بمصر وأنجز كل ما أراد إنجازه فيها قبل رحلاته إلى المشرق وقبل انقلاب الموقف وتراجع الخديو عن خطته الأولى . فسرعان ما « اعتدل الجو » بين « يلدز » و « عابدين » حتى جاءه النبأ من قبل الخديو يوحى إليه بما لا يخفى عليه . إذ عرض عليه أن يصحبه إلى الآستانة ليقدمه إلى السلطان ويعيده إلى حظيرة رضاه . ولم يكن ليخفى على الكواكبى مغزى هنا الاقتراح الصريح . فإنه سواء قبل السفر إلى الآستانة أو اعتذر منه خلائق أن يفهم أنه مطالب بالسكتوت عن السلطان أو مبارحة البلاد ، إلا إذا شاء أن يمكث بها في حماية الاحتلال .

ونحن لم نسمع بهذا الخبر من أصحاب الكواكبى الذين لقيناهم وسمعوا منهم الكثير من أخباره مع الخديو ومع الأستاذ الإمام ، وإنما نعول على رواية الأستاذ كرد على في الجزء الثاني من مذكراته التي يقول فيها : « وجاءنى ذات ليلة يسرر معى في دارى مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرنى في أمر عظيم . قال : إن الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه إلى الآستانة — وكان الخديو يصطاف فيها — ليقدمه إلى السلطان العثمانى ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تتحل هذه المشادة ويطرد خليفة الترك إليه . فصعب على رفيق بك إبداء رأى في موضوع جد خطير كهذا . لأن ابن عثمان لا تأخذه هواة فيمن خر جوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسية يذهب الرجل ضحيتها . وما قال لنا ؟ إنه حائز في أمره بين القبول والرفض ، وإنه شعر بالأمس بوجع في ذراعه وما عرف له تعليلا ، وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبى إلى داره فما هي إلا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت إبنته السيد كاظم في الباب يبكي وينوح ، ويقول قم يا كرد على ، فإن صديقك أبي مات .. » .

وظاهر من سيرة الكواكبى في القاهرة أنه لم يقم بها إقامة طويلة متواالية ، وإنما كانت إقامته بها متقطعة تتمخللها الرحلة بعد الرحلة على النحو الذى تقدم بيانه في ترجمته بأقلام أصدقائه :

أما المعلوم من أخبار إقامته بها فخلاصة أنه كان يؤثر السكن في الأحياء الوطنية بين شارع محمد علي والحي الحسيني إلى جوار الجامع الأزهر ، وكان يؤثر في صحبته من يلقونه ويلقاهم أن يتجنب التحيز والتشييع لهذا الفريق من أصحاب المخصوصات السياسية ، فكان يلقى الأستاذ الإمام وتلاميذه كما يلقى الشيخ على يوسف وزملاءه من أنصار السياسة الخديوية ، وكان يجتمع بكل من تجمعهم جلسة « سبلندر » وجلسة « يلدز » من أندية القاهرة المشهورة وينضم طائفة من حزب « تركيا الفتاة » وطائفة من دعوة الجامعة الإسلامية ، وكان المتطرفون من جماعة « تركيا الفتاة » يستجدون الجلوس بقهوة يلدز تفاؤلاً باحتلال « يلدز » الكبرى في يوم من الأيام ، فإذا وجدوه هناك جلسو إليه فلم يعرض عنهم ولم يغض معهم في دعائهم ، وزدماً كان بينهم أذناب مدسوسون من قبل السلطان عبد الحميد أو الشيخ أبي الهوى أو خدام الدسائس الأجنبية المتلبسون بلباس الوطنية ، فيعرفهم أو لا يعرفهم ثم لا يبالي أن يستمعوا إليه ويستمع إليهم ، وقد يعتصم بالصمت ساعات إذا تطرق بهم الحديث إلى غير ما يرضيه .

وقد تعددت الروايات عن أخباره الأخيرة ليلة وفاته رحمة الله . فتها ما تقدم بيانه في مذكرات الأستاذ كرد على ، ومنه ما رواه أحد أصدقائه الشيخ صالح عيسى وكان متقيماً في مصر إذ يقول كما جاء في عدده يناير ١٩٤٣ من مجلة الكتاب : « وفي اليوم الخامس من شهر ربى الأول سنة ١٣٢٠ هجرية ورد على السيد عبد الرحمن من قبل حضرة الخديو — وكان مصطافاً في الإسكندرية — بطاقة يدعوه فيها لحضور ضيافة يقيمها هنا اليوم في إحدى سراياته في الإسكندرية فأجاب السيد الدعوة وركب قطار السرعة وسار إلى الإسكندرية وقابل الحضرة الخديوية وحضر ضيافته وعاد إلى مصر من يومه ، وفي الليل سهرنا معه في متهى « ستانبول » مع جماعة من أدباء مصر وأفاضلها يزيد عددهم على العשרה ، وكانت جالساً جانب السيد عبد الرحمن وما

صارت الساعة الرابعة عربية من تلك الليلة همت بالقيام لأن النوم غلبي ، فاستدعاي إليه و كنت جالساً في قربه ، وقال لي : أحس بوجع شديد في خاصرتي اليسرى وهو إذا دام معى ساعة أخرى ، فلا شك أنه يكون قاتلي . فقلت له : لا بأس عليك إن شاء الله . ثم انصرفت إلى منزلي ورقدت في فراشي ؛ وما كاد شفق الفجر يلمع فتحمة الليل إلا والباب يطرق على . فنهضت من فراشي مسرعاً وقلت : من بالباب فأجابني الطارق بقوله : أنا كاظم . إن أخاك والدى قد مات . فدهشت من هنا الخبر المفاجىء .. .

ونقل الدكتور سامي الدهان عن مجلة الحديث (١٩٤٠) رواية أخرى فقال : « في مساء الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٠٢ الموافق ٥ ربیع الأول سنة ١٣٢٠ هجرية جلس في مقهى يلائز قرب حدائق الأزبكية إلى أصحابه وأصدقائه وفيهم السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على وإبراهيم سليم النجار وشرب قهوة مرة ، وبعد نصف ساعة أحس بألم في أمعائه فقام للحال وقصد مع ابنه السيد كاظم في عربة حنطور إلى الدار وظل يقعى حتى قارب الليل متتصفح فأصيب بنبوبة قلبية ضعيفة فأحس ابنه بالخطر وذهب يستدعي أقرب طبيب من المحلة ، ولما عاد صحبه الطبيب وجد أباه قد فارق الحياة .. وسرى الخبر صباح الجمعة في مدينة القاهرة فأمر الحديبو بتدفن الكواكبى على نفقته الخاصة وأن يعجل بادفنه ، وأرسل مندوباً عنه لتشييعه ودفن في قرافة باب الوزير في سفح المقطم ، واحتفل له السيد علي يوسف صاحب جريدة المؤيد بثلاث ليال حضر فيها القراء ... » .

ويكاد أصحاب هذه الروايات المختلفة عن وفاته رحمة الله يتفقون على ظن واحد سبق إلى الكثرين من سمعوا بنبأه في حينه ، فقد خطر لهم جميعاً أنه ذهب ضحية الغدر والدسية بتدبير من أبي الهدى أو من جواسيس السلطان عبد الحميد ، وقال الأستاذ الغزى في مجلة الحديث : « كان وفاته كانت متوقعة . لأنها لم تمض عليها يوم أو بعض يوم إلا

وقد اتصلت بسامع السلطان عبد الحميد ، وعلى الفور أصدر إرادته إلى السيد عبد القادر القباني — صاحب جريدة ثمرات الفنون التي كانت تصدر في مدينة بيروت — لأن مهبط سريعاً ويقصد محل إقامة السيد ويحرز جميع ما يحده من الأوراق ويرسلها إلى المابين ..

وما كان أحد في ذلك العصر ليستبعد هذه الفعلة وأمثالها على المتهين بها ، ولكن تحقيق الخبر للتاريخ لا يكفي فيه مظنة السوء ، وأرجح الأقوال في هذا النبأ ما كتبه الأستاذ محمد لطفي جمعة في مجلة الحديث (١٩٣٧) إذ يقول إنه « ذهب ضحية ذبحة صدرية » .. ويؤيد هذا القول ما شعر به الفقيه من أعراض الذبحة كوجع النراع وألم الجنب الأيسر ، وما جاء في النبأ الأخير عن إصابته بنوبة قلبية خفيفة تلتها نوبة الوفاة ، وربما كان للإعباء من أثر القيء فعله في تحريك عوارض النوبة وتعجيل القضاء المحتوم .

وما كان باليقين الذي لا ظن فيه ، إلا ضحية الخيانة والظلم فيما تجنيان عن داء يفعل في النفوس ما تفعله السموم في الأبدان .

وصرحه بالقاهرة في مثواه الأخير بباب الوزير ، نقلته إليه مصباحة التنظيم بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة ، وعلى صفحاته المرمرة هذان البيتان لحافظ إبراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط النوى هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرعوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكب

الكتاب الثاني

نَعْلَمُ

برنامج إصلاح

فـكـرـ الـكـواـكـبـيـ كـيـرـاـ ، وـأـطـالـ التـفـكـيرـ ، فـيـ جـمـيعـ الـمـسـائـلـ الـىـ يـبـحـثـ عـلـيـهـ دـعـوـتـهـ إـلـىـ إـلـاصـلـاحـ ، وـهـىـ دـعـوـةـ مـحـيـطـةـ بـشـئـونـ الشـرـقـ إـلـاسـلـامـ بـفـيـ زـمـنـهـ عـلـىـ إـلـاجـمـالـ ، وـشـئـونـ الشـرـقـ الـعـرـبـىـ عـلـىـ التـعـصـيـصـ ، وـلـيـسـ مـنـ الدـعـوـاتـ الـىـ تـتـجـهـ إـلـىـ نـاـحـيـةـ وـاحـدـةـ أـوـ تـنـحـصـرـ فـيـ جـزـءـ مـنـ أـجـزـاءـ الـحـيـاةـ الـعـامـةـ الـىـ تـتـفـرـقـ الـعـنـيـةـ بـهـاـ بـيـنـ أـشـتـاتـ مـنـ الـمـصـلـحـينـ .

وـقـدـ نـهـجـ فـيـ دـعـوـتـهـ مـنـهـجـ الـعـلـمـ الـتـجـيـريـ أـوـ الـفـلـسـفـةـ الـعـمـلـيـةـ ، فـنـظـرـ فـيـ جـمـيعـ الـعـلـلـ وـقـدـرـ جـمـيعـ الـوـجـوهـ ، وـاعـتـمـدـ الـبـحـثـ فـيـ تـلـكـ الـعـلـلـ مـنـ نـاـحـيـةـ الـنـفـيـ وـنـاـحـيـةـ الـإـثـبـاتـ ، فـلـاـ يـرـالـ بـالـعـلـةـ الـمـقـدـرـةـ يـتـبـعـ أـعـرـاضـهـ وـيـسـتـفـهـ آـثـارـهـ وـيـرـىـ أـيـنـ مـكـانـ الصـوـابـ فـيـ تـطـبـيقـهـ عـلـىـ الـوـاقـعـ وـتـفـسـيرـهـ بـالـرـأـيـ ، وـأـيـنـ مـكـانـ التـفـصـىـ الـذـىـ تـقـصـرـ فـيـهـ عـنـ تـفـسـيرـ الـوـاقـعـ وـمـوـافـقـةـ الـأـحـوـالـ .

وـيـلـدـوـ لـنـاـ مـنـهـجـهـ فـيـ التـفـكـيرـ وـالـمـرـاجـعـةـ مـنـ أـسـاوـبـ كـتـابـيـهـ الـلـذـيـنـ عـرـضـ فـيـهـمـ آـرـاءـهـ فـيـ عـلـلـ الـضـعـفـ وـشـفـعـهـ بـمـاـ يـقـرـرـهـ لـعـلـاجـ ذـلـكـ الـضـعـفـ وـالـوقـوفـ يـهـ عـنـدـ حـدـهـ وـاستـهـصـالـ أـسـيـابـهـ وـدـوـاعـيـهـ .

فـهـوـ فـيـ كـتـابـ «ـ أـمـ الـقـرـىـ »ـ يـخـتـارـ أـسـلـوبـ الـمـسـاجـلـةـ بـيـنـ طـائـفـةـ مـنـ أـحـصـابـ الـآـرـاءـ لـيـعـرـضـ عـلـىـ لـسـانـ كـلـ مـنـهـمـ وـجـهـةـ نـظـرـ يـشـرـحـهـاـ مـنـ جـانـبـهـ وـيـتـلـقـيـ الرـدـ عـلـيـهـ مـنـ مـخـالـفـيـهـ ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـعـلـلـ الـضـعـفـ بـالـجـهـلـ وـمـنـ يـعـلـلـهـ بـالـفـقـرـ أـوـ يـعـلـلـهـ بـالـاسـتـبـادـ أـوـ يـعـلـلـهـ بـالـخـورـ وـالـجـنـ وـفـسـادـ الـأـخـلـاقـ ، أـوـ يـعـلـلـهـ بـالـتـوـاـكـلـ وـالـتـسـلـيمـ لـلـمـقـادـيرـ ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـلـقـيـ التـبـعـةـ فـيـهـ عـلـىـ الـأـمـرـاءـ أـوـ عـلـىـ الـعـلـمـاءـ أـوـ عـلـىـ الـخـاصـةـ دـوـنـ الـعـامـةـ ، أـوـ عـلـىـ الـعـامـةـ دـوـنـ الـخـاصـةـ ، وـيـعـودـ بـالـلـائـةـ تـارـةـ عـلـىـ الـمـسـاـمـيـنـ وـتـارـةـ عـلـىـ أـعـدـاءـ إـلـاسـلـامـ .ـ ثـمـ يـتـرـاءـيـ

للقارئ من بين مطاراتح الأفكار ومذاهب المخوار مبلغ كل علة من الأثر ومبني كل أثر من الأصلية فيضرر ، ومبني الاشتراك بينها في التأثير ، وأيضاً أحق بالابتداء أو أحق بالإرجاء .

ولأنما يطلع القارئ في الواقع على رأى مفكر واحد يذهب بالنظر في شئ مذاهبه ويراجع نفسه فيما يعن له من خواطره التي طرأت له فامتحنها وثبت عليها أو عدل عنها .

أما أسلوبه في كتاب « طبائع الاستبداد » فهو أسلوب التقسيم واستيفاء الكلام على كل موضوع من الموضوعات ، أخذًا ورداً ، وشحًا واستدراكاً ، وتقليلًا للفكرة على وجوهها ، كما تطورت في ذهن صاحبها وتقدمت بين بداعتها ونهاية التفكير فيها ، وكل موضوع من موضوعات الكتاب عن الدين أو عن المجد أو عن العلم أو عن المال أو عن السياسة فهو مبحث مفروغ منه بين جوانب المناقشة وخواطر الظن والاستدراك وأدلة التشكيل والتفسير ، مما ينم على بحث طويل في ذلك الموضوع لم يقف عند سوانحه الأولى من الظن العاجل والرأى القطير .

فناليسير — من أجل هذا — أن نسمى دعوة الكواكبى فلسفه اجتماعية أو نسمى مذهبًا فلسفياً ينتمي بين مذاهب الحكام المصلحين ، لأنها استلزمت من تفكير صاحبها كل ما يستلزم مذهب الفيلسوف من التحقيق والرواية والمراجعة والتوفيق بين النقائض ووجه الاعتراف .

ولكتنا لم نشأ أن نسمى فلسفة ولا مذهبًا فلسفياً كسائر المذاهب التي عرفت بأسماء أصحابها أو بعناوين موضوعاتها ، لأن الدعوة هنا عمل يزيد على التفكير ، ولا ينتهي عند مجرد التفكير .

فالدعوة التي تسمى « فلسفه » تدور على البحث والنظر ثم ترك العمل على قواعدها لمن يؤمن بها ويقدر على تطبيقها ، وقد يكون البحث فيها مطلقاً غير محدود بزمن من الأزمنة أو بلد من البلدان ، ولكنه يرسل

على إطلاقه كما ترسّل القوانين الرياضية لمن يخترع لها أدواتها ويوفّق بينها وبين مطالبه . فهي فكرة معلقة على زمن مجهول و المجال غير محدود .

ولا نحسب أننا نسمى دعوة الكواكبى باسمها الصحيح إذ أسميناها « مذهبًا فلسفياً » لنقول إنها هي « مذهب الكواكبى » في الإصلاح . فإن المأثور عن المذاهب أنها طريق يقابل طريقاً آخر أو طريقاً متعددة لتوضيح رأى أو تنفيذ عمل ، ودعوة الكواكبى قد بلغت إلى مرحلة وراء المذهب ووراء الاختلاف عليه وجاوزت المذهب إلى القرار الذى يوضع موضع التنفيذ ولا يعوقه عنه إلا أن يتولاه العاملون .

صاحب « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » لا يعرض لنا فكرة معلقة على مجال مجهول ، ولا يعرض لنا مذهبًا تقابله بمذهب يعقب عليه ، ولكنه يعرض لنا « بر ناجاً » يتبعه عمل ، وقراراً تنتهي إليه مذاهب الخلاف .

* * *

إن ذلك المنهج « العملي » هو أجرد المنهاج أن ينتظر من عقل كعقل الكواكبى فيما ورثه من استعداد الفطرة وفيما تعوده بتربيته وعمله ، فإنه نشأ في بيته لم تزل من قديم الزمان ملتقى لحركات النشاط والدأب من أنحاء العالم ، وتربي في أسرة تعرف الصناعة كما تعرف تكاليف الرئاسة الدينية والدينوية ، وتولى أعمال الإدارة والتنظيم في كثير من الوظائف التي يناظرها تنفيذ الخطط وإعداد المشروعات للتنفيذ ، وكاد أن يكون كل تقرير كتبه بر ناجاً لعمل يؤديه أو « مشروعًا » لبر ناج يفتح تنفيذه على غيره .

ونكاد نجزم بأنه يقى في حلب قبل هجرته الأخيرة منها لأنه لم يكن قد فرغ من التفكير ولم تقرر في ذهنه فكرة صالحة للإنجاز أو صالحة للقناع غيره بإنجازها . فلما نضجت في ذهنه هذه الفكرة وحصل في يديه بر ناج العمل لم يكن في طاقته أن يبقى بعد ذلك ولو ثبات له في بلده أسباب البقاء . لأن بقاء المصلح العامل ولديه خطة محضره للعمل

خليق أن يقلقه أشد من قلق الخوف والخطر ، وحبس القواه الجياشة بالحركة أشد من حبس القيد والاعتقال ، وقد يكون غريباً من رجل غير الكواكب أن يمكث في بلده ويؤلف الكتب التي تهدده في مأمه ، بل تهدده في حياته ، ولا يخطر له أن يعتقد العزم على الهجرة إلى بلد آخر يسطر فيه ما يدور في خاطره وهو من على نفسه وعلى ثراث تفكيره .

ذلك غريب من رجل غير الكواكب قد يقنع بالتفكير ويحسب أنه لباب دعوته التي يتمم بها رسالة حياته ، فإذا خطر له أن ينجو بثالث الرسالة من الخطر أو المصادر نجا بها وهي خاطر في ذهنه قبل أن يجري بها القلم فكرة مسجلة على ورق مقروء .

أما الرجل العامل بفطرته فالتفكير عنده تمهيد لرسالته ينتهي فينهى معه القرار وتبدا الحركة ، وإنه ليفكر ويراجع فكره ويستطيع القرار على التفكير والمراجعة إلى أن يتحول الفكر إلى برنامج مفصل وخطة محدودة ، ويومئذ لا قرار ولا انتظار .

فلما عقد النية على الهجرة خرج من بلده وفي جعبته ذلك البرنامج المحيط بكل جزء من أجزاء الدعوة وكل مقصد من مقاصد الإصلاح .

خرج من بلده وفي جعبته الرسالة التي يخشى عليها ، وغاية ما تحمله من الحيطة أذه لم يعلن اسمه مع إعلان تلك الرسالة ، ولعله أثر الكتمان لأنه أعون له على الحركة والتنقل بين الأقطار ، وأستر له ولمن يتحرجون من لقائه إذا انكشفت مقاصده وتبين العاجل والآجل من نياته ومساعيه ، ولا بد من مثل هذه الحيطة في دور الاستطلاع وجس النبض ووزن المخطى بين العجلة والأنا .

وأياً كان النص الذي انتهت إليه عبارة المؤلف في كتابية الباقيين لقد كانت أعمال الإصلاح كما ينبغي أن يتولاها العاملون متى صحت غزيمتهم عليها ماثلة أئمماً بصيرته جلية المعالم في خلده ، بعضها مسروح

حسب في إيجاز وسهولة ، وبعضاً منها مذكور كما تذكر رؤوس المسائل للعودة إليها والإفادة فيها ، ولكنها تكفي بتفصيلها وإجمالها لتنسيق برنامج العمل والإحاطة بأصوله وفروعه فيها يشمله الإصلاح من شئون الدين والدنيا .

وما من شيء يعزز البرنامج الذي يحيط بطالب الإصلاح في مسائل الدين والدولة ومسائل السياسة والأخلاق ومسائل الثقافة والثروة الاقتصادية والتربيـة الاجتماعية ، وهذه هي المسائل التي احتواها الكتابان على تفصيل أو إجمال ، وعلى جلاء وثقة فيها فصل وفيها أجمل . ومن هذين الكتابين نستخلص ذلك البرنامج الخالق بغير كلفة ولا مشقة ، ونؤثر أحياناً أن نعتمد على عبارة المؤلف مخالفة على منهجه وإثباتاً لما يتخلل السطور من مقاصده ونياته .

وسنرى بعد الإحاطة بأراءه ومقرراته أن دعوة هذا المصلح العامل تنتظم في عداد « الفلسفات » التي اشتهر بها حكماء الإصلاح والنظر ، ويصبح أن تسمى بالفلسفة الكواكبية في سياق المذاهب والأراء التي تنسب إلى أصحابها من الحكماء ، وإنما يختار لها اسم « البرنامج » لأن فيها مزية ليست في مذاهب الفلسفة : إذ هي فلسفة محضرة للعمل ، بلغة في باب الأعمال ، لأنها توافق مقتضى الحال .

الذين

يتلخص الإصلاح الديني عند الكواكبي في تحرير الإسلام من الجمود والخرافة .

وأخطر آفات الجمود عنده أنه جعل المسلمين صورة مقلدة ونسخة مستعارة ، فهم مسلمون للنمة أصلافهم وليسوا بال المسلمين للنمة أنفسهم ، وهم مسلمون بالتبعية وليسوا مسلمين بالأصلالة ، يدينون بالإسلام انتقاداً منهم لمن تقدمهم ولا يحسبون أنهم أهل للخطاب على حدتهم ، وقد صدق فيهم ما نعاه الكتاب المبين على القائلين : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنما على آثارهم مقتدون » .

وعلاج هذه الآفة أن يعاد بالدين إلى بساطته الأولى التي يسرت فهمه لمن تقبلوا دعوته في صدر الإسلام ولا تزال تيسره لمن يدعون إليه على بساطته وسهولته بين أبناء الشعوب الفطرية .

ومن واجب المسلمين في كل زمان أن يفهموا دينهم وأن يعرفوا حكمه فرائهم وعقائدهم ، فليس من الإيمان الصحيح أن يحال الفهم على من سلف وأن ينقاد الخلف كله لغير ما عرف ، ولا يمكن إيمان المسلم بغير الفهم والاجتهد في كل موطن من العالم وفي كل حقبة من الزمان ، فإن تعذر اجتهد المسلمين جميعاً فقيام العلماء بأمانة الإجتهد فرض كفایة لا يسقط عن جيل من أجيالهم ولا سلامة لمن يسقطونه عن أنفسهم .

ولا يعني المقلد من الفهم الذي هو قادر عليه . فإن « العامة يهدىهم العلماء مع بيان الدليل بقصد الإقناع . فالعلماء لا يحررون على أن يفتوا في مسألة مطلقاً ما لم يذكروا معها دليلاً من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، حتى لو كان المستفتى أعمى أمياً لا يفهم ما الدليل ، وطريقهم هذه .

هي طريقة الصحابة كافة والتابعين عامه والأئمة المحبدين والفقهاء الأولين من أهل القرون الأربعه أجمعين ». .

وللمقلد أن مختار بين أقوال المحبدين ولا حرج عليه ، « فإن البعض وصفوا المقلد لأحد المذاهب إذا أخذ في بعض الأحكام بمذهب آخر ملتفقاً ، واستعملوا لفظة التلفيق في مقام التلاعيب بالدين أو الترقيق القبيح . والحال ليس ما سموه بالتلتفيق إلا عن التقليد من كل الوجوه ، ولا بد لكل من أجاز التقليد أن يحيزه . لأنه إذا تأمل في القضية يجد القياس أنه هكذا يجب على كل مسلم عاجز عن الاستهداء في مسألة دينية بنفسه ويسأل عنها أهل الذكر وعلى هذا الاعتبار ما المانع للمسلم المقلد أن يتعلم كل مسألة من الطهارة والغسل والوضوء والصلة من مجتهد أو فقيه تابع لمجتهد ؟ ولا يعقل أن يكلف هذا المقلد بأخذ دينه كله من عالم واحد . لأن الصحابة رضي الله عنهم مع اجتهدتهم وتخالفهم في الأحكام كان يصلى بعضهم خلف بعض مع حكم المؤتمم منهم حسب اجتهداته بعدم صحة صلاة إمامه ^(١) » .

• • •

ويرى الكواكبى بحق ، أن الجمود والخرافة لا محل لها بين أتباع دين متسم بالوساطة والجلاء يأخذه خاصتهم وعامتهم مأخذ الفهم والبيئة على حسب عقولهم ومصالحهم ، فإن التدين على هذا العرف بثابة بعثة متعددة يتلقاها المسلمون أبداً وكأنهم هم المسلمون الأولون جيلاً بعد جيل •

ولم يغفل الكواكبى عن خطته العملية لتحقيق الإصلاح في هذا الباب . فإنه يذكر صفة العالم الذى يوكله علمه للاجتهد بالرأى والإقناع بالدليل ، ويذكر موضوعات الكتب ودرجات هذه الموضوعات التي

(١) أم القرى . مسلم . ح . ٢٠٢٣ . كتاب الصلوة . فصل . وبيان حكم صلاة إمامه .

يتكتل علماء الإسلام بنشرها العمل بها أو لقائده المقلدين على تفاوتهم في القدرة على الاستفادة من المطالعة والمراجعة .

فينبغى للعالم الحميد :

« أولاً » أن يكون عارفاً باللغة العربية المصرية الفرمدية بالتعلم والمزاولة معرفة كفاية لفهم الخطاب لا معرفة إحاطة بالمفردات ومجازاتها وبقواعد الصرف وشواذه والنحو وتفصيلاته والبيان وخلافاته والبديع وتتكلفاته مما لا يتيسر إتقانه إلا لمن يفني ثلث عمره فيه ، مع أنه لا طائل تتحققه ولا لزوم لأكثره إلا لمن أراد الأدب .

« ثانياً » أن يكون قارئاً كتاب الله تعالى قراءة فهم للمبادر من معاني مفرداته وتراسيمه مع الاطلاع على أسباب النزول ومواعيـ الكلام من كتبـ المدونـة المأخوذـةـ منـ السنـةـ والـآثارـ وـتـفـاسـيرـ الرـسـولـ عـلـيـهـ الصـلـوةـ والـسـلـامـ أوـ تـفـاسـيرـ أـصـحـابـهـ عـلـيـهـمـ الرـضـوانـ ، وـمـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ آـيـاتـ الـأـحـكـامـ لـاـ تـجـاـوزـ الـمـائـةـ وـالـخمـسـينـ آـيـةـ عـدـاـ .

« ثالثاً » أن يكون متضلعـاً في السنـةـ النـبـوـيـةـ المـدوـنـةـ عـلـىـ عـهـدـ التـابـعـينـ وـتـابـعـهـمـ أوـ تـابـعـىـ تـابـعـهـمـ فـقـطـ . بـدـوـنـ قـيـدـ بـمـائـةـ أـلـفـ أـوـ مـائـىـ أـلـفـ حـدـيـثـ ، بـلـ يـكـفـيـ ماـ كـنـىـ مـالـكـاـ فـيـ مـوـطـأـ وـأـحـمـدـ فـيـ مـسـنـدـهـ ، وـمـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ أـحـادـيـثـ الـأـحـكـامـ لـاـ تـجـاـوزـ الـأـلـفـ وـخـمـسـيـةـ حـدـيـثـ أـبـدـاـ .

« رابعاً » أن يكون واسع الاطلاع على سيرة النبي ﷺ وأصحابه وأحوالهم من كتب السير القديمة والتاريخ المعتبرة لأهل الحديث كالحافظ الذهبي وابن كثير ومن قبلهم ، وكابن جرير وابن قتيبة ومن قبلهم كذلك ، والزهري وأضرابهم .

« خامساً » أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليميين والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيئاغورية وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزارات المعزلة وإغربات الصوفية وتشدیدات .

الخوارج ونخريجات الفقهاء المتأخرین وحشويات الموسویین وترزیقات المرائین وترزیقات المدلسین .

وعلى العلماء الحجهدين أن ييسروا لكل من المقلدين أن يأخذ من أحكام الدين ما هو أهل لفهمه حسب طاقته . فيقسمون المسائل « على مراتب في متون مخصوصة فيعتقدون لكل مذهب من المذاهب كتاباً في العبادات ينقسم إلى أبواب وفصول تذكر في كل منها الفرائض والواجبات فقط . وتنطوى ضمنها الشرائط والأحكام بحيث يقال إن هذه الأحكام في هذه المذاهب هي أقل ما تجوز به العبادات ، ويعتقدون كتاباً آخر ينقسم إلى عين تلك الأبواب والفصول تذكر فيها السنن بحيث يقال إن هذه الأحكام ينبغي رعايتها في أكثر الأوقات . ثم كتاباً ثالثاً مثل الأولين تذكر فيه سنن الزوائد بحيث يقال إن هذه الأحكام رعايتها أولى من تركها . وعلى هذا النسق يوضع كتاب للمنتهيات يقسم إلى أبواب وفصول تعدد فيها المكررات والكبائر وكذا الصغار والمكرورات ، ومثل ذلك تقسم كتب المعاملات على طبقات من الأحكام الإجماعية أو الاجتهادية أو الاستحسانية . وبمثل هذا الترتيب يسهل على كل من العامة أن يعرف ما هو مكلف به في دينه فيعمل به على حسب مراتبه وإمكانه . وبهذه الصورة تظهر سماحة الدين الحنيف ^(١) .

• • •

ويؤخذ من جملة الشروح والمساجلات في كتابي « أُم القرى » و « طبائع الاستبداد » أن الكواكب يهم أشد الاهتمام بإغلاق الباب على طوابع الوسطاء الخرافين في المسائل الدينية ، إذ لا منفذ لواسطة الوسطاء في دين يعرفه الحجهدون من أتباعه في كل زمان ، ويعرفه المقلدون على بساطته الأولى مع السؤال عن الدليل الواضح عند التباس الأمر عليهم بين المباح والممتنع .

(١) أُم القرى .

ولكن هؤلاء الوسطاء يكثرون ويتشعبون حيث يحاط الدين بالخفايا والأسرار ويتواري خلف حجب الغموض والتهويل ويمتنع فيه الاجتهد بالدليل والسد المعلوم ، ومن ثم تنجم الحاجة إلى الوسطاء من أشباء الكهان وأدلياء الخوارق والكرامات ، من يستغلون الدين لخدمة أنفسهم أو لخدمة الحاكمين الممسخرين لهم على سنة التبادل في المنفعة والتعاون على التضليل وقيادة الرعية المستسلمة بالتحويه والتضليل .

قال الأستاذ من فصل الاستبداد والعلم : « إن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل فإذا ارتفع الجهل زال الخوف انقلب الوضع ، أى انقلب المستبد رغم طبعه إلى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام » .

واستغلال الجهل على ضروب تتسع فيها الحيلة لطوائف شتى من المشعوذين والدجالين وأصحاب المحر والتعاويذ من تروج بضاعتهم مع الغفلة والريبة وتنكشف حقيقتهم مع الفهم والحرية ، ومنهم علماءسوء وأدعية التصوف والعبادة وأشياهم من المدرسون الذين يسمون أنفسهم بأهل الباطن وينهم أن يجعلوا السر حكراً ، ليستأثروا لتجارته ويساوموا عليه في أسواق المطامع والدسائس مساومة الغبن والخداع .

قال من فصل الاستبداد والدين في طبائع الاستبداد : « إن قيام المستبددين من أمثال أبناء داود وقسطنطين في تأييد نشر الدين بين رعایاهم ، وانتصار مثل فيليب الثاني الأسباني وهنري الثامن الإنجليزي ... والحاكم الفاطمي والسلطان الأعاجم المتصررين لغلاة الصوفية والبانين التكايا لم يكن ذلك كله إلا بقصد الاستعانتة بالدين أو بأهل الدين على ظلم المساكين » .

ويرى الكواكبى أن المتشددين من رجال الدين مسؤولون كالحكام المستبددين عن شيوع التصوف الفاسد بين العامة وأشباء العامة من المسلمين المتقدمين والتأخرىن ، لأنهم جعلوا الدين حرجاً ثقيلاً على

النفوس فهدوا الطريق لمن يبيحون المظورات باسم العلم « الباطن » والمعروفة الخفية التي ترفع التكليف عن الواصلين إلى الهدایة من غير طريق الشريعة الظاهرة ولو لا العنت المرهق من أولئك المتشددين لما راجت سوق التصوف المكذوب ... قال بلسان الشيخ السندي : « فبناء على هذا التضييق صار المسلم لا يرى لنفسه فرجاً إلا بالاتجاء إلى صوفية الزمان الذين يهونون عليه الدين كلّ التهونين ، وهم القائلون إن العلم حجاب ، وبلمحة تقع الصلححة ، وبنظره من المرشد الكامل يصير الشق ولباً ، وبنفخة في وجه المريد ، أو تفلة في فه ، تطيعه الأفعى وتحترمه العقرب التي لدغت صاحب الغار عليه الرضوان ، وتدخل تحت أمره قوانين الطبيعة ، وهم المقررون بأن الولاية لا ينافيها ارتکاب الكبائر كلها إلا الكذب ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراف يوجب الحرمان ، أى أن تحسن الظن بالفساق والفحار أولى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى غير ذلك من الأقوال المهونة للدين والأعمال التي تجعله نوعاً من اللهو الذي تستأنس به نفوس الجاهلين » .

قال : « على أن الناس لو وجدوا الصوفية الحقيقيين . وأين هم ؟ ... لفروا منهم فرارهم من الأسد . إذ ليس عند هؤلاء إلا التوسل بالأسباب العادلة الشاقة لتطهير النفوس من أمراض إفراط الشهوات وتصفيتها القلوب من شوائب الشره في حب الدنيا وحمل الطباائع بوسائل القهقر والمرترين على الاستئناس بالله وبعبادته عوضاً عن الملاهي المضرة ، طلباً للراحة الفكرية والعيشة الهنية في الحياة الدنيا ، والسعادة الأبدية في الآخرة . وأين التهويين السالف البيان لصوفية الزمان من هذه المطالب التهذيبية ؟ .

على أن مصلحنا العامل قد نجح به إيمانه من تلك النظرة الضيقة التي تغلب على كثير من المصلحين الواقعين الذين يقترون نظرائهم إلى الإصلاح الديني على الشعائر وظواهر العبادات كدلينتهم في الاهتمام

ـ بما تقع عليه المشاهدة وبحصره الحس والاكتفاء به عما وراءه من طوابيا
ـ النفس وكوامن الصغير .

ـ فلم يكن « الكواكب » مصلحاً دينياً على هذا النحو الضيق المحدود ،
ـ بل كانت عنایته بالشعائر والظواهر المحسوسة سبلاً إلى تصحيح جوهر
ـ الدين في أصوله التي انطوت عليها الطبائع الإنسانية ، وكان إيمان
ـ الصغير عنده هو قوام الدين كلّه ، وفضيلة الإسلام في اعتقاده أنه
ـ دين الإيمان على خلاف أديان المراسيم والتقاليد التي أفسدتها الوثنية وبقاياها
ـ فأوشكت أن تصبح كلّها أشكالاً وصوراً مجردة من روح العقيدة
ـ وهدایة الإلهام .

ـ فإذا انقسمت الديانات إلى ديانات إيمان وديانات مراسيم وتقاليد
ـ فالإسلام في طبيعة الديانات التي يغلب فيها الإيمان على المراسيم الشكلية
ـ والتقاليد النقلية وتفتح الباب على مصراعيه لوساطة الكهان وسلطان
ـ المياكل والخاريب .

ـ وفي غير موضع من مساجلاته يذكر هذا الإيمان الأصيل في البديهة
ـ الإنسانية فهو تارة « ناموس شريف واحد موعظ في فطرة الإنسان » ، وهو
ـ إذعانه الفطري للقوة الغالبة ، أي معرفته الله بالإلهام الفطري الذي هو
ـ إلهام النفس رشدها وإلهامها فجورها وتقواها . ولا ريب أن هذه
ـ الفترة الدينية في الإنسان علاقة عظمى بشئون حياته لأنها أقوى وأفضل
ـ وازع يعدل سائر نواميسه المضرة ويخفف مرارة الحياة التي لا يسلم منها
ـ ابن أثني .. .

ـ ويعود بعد قليل فيقول : « إن النوع الإنساني مفطور على الشعور
ـ بوجود قوة غالبة عاقلة لا تتكيف تصرف في الكائنات على نواميس
ـ متناظمة ... وإن هذا الشعور يختلف قوة وضعفاً حسب ضعف النفس
ـ وقوتها ويختلف الناس في تصور ماهية هذه القوة حسب مراتب الإدراك
ـ فيهم أو حسبي يصادفهم من التلقى عن غيرهم . وذلك هو الفيلال

رواهداية .. على أن الصالل غالب لأن موازين العقول البشرية مهما كانت واسعة قوية لا تسع ولا تتحمل وزن جبال الأزلية والأبدية .. » .

ثم يقول بعد استطراد : « إن أصل الإيمان بوجود الصانع أمر فطري من البشر كما تقدم ، فلا يحتاجون فيه إلى الرسل وإنما حاجتهم إليهم في الاهتداء إلى كيفية الإيمان بالله كما يحب من التوحيد والتزيه » .

وقد ثبت عنده كما قال : « ما يقرره الأخلاقيون من أنه لا يصح وصف صنف من الناس بلا دين لهم مطلقاً . بل كل إنسان يدين بدين إما صحيح أو فاسد من أصل صحيح ، وإما باطل أو فاسد من أصل باطل ... » .

ومن ثم يتلخص كل إصلاح ديني نهض به الكواكب في تصحيح الإيمان واعتبار الشعائر والفرائض آية على صحة الإيمان ، تدل على سلامته بمقدار سلامتها من تشويهات الوثنية وعوارض الشرك والزيف عن الوحدانية ، ولا بقاء للظلم والفساد مع هذا الإيمان ، ولكنها قد يقىان ويطول بقاوتها مع قيام الشعائر التي فارقتها روح الدين ولم يختلف منها غير الرسوم والأشكال .

قال في كلامه عن الاستبداد والترقى في طبائع الاستبداد : « ولا يتجهلون أن كلمة الشهادة والصوم والصلة والحج والزكاة كلها لا تغنى شيئاً مع فقد الإيمان ، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر قياماً بعادات وتقليدات وهوسرات ، تضييع بها الأموال والأوقات » .

• • •

هذا الإيمان هو قوة الإسلام ، وهو يبعث الغيرة التي تثير المؤمن على إلغي والغشم لأنهما استعباد يأنف منه من يرفض العبادة لغير الله .

ولهذا يعقب الكواكب بعد تلك العبارة قائلاً : « إن الذين يكلفكم إن كنتم مسلمين ، والحكمة تلزمكم إن كنتم عاقلين ، أن تأمروا بالمعروف ولهم ما ينهاكم عنه بغير حق » . (الكواكب)

وتهوا عن المنكر جهدهم ، ولا أقل في هذا الباب من ليطانكم البغضاء
للظالمين والفاسقين » .

ومنما يذكر من محاجات الإصلاح الديني في عصر الكواكبى بصفة
خاصة أن أزمه لم تكن أزمة إصلاح ولا أزمة شعب يعاني مشكلاته
الاجتماعية من هذه الناحية . ولكنها كانت أزمة الدين نفسه ، بل أزمة
العقيدة الروحانية على اختلاف الأديان في بلاد الحضارة . لأنها كانت
أزمة الاصطدام بين الدين والعلم من أواخر القرن الثامن عشر إلى
الحقبة التي نشأ فيها الكواكبى في القرن الذى تلاه ولاحقته آثاره ولم
ترحل تلاحمه إلى أخريات أيامه في أوائل القرن العشرين .

وقد اصطدمت العقائد الدينية في الغرب بكشف العلم الحديث
ومذاهب التفكير العصرية فاضطربت الأفكار وشاعت الشكوك وانزع
الكثرون من الناشئين إلى التعطيل وإنكار الدين واقرern الإنكار بإباحة
المحرمات والترخيص في الشهوات والاسترخال مع غواية الحياة المادية التي
وافقت أهواء المنكرين ، فخليل إلى الناس في أمم الحضارة الغربية أن
الدين مسألة مفروغ منها قد لحقت بها آثار القرون الغابرة وأن التحدث
عن الإصلاح الديني مشغلة فراغ يضيع فيها الوقت على غير جدوى .

وأقربت هذه الصدمة من الشرق مع اقتراب العلوم الحديثة
والدعوات الاجتماعية المتطرفة فكان لها أثراً طبيعياً بين المسلمين
وغيرهم من الشرقيين على حسب نصيبهم من العلم العصري والتربية
الدينية وتقاليد المعيشة البيتية .

فن المتعلمين على النظم الأوزرية طائفة أخذت بالقشور من العلم
الحديث وقل نصيبها من معرفة الدين واسهواها حب التشبه بالأقواء
الظالفيين وخلبها فتنة الحضارة وزخرف الحياة المادية فتحللت من أواصر
دينها وهان عليها أمر العقيدة وأمر الوطن فلم يبق لها من الغيرة الدينية
ولا من النخوة القومية غير المظهر والعنوان .

والكواكب ينفضن يديه من هذه الطائفة ولا يترجى منها خيراً لإصلاح دينها ولا لإصلاح دنياها ، وفيها يقول من كلامه في الاجتماع الثامن من مؤتمر أم القرى : « وأما الناشئة المترنجة فلا خير فيهم لأنفسهم فضلاً عن أن ينفعوا أقوامهم وأوطانهم ، وذلك لأنهم لأخلاق لهم ، تتجادل بهم الأهواء كيف شاءت ، لا يتبعون مسلكاً ولا يسرون على ناموس مطرد ، لأنهم يحكمون الحكمة فيفتخرون بدينهم ولكن لا يعملون به تهاوناً وكلاً ، ويرون غيرهم من الأمم يتباهون بأقوامهم فيستحسنون عاداتهم وميزاتهم فيميلون لمناظرهم ولا يقوون على ترك الفرج كأنهم خلقوا أتباعاً ، ويجدون الناس يعشقون أوطانهم فينادفون للتشبه بهم في التشبيب والإحسان فقط دون التثبت بالأعمال التي يستوجبها الحب الصادق ، والحاصل أن شئون الناشئة المترنجة لا تخرج عن تذبذب وتلون ونفاق يجمعها وصف لأخلاق ... والواهنة خير منهم متمسكون بالدين ولو رباء ، وبالطاعة ولو عمباء » .

والجامدون الذين سهاموا بالواهنة وقال عنهم لهم متمسكون بالدين ولو من قبيل الرياء ، يفترقون إلى فريقين بين جاحد لا يعرف شيئاً من العلم الحديث ولا من علوم دينه ، ومتعلم درس الدين على أستاذة من المقلدين مزجوا الدين بالخرافة ولم يسلموا من علل الوهن والتفاق ، وكلا الفريقين يجهل علوم دينه كما يجهل علوم عصره وتصدره هذه العلوم الحديثة صدمة الجديـد المستغرب فينفر منها ويتبرم بها ويختـرها حذره من الكفر البوـاح ، ولا يكلف نفسه مئنة البحث ، لأن مجرد البحث فيها مدرجة إلى الكفر وأحـبـلـةـ من أحـبـيلـ الصـلـالـ .

وهـذهـ الطـائـفـةـ هـيـ «ـ المـصـابـ »ـ الـذـيـ يـرـادـ الإـصـلاحـ الـدـينـيـ لـتـقوـيـهـ وإنـراجـهـ منـ ظـلـمـاتـهـ ، فـلاـ أـمـلـ فيـ مـعـونـتـهـ عـلـىـ رـسـالـةـ الإـصـلاحـ .

والطائفة المثلثـيـ — وـمـنـهاـ الكـواـكـبـيـ — طـائـفـةـ الرـوـادـ السـابـقـينـ الـدـينـيـنـ أـفـلـتـواـ مـنـ إـرـهـاـقـ الـجـنـوـدـ وـتـمـرـدـواـ عـلـىـ أـوـهـاـمـ الـخـرـافـةـ وـأـطـلـعـواـ عـلـىـ حـظـ حـسـنـ مـنـ عـلـمـ الـحـدـيـثـ ، فـوـضـعـ لـهـ أـنـهـ يـرـتـهـنـ بـهـ التـقـدـمـ وـتـشـمـدـ مـنـهـ

القوة التي يصول بها الأوربيون على بلادهم ، وأنه هو العلم الذي يدعوهـمـ إـلـيـهـ كـتـابـهـ وـيـخـضـهـ عـلـيـهـ فـيـ كـلـ آـيـةـ مـنـ آـيـاتـ الـأـمـرـ بـالـتـفـكـيرـ وـالـتـدـبـيرـ وـالـنـظـرـ فـيـ مـلـكـوـتـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ وـالـعـمـلـ الصـالـحـ فـيـ سـبـيلـ الدـيـنـ وـالـدـنـيـاـ .

وـتـنـقـسـمـ هـذـهـ طـائـفـةـ أـيـضـاـ إـلـيـ فـرـيقـيـنـ :ـ أـحـدـهـماـ يـرـىـ أـنـ الـعـلـمـ الـحـدـيـثـ مـطـلـبـ مـبـاحـ بـلـ فـرـيـضـةـ وـاجـةـ تـوـافـقـ الـدـيـنـ وـلـاـ تـنـاقـصـهـ فـيـ جـمـلـهـاـ وـلـاـ فـيـ تـفـصـيـلـهـاـ .

وـالـفـرـيقـ الـآـخـرـ يـأـدـهـ بـرـاءـ هـذـاـ الـاعـتـقـادـ فـيـ الـعـلـمـ الـحـدـيـثـ خـطـوـةـ أـوـ خـطـوـاتـ ،ـ فـيـحـاـوـلـ أـنـ يـبـيـنـ مـكـانـهـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـأـنـ يـرـدـهـ إـلـيـ آـيـاتـ تـحـتـوـيـهـاـ وـتـقـبـلـ التـفـسـيرـ بـعـاـنـهـاـ ،ـ وـكـذـلـكـ صـنـعـ الـكـوـاـكـبـيـ رـحـمـهـ اللـهـ فـيـهـ كـتـبـهـ بـقـلـمـهـ أـوـ فـيـهـ أـسـنـدـهـ إـلـيـ غـيـرـهـ ،ـ وـأـفـاضـ فـيـهـ بـخـلـامـهـ بـعـدـ الـسـبـادـ وـالـدـيـنـ فـيـ طـبـائـعـ الـاسـبـادـ حـيـثـ يـقـولـ :

« .. لـوـ أـطـلـقـ لـلـعـلـمـاءـ عـنـانـ التـدـقـيقـ وـحـرـيـةـ الرـأـيـ وـالـتـأـلـيـفـ كـمـاـ أـطـلـقـ لـأـهـلـ التـأـوـيـلـ وـالـخـرـافـاتـ لـرـأـواـ فـيـ آـيـاتـ الـقـرـآنـ آـيـاتـ مـنـ الـإـعـجـازـ ،ـ وـرـأـواـ فـيـ كـلـ يـوـمـ آـيـةـ تـنـجـدـدـ مـعـ الـزـمـانـ وـالـخـدـثـانـ تـبـرـهـنـ إـعـجـازـهـ بـصـدـقـ قـوـلـهـ :ـ (ـ وـلـاـ رـطـبـ وـلـاـ يـاـسـ إـلـاـ فـيـ كـتـابـ مـبـيـنـ)ـ .

« بـرـهـانـ عـيـانـ لـاـ بـجـرـدـ تـسـلـيمـ وـإـيمـانـ ،ـ وـمـثـالـ ذـلـكـ أـنـ الـعـلـمـ كـشـفـ فـيـ هـذـهـ الـقـرـونـ الـأـخـرـةـ حـقـائـقـ وـطـبـائـعـ كـثـرـةـ تـعـزـىـ لـكـاشـفـهـاـ وـمـخـرـعـهـاـ مـنـ عـلـمـاءـ أـورـبـةـ وـأـمـرـيـكـاـ ،ـ وـالـمـدـقـقـ فـيـ الـقـرـآنـ يـجـدـ أـكـثـرـهـاـ وـرـدـ التـصـرـيـعـ أـوـ الـظـلـمـيـعـ بـهـ فـيـ الـقـرـآنـ مـنـذـ ثـلـاثـةـ عـشـرـ قـرـنـاـ ،ـ وـمـاـ بـقـيـتـ مـسـتـورـةـ تـحـتـ غـشـاءـ مـنـ الـخـفـاءـ إـلـاـ لـتـكـوـنـ عـنـدـ ظـهـورـهـاـ مـعـجـزـةـ لـلـقـرـآنـ ،ـ شـاهـدـةـ بـأـنـ كـلـامـ رـبـ لـاـ يـعـلـمـ الـغـيـبـ سـوـاـهـ .

« وـذـلـكـ أـنـهـمـ قـدـ كـشـفـوـاـ أـنـ مـادـةـ الـكـوـنـ هـىـ الـأـثـيـرـ ،ـ وـقـدـ وـصـفـ الـقـرـآنـ بـدـءـ الـتـكـوـينـ فـقـالـ :ـ (ـ ثـمـ اـسـتـوـىـ إـلـىـ السـمـاءـ وـهـىـ دـخـانـ)ـ .

« وـكـشـفـوـاـ أـنـ الـكـائـنـاتـ فـيـ حـرـكـةـ دـائـمـةـ ،ـ وـالـقـرـآنـ يـقـولـ :ـ (ـ وـآـيـةـ لـهـمـ الـأـرـضـ الـمـيـتـةـ أـحـيـيـنـاـهـاـ)ـ .ـ إـلـىـ أـنـ يـقـولـ :ـ (ـ وـكـلـ فـلـكـ يـسـبـحـونـ)ـ .

« وحققا أن الأرض منفتحة في النظام الشمسي ، والقرآن يقول : (إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتحناها) .

« وحققا أن القمر منشق من الأرض ، والقرآن يقول : (أفلا يرون أنا نأى الأرض نهضها من أطراها) . ويقول : (اقربت الساعة وانشق القمر) .

« وحققا أن طبقات الأرض سبع ، والقرآن يقول : (خلق سبع سموات ومن الأرض مثلثين) .

« وحققا أنه لو لا الجبال لاقتضى الثقل التوعي أن تميد الأرض أى ترتج في دورتها ، والقرآن يقول : (وألي في الأرض رواسى أن تميد بهم) .

« وكشفوا أن التغير في التركيب الكيماوى بل والمعنوى — ناشئ عن تخالف نسبة المقادير ، والقرآن يقول : (وكل شيء عنده مقدار) .

« وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التيلور ، والقرآن يقول : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) .

« وحققا أن العالم العضوى — ومنه الإنسان — ترقى من الجماد ، والقرآن يقول : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) .

« وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات ، والقرآن يقول : (خلق الأزواج كلها مما نبت الأرض) . ويقول : (فأنحرجنا به أزواجاً من نبات شئ) ، ويقول : (اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بحير) ، ويقول : (ومن كل الثرات جعل فيها زوجين) .

« وكشفوا طريقة إمساك النظل أى التصوير الشمسي ، والقرآن يقول : (ألم تر إلى ربك كيف مد النظل ولو شاء بجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) .

« وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء ، والقرآن

يقول بعد ذكره الدواب والجواري بالرياح : (وخلقنا لهم من مشله ما يركبون) .

« وكشفوا وجود الميكروب وتأثيره في الجدرى وغيره من المرض ، والقرآن يقول : (وأرسلنا عليهم طير أبابيل . ترميمهم بحجارة من سجيل) .. أى من طين المستنقعات اليابس .

« إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والتوصيات الطبيعية ، وبالقياس إلى ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون .. » .

• • •

هذه الفكرة الضافية عن التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث هي إحدى الأفكار الأساسية في دعوة الكواكب إلى الإصلاح في جميع تواجيه ، إذ كان الإصلاح الديني عنده غير منفصل عن إصلاح المجتمع كله في شموله الدنيوية ، وكانت فكرة ملزمة له منذ أخذ في الاطلاع على مراجع العلوم العصرية ، فإن اطلاعه على تلك الكشف التي أحصاها جميعاً لا ينم في وقت واحد ولا بد له من أوقات متتابعة يتخللها النظر والتأمل ويعود إليها بالمراجعة والمقارنة . فإن لم تكن فكرته هذه مما استوحاه في مطالعاته الطويلة فلعله قد استوحاه من دعاء التوفيق بين الدين والعلم الذين سبقوه إلى النظر في مشكلات العقيدة والتفكير منذ دعت الحاجة إلى وحدة التشريع . كما حدث في الدولة العثمانية للتوفيق بين الأقضية المختلفة التي تطبق على رعاياها حسب اختلافهم في الجنس والملة ، وسواء خطرت له فكرة الوفاق بين الإسلام والعلم الحديث ابتداء من أثر مطالعاته الخاصة أو كانت إحدى خواطر العصر الشائعة على ألسنة المستشرقين لقد تطورت في ذهنه وعاود النظر فيها حيناً بعد سنوات غير قليلة . فقد كانت في ذهنه قبل أن يكتب « أم القرى » وظلت في ذهنه إلى أن أودعها مقالاته عن طابع الاستبداد وزاد عليها ما استفاده من مطالعاته في هذه الأثناء .

وَمَا يلاحظُ أَنَّ هَذِهِ الْكَشْوَفُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي أَوْجَزَ الإِشَارَةَ إِلَيْهَا يُوْشِكُ أَنْ تُحْبِطَ بِأَحْصَاءِ كَشْوَفِ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ فِي الْمَسَائِلِ الْكُوْنِيَّةِ خَلَالِ الْقَرْنَيْنِ التَّاسِعِ وَالْعَشَرِ وَالْتَّاسِعِ وَالْعَشَرِ كَأَنَّهُ يَنْقُلُهَا مِنْ سِجْلٍ مَحْفُوظٍ، وَهِيَ مَلَاحِظَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تَنْتَبِهَ إِلَيْهَا لَنْلَمْ مِنْهَا قُوَّةَ اِنْدِفَاعِ الْأَفْكَارِ الْحَدِيثِيَّةِ إِلَى الْبَلَادِ الْشَّرِقِيَّةِ وَمِنْبَلْغُ سَرِيَانِهَا بَيْنَ مَنْ يَعْرِفُونَ الْلُّغَاتِ الْأُورِبِيَّةِ وَمَنْ يَجْهَلُهَا. فَإِنَّ الْكَوَاكِبِيَّ لَمْ يَكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِلُغَةِ مِنَ الْلُّغَاتِ الْأُورِبِيَّةِ يَسْتَفْسِيْهَا عَلَى الْمَطَالِعَةِ فِيهَا، وَلَكِنَّهُ قَرَأَ أَخْبَارَ الْكَشْوَفِ الْحَدِيثِيَّةِ وَاسْتَفْسَاهَا كَمَا يَسْتَفْسِيْهَا غَيْرُ الْمُخْتَصِّينَ بِهَا مِنَ الْأُورِبِيِّينَ أَنفُسِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ، وَتَلَكَ عَلَامَةٌ قَوِيَّةٌ مِنْ عَالَمَاتِ الْصَّدَمَةِ الَّتِي أَحْسَنَهَا الشَّرْقُ بَعْدَ هُزُونِهِ أَمَامَ الْغَرْبِ فِي غَارَاتِ الْإِسْتِعْمَارِ، وَلَنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا كَذَلِكَ عَلَامَةٌ عَلَى الْيَقِظَةِ السَّرِيعَةِ بَعْدَ تَلَكَ الْصَّدَمَةِ الْوَجِيْعَةِ، لَأَنَّ سَرِيَانَ الْفَتْوَحِ الْعِلْمِيَّةِ مَعَ الْفَتْوَحِ الْسِّيَاسِيَّةِ تَشَهِّدُ لِلشَّرْقِ شَهَادَةً حَسَنَةً بِالْقِيَاسِ إِلَى زَمَانِهَا، وَأَقْلَى مَا فِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنَّهُ تَلَقَّى الْصَّدَمَةَ مَفْتُوحَ الْعَيْنَيْنِ لِيُرَى – وَهُوَ مَنْتَبِهِ مِنْ غَفْوَتِهِ – جَهَدٌ مَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ.

وَكَانَ رَدُّ الْفَعْلِ سَرِيعًا كَمَا تَبَيَّنَ الْآَنَ مِنْ مَوْقِفِ الْكَوَاكِبِيِّ وَإِخْرَانِهِ رُوَادَ الدِّعَوَةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ. كَانَ رَدُّ الْفَعْلِ بَيْنَ مَصْلَحَى الْإِسْلَامِ أَسْلَمٍ وَأَقْوَمٍ وَأَدْعَى إِلَى الثَّقَةِ وَالرَّجَاءِ مِنْ رَدِّ الْعَنْيِفِ بَيْنَ الْأُورِبِيِّينَ: هُنَّا كَانَتْ أَزْمَةُ الدِّينِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْيَائِسِينِ، وَهُنَّا لَمْ تَكُنْ لِلَّدِينِ أَزْمَةٌ عِنْدَ عَارِفِيهِ، وَلَكِنَّهَا أَزْمَةُ الْجَهَلِ بِهِ وَبِالْعِلْمِ الْحَدِيثِ بَيْنَ أَهْلِهِ، أَوْ كَانَتْ أَزْمَةُ الْإِقْنَاعِ وَالْإِسْتِهْاضُ لِحَارِبَةِ الْجَهَلِ بِالْدِينِ الْخَالِدِ وَالْعِلْمِ الْحَدِيثِ عَلَى السَّوَاءِ.

وَيَقْتَضِيْنَا تَقْدِيرُ الْكَوَاكِبِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ نَذَكِّرَ الْفَارَقَ بَيْنَ نَظَرَتِهِ إِلَى الْعِلْمَ الْدِخِيلَةِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى الْفَكَرِ الْإِسْلَامِيِّ حَوْالَيِّ الْقَرْنِ الْثَالِثِ لِلْهِجَرَةِ، وَبَيْنَ نَظَرَتِهِ إِلَى الْعِلْمَ الْدِخِيلَةِ الَّتِي تَلَقَّاها الْمُسْلِمُونَ وَالشَّرْقِيُّونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِعَشَرَةِ قَرْوَنِ، وَهِيَ مِنْ عِلْمَ النَّهْضَةِ الْأُورِبِيَّةِ الْحَدِيثِيَّةِ،

إن هذا الفارق بين نظرة الكواكبى إلى أثر الفلسفة اليونانية وأثر العلم العصرى هو آية من الآيات العديدة على استقامة النظرة العملية فى تفكير هذا المصلح الحكيم ، لأنه يتوجه إلى الهدف المقصود بعد ثبته واثيقه منه ، ولا يهدى فكره وعزمه فيما يتشعب حوله من مطارح الظنون وأباطيل الأوهام على غير طائل ، وهدفه هنا هو الإصلاح الدينى فى تجربته العملية ، وخلاصة هذا الإصلاح الدينى أنه هو العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى ، وقوامها الأول إيمان الصميم .

فالكواكبى لا يخل — أمام هذا الهدف — بفلسفة اليونان من الوجهة النظرية ، ولا يقومها في ميزان دعوه بقيمتها في الورق أو قيمتها في رؤوس طلابها المنشطعين لها ، وإنما يحكم على أثرها في التفكير الإسلامي حين يحكم على مذاهب أتباعها من المسلمين ، وعلى أخلاق الوثنية التي اصطبغت بصبغتها واتخذت لها ألواناً من التصوف الكاذب ، ومن التعمق الأجوف الذي تأباه بساطة الإسلام :

فالفلسفة اليونانية في ميزانه هي تلك الأخلاق العقيمة التي قال عنها بلسان المحدث البيني وهو يصف العالم المجهد ويشرط فيه : « أن يكون صاحب عقل سليم فطري لم يفسد ذهنه بالمنطق والجدل التعليمين ، والفلسفة اليونانية والإلهيات الفيياغورية ، وبأبحاث الكلام وعقائد الحكماء ونزارات المعزولة وإغرابات الصوفية وتشدیدات الخوارج وتحريمات الفقهاء المتأخرین وحشويات الموسوين .. . »

وهي التي عناها حين قال بلسان البليغ القدسي عن الدخلاء : « إنهم رجعوا الأخذ بما يلائم بقابا نزعاتهم الوثنية فاتخذ العمال السياسيون — ولا سيما المتطرفون منهم — هذا التحالف في الأحكام وسائل للانقسام والاستقلال السياسي فنشأ عن ذلك أن تفرقت المملكة الإسلامية إلى طوائف متباعدة مذهبياً ، متعادلة سياسة ، متكافحة على الدوام . وهكذا خرج الدين من حضانة أهله وتفرقت كلمة الأمة فطمع بها أعداؤها . »

و تلك الفلسفة التي جعل صلاح المسلمين مرهوناً بتطهير العقيدة الإسلامية من بقاياها ؛ هي منطق الجدل الذي قال إن الغربيين أهملوه وحققوا أنه لاثمة له « مع أنهم يعنون بالبحث عن وسائل تفاصيل العجائب ». .

ونحسب أن حسناً منطق وفلسفاته التي تتشعب منه أخرى أن تصبح في عيني أنصاره وعشاقه إذا وازناوا بين فوائده ومضاره كما لمسها الكواكب في عصره وفيما تقدمه من عصور الثقافة الإسلامية .. فإن أحسن ما في المنطق وفلسفاته الجدلية لا يعدو أن يكون تمرينات عقلية يتدرّب بها الذهن على فتح أبواب البحث في المسائل النظرية وسائل الغيب — أو ما وراء الطبيعة — التي قلما تسفر عن نتيجة قاطعة في موضوع من موضوعاتها ، ومن خصائص هذه الموضوعات أنها ثقافة فردية يديرها المفكر في تأملاً له بينه وبين نفسه ولا تتألف منها دراسة عامة تتداوّلها الجماعات وتنتفع بها في مرافقتها ومطالب تفكيرها ، وقد غابت هذه الفلسفات الجدلية عن ميادين الثقافة الأوروبية قبل النهضة العلمية فلم يكن غيابها ليحقق ظهور العلوم التجريبية ولا ليحقق ظهور الصناعات والمخترعات التي تفتقّت عنها تلك العلوم ، بل يجوز أن يقال إن تلك العلوم قد ظهرت على الرغم من اعتراف المناطقة والمتفلسفين عليها وإنكارهم لوسائلها وأساليبها . إذ كان المناطقة المتفلسفون يهرون على آرائهم التي تقوم على براهين الجدل والمناظرة ويرفضون ما عدا تلك الآراء من قواعد البحث والتجربة . فغياب الفلسفات الجدلية لم يعطّل في الغرب نهضة العلوم والصناعات ، بل قليلها الذي بقي بين أنصاره وعشاقه هو الذي عطّلها وأوشك أن يغلق عليها منافذها .

وهذه هي الفلسفات المنطقية على أحسنها في أضيق حدودها فلا جرم تزوى عن أعين أنصارها وعشاقها — فضلاً عن منكريها إذا حكموا عليها بأضرارها ونظروا إلى جرائرها التي تختلف عنها كلما وصلت إلى عقول الجماعات وتلبيست بالمذاهب والمعتقدات وانتشرت على الصورة التي تنتشر بها الأفكار بين العامة وأشباه العامة ، وتنتقل بها من لغة

الرموز الخيالية والفروض المحتملة إلى لغة الواقع الجسم والشاعر المحسوسة والأشباح الظاهرة التي تعلقها الجماعات ولا تعقل فيها بيتها فكرة مشتركة سواها .

إن أضرار الفلسفات البخلدية كانت حقيقة واقعة في كل أمة تسربت إليها ، وكان أثراها في الأمة الإسلامية شيئاً بأشد ما بين اليهود وبين المسيحيين وبين أتباع « زرادشت » من المتقدمين والمتاخرين ، حاجة لا تنتهي وخصوصيات لاتنحسم ومحاكمات على الصغار والسفاف من القول لا طائل تتحتها على حالي الثبوت أو البطلان ، وجملة ما يقال عن آثارها في عالم العقيدة أنها تفسد بساطتها وتشوب صفاءها ، وعن آثارها في عالم الثقافة أنها تثير المشكلات ولا تخلها وتشغل مكان العلم ولا تتوال به إلى عمل مفيد .

والنظرة العملية في طبيعة الكواكب هي التي زهدته في ذلك المنطق وفلسفاته وأوحيت إليه أن البحث في لغة الحيوان الأعجم أولى وأصلح من البحث فيها ، وقد تأصل في روعه لهذا الرأي الثابت نتيجة لطاعاته ونتيجة لمشاهداته الملموسة في رقت واحد .

فن مطاعاته عرف غواصي الفتن التي أشعاعها في العالم الإسلامي جدل المتكلمين حول مسألة القدر ومسألة الصفات ومسألة القرآن وخلقه ومسألة الآيات وتأويلها وأشباه ذلك في مسائل الإمامية الصریحة والمستورة أو الشريعة الظاهرة والعاطفة أو القياس والتقليد وما انتهت إليه هذه المسألة خاصة من اجراء المقلدين على رأي لم يجترئ عليه أعظم المجددين ، وهو الرأي القائل بتحريم الاجتهد على المسلمين جميعاً بعد عصر التابعين ، أو على الأكثري بعد تابعى التابعين .

ومن مشاهداته المحسوسة عرف وبالتصوف الكاذب والفلسفة الناقصة على ألوف من معاصريه الذين تلقفوا البدع وتوارثوها من دعاء العلوم الدخيلة بين وثنية ويونانية . فقد كان من وبالتصوف الكاذب

والفلسفة الناقصة أنه هدم العالم والعمل ، وأفسد الدين والخلق ، وأشاع البطالة والإباحة بين من يسمون البطالة « اتكالاً على الله » ويسمون الإباحة وصولاً يسقط الحدود ويسمح بالرخصة في المحظورات ..

رأى الكواكبى أثر العلوم الدخيلة في التوبتين الأولى والثانية فاحتكم إلى الواقع وإلى النتيجة العملية في موقفه الخامنئي بينهما — فأهلا العلوم الدخيلة فيما مضى فقد كان أثراً لها مفسدة للعقيدة في بساطتها ومدرجة إلى العجز والفتنة في الحياة العامة ، وأما العلوم الدخيلة في عصره فقد كان أثراً لها الواضح قوة لأصحابها وغلبة لهم على الجاهلين بها ، وهداية إلى المصلحة والعمل والمعرفة بأسباب الحياة الواقعية ، ولم تكن هذه المعرفة عنده بحاجة إلى برهان يؤيدتها غير نتائجها الماثلة في سياسة الأمم وصناعتها وأدوات نجاحها واقتدارها .

فليست مهمة المصلح الحكيم أن يحارب هذه العلوم الدخيلة كما حارب أخوات لها من قبل ، ولكن مهمته على تقدير ذلك أن يرحب بها ويجهد في نقلها واقتباسها ويتخذها سبيلاً من سبل الإصلاح وينظر كيف يقنع باسم الدين من يعارضون الإصلاح باسم الدين ، لأنه جديد ولا محل للمجديد عند الجامدين على القديم .

وقد كان موقفه حيال العلوم الحديثة أصح وأصدق من المعارضين لتلك العلوم من رجال الدين الجامدين في أم العصر الحديث ، ولا سيما الأمة الإسلامية : هم يقولون عن كل جديد إنه باطل وإنه ينافق الكتب المقدسة والوصايا المأثورة ، وهو من وقف ك موقفه يرد التهمة على أصحابها وينعي عليهم أنهم يعارضون العلم والقرآن معاً ، لأن العلم والكتاب يتفقان ، وما كشفه العلم حديثاً بجدد ما سبق به الكتاب ، أو أشار إليه .

وكان الكواكبى موفقاً في توفيقاته ، لحسن فهمه كتاب دينه ، وحسن اطلاعه على كشف العلم الحديث في عصره ، ولم يحدث بعد عصره ما يدعو إلى شيء من الاستدراك على موقفه إلا التفرقة في عصرنا

هذا بين النظريات العلمية ومقررات العلم التي بلغت من الثبوت أن تمحس من القوانين الطبيعية أو نواميس الوجود المتفق عليها ، فإذا جاز أن نوفق بين حقائق الكتاب وحقائق العلم المقررة فمن الحسن أن نصطنع الآلة قبل التوفيق بين الكتاب وبين النظريات التي يتناولها البحث .
ويتطرق إليها الخلاف بين وجهات النظر ومعارض الآراء ، ونذكر على سبيل المثال تفسير السموات السبع بالسيارات السبع أو تفسير طبقات الأرض في علم « الجيولوجية » بالسبعين الطباقي ؛ فإن الكشف الفلكية قد زادت عدد السيارات ولا تزال تزيد مع إحكام الرصد وتعجم النظر إلى طوارق المنظومة الشمسية من المذنبات والنجوم ، وهم يحسبون اليوم سيارات المنظومة الشمسية ثمانية ، عدا الكروة الأرضية والنجوم ، ويحدث مثل ذلك في حساب طبقات الأرض على حسب تعريف الطبقة ومكانها من دور الكروة الأرضية . فإذا كان من الثابت أن القرآن الكريم لم يشتمل على آية تمنعنا أن نقبل حقائق العلم فقد يقع الخلاف فيها بحسب من الحقائق العلمية وما يحسب من نظريات البحث والتجربة ، وقد يدعو الأمر حتماً إلى التفرقة الدائمة بين الحقائق والنظريات ، وحسبنا من كتابنا المبين أنه يأمرنا بالبحث في العلم ولا يصدنا عن حقائقه ولا نظرياته ولا عن التوصل بمحاولة من المحاولات لتحقير تلك الحقائق أو النظريات .

وبعد نيف وخمسين سنة من قيام الدعوة الكواكبية لا يزال أساسه تقوم الذي اختاره للإصلاح الديني صائماً للبناء عليه : عقيدة خالصه من شوائب الجهل والسفسطة ، تؤمن بديتها ودنياها على بصيرة .

الدّولّة

الكلام على الدولة وعلى نظام الحكم شيء واحد في مصطلحات السياسة على إجماليها ، ولكن لم يكن شيئاً واحداً في كلام الكواكب ومعاصريه . لأن كلمة الدولة كانت تعنى عندهم « الدولة العثمانية » ، فإذا أرسلت على إطلاقها وكانت لها مسألة خاصة مستقلة بشأنها عن شؤون النظم الحكومية ، بحدتها مركز الدولة العثمانية الذي كان في آخريات أيامها على الخصوص نسطاً عجيباً بين الأنماط الدولية يندر نظيره بين دول الشرق والغرب بما لها من تكوين فريد في رئاسة الدولة وأجناس الرعایا وقوام السلطة وموائع البلاد بين القارات الثلاث : أوروبا وآسيا وإفريقيا .

كانت الدولة العثمانية سلطنة أو « امبراطورية » متشعبة تجمع ألفافاً من الأمم التي تختلف بأجناسها وأديانها ولغاتها ومصالحها ، ويدل على مبلغ تشعبها وانقسامها أن الأمم التي خرجت منها واستقلت عن ميادينها بعد ثورات الاستقلال وتقرير المصير زادت على عشر أمم ذات عشر حكومات .

وكان اسم الدولة العثمانية يطلق عليها لأن حكامها من بني عثمان قبيلة تركية تعتقد ولاده الأمر فيها لسلطانها وقائد جيشه من أبناء قومه ، إذ كان الرعایا الآخرون معزول عن جيش الدولة لا يشتركون في هيئة عسكرية — غير الكتائب المحلية — إلا جنوداً متفرقين لا يتمجرون معاً في فرقه مستقلة .

وكان رئيس الدولة يضيف إلى ولاده السلطنة وقيادة الجيش صفة « الخلافة الدينية » ولقب « أمير المؤمنين » .

وهي على هذا المركز الخرج تواجه الدول الأوروبية مواجهة العدو القديم الذي تربص به الدوائر وتنقلب عليه لتقسيم بلاده بينها أو لإدخالها في دوائر نفوذها وحمايتها ، وقد كاد اسم « الرجل المريض » يغلب على هذه الدولة ويصبح عليها يجهرن به في خطبهم وأقوال محفهم ولا يتكلفون كمانه في معاملاتهم وصفقات التبادل والمساومة بينهم ، وسميت بلادها باسم « تركة الرجل المريض » تعجيلا بقسمتها وتوزيع حصصها عليهم قبل أن يتنازعوها ، إذا وقع القضاء المحتوم بين ساعة وأخرى .

كان اسم « الدولة » يدور على الألسنة بين رعاياها فتنصرف الأذهان إلى حاضرها ومصيرها في هذا المركز العجيب الذي يؤذن بالزوال — أو بالتبديل على الأقل — في كل آونة ، ولا يؤذن بالاستقرار أو بالطمأنينة إليه .

ومن ثم أصبحت للدولة مسألة خاصة مستقلة عن مسألة النظم الحكومية أو النظم السياسية في ولايتها .

أصبحت مسألتها مسألة « السلطان » أو الإمبراطور أو أمير المؤمنين الذي يتولاها ، وأصبحت بنية الدولة التي تتكون منها تابعة للصفة التي يتصف بها ولي الأمر ، سلطاناً أو إمبراطوراً أو أميراً مؤمنين .

علام تعتمد الدولة في تكوينها ؟ أعلى الأشخاص المتفرقة التي لا تجمعها جامعة واحدة ؟ أعلى الجامعة الطورانية إذا كان لابد لها من جامعة سياسية أو روحية تستندها بين أجزائها ؟ أعلى الجامعة الإسلامية ؟ أعلى الوحدة الائتلافية ؟ أعلى التسلیم بالواقع وانتظار المجهول في مهاب الأقدار ؟ .

لابد من مبدأ أساسى من هذه المبادئ يرکن إليه صاحب الدعوة إلى المستقبل ويبني دعوته عليه .

وقد كان برنامج الكواكى في هذه المسألة صريحاً محدوداً لا تتحقق

ـ منه خافية على من يعتزم العمل فيه ، وكل ما اتخذه من الخطة لهذا الأمر الجلل أنه أعلن قواعده وترك تائجه المحتومة تكتشف في حينها ، وهي غير مجهولة .

ـ وهو يقيم برنامجه في مسألة الدولة والخلافة على هذه القواعد الثلاث :

(١) أن ينفصل الملك عن الخلافة .

(٢) وأن تعود الخلافة إلى الأمة العربية .

(٣) وأن تقوم الخلافة على أساس الانتخاب والشورى والتعاون المتبادل على سنة المساواة بين الأقطار الإسلامية .

ـ ويستند في كل قاعدة من هذه القواعد إلى مراجعه التاريخية كما يستند إلى مقتضيات الضرورة العملية في أحوال العالم الحديث .

ـ فهو يقرر من تحصيله التاريخي أن خلافة بنى عثمان لم تتعقد بها بيعة من حكومات المسلمين ولا من رعاياها ، فلا يقبلها ملوك إيران والمغرب وأئمة الجزيرة العربية الذين لم يخضعوا لسيادة الدولة التركية ، ولا يذكرها المسلمون في صلاة الجمعة إلا حيث يديرون لتلك السيادة في أوضاعهم السياسية . ولم يحدث قبل السلطان محمود العثماني أن تلقب أحد من سلاطين القسطنطينية بلقب الخلافة وإمارة المؤمنين : « إذ صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحياناً تفتنا في الإجلال وغلوّاً في التعظيم ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهده ابنه وحفيديه إلى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقدرون حضرة السلطان الحالي ، للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لأجل عنوان خلافة وهيمة مقيد في وضعها بشرط ثقيلة لا تلائم أحوال الملك معرضة بطبعها للقلقة والانزعاج والخطر العظيم ... » .

ـ ويرى من تحقيقه التاريخي أن ساسة الترك لا يقصدون « غير التلاعب السياسي وقيادة الناس إلى سياساتهم بسمهولة ، وإرهاب أوربا باسم الخلافة ، واسم الرأي العام ... » .

قال بعد أن بين أن مأرب الملك غلت في تاريخ الدولة العثمانية على واجبات الخلافة كما تلتها مصالح الأمم الإسلامية على من يستطيع رعايتها : « إنى أذكر لك أنموذجاً من أعمال لهم أتواها رعاية للملك وإن كانت مصادمة للدين .. ففيما السلطان محمد الفاتح — وهو أفضل آل عثمان — قد قدم الملك على الدين فاتفق سراً مع فرديناند ملك الأragون الأسبانيولي ثم مع زوجته إيزابيلا على تمهيدهما من إزالة ملك بني الأحرار آخر الدول العربية في الأندلس ... مقابلة ما قامت لديه روما من خذلان الامبراطورية الشرقية عند مهاجمة مقدونيا ثم القسطنطينية . وهذا السلطان سليم غادر بآل العباس واستقاصاًهم حتى إنه قتل الأمهات لأجل الأجيال . وبينما كان هو يقتل العرب في الشرق كان الأسبانيون يحرقون بقיהם في الأندلس ، وهذا السلطان سليمان ضايق إيران حتى أخاهم إلى إعلان الرفض .. ثم لم يقبل العثمانيون تكليف نادر شاه لرفع التفرقة بمجرد تصديق مذهب الإمام جعفر ، كما لم يقبلوا من (أشرف) خان الأفغان اقتسام فارس كي لا يجاورهم ملك سني . وقد سعوا في انفراط خمس عشرة دولة ومحكمه إسلامية .. وأعانوا الروس على التئان المسلمين وهو لانددة على الجاوية والهنديين ، وتعاقبوا على تدويخ اليمن .. وباغت العسكر العثماني المسلمين مرة في صنعاء والزيد وهم في صلاة العيد .. »

قال : « أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة وتركوا الهند مساعدة وتركوا الممالك الجسيمة الآسيوية للروسين وتركوا قارة إفريقيا الإسلامية للطامعين وتركوا المداخلة في الصين كأنهم الأبعدون » .

ولم يشا الكواكب أن يفرق بين ضرورات الواقع وبين دواعي الاختيار في هذه الأعمال ، لأنه نظر إلى النتيجة التي يقيم عليها حجته وهي فشل التصدي لواجبات الخلافة مع قيود الملك ومتازق السياسة وصعوبة الوحدة الجامعة بين دول الإسلام .

وإذا كان انفصال الخلافة عن الدولة ضرورة قاسرة ومصلحة مختارة، فليس أولى بالخلافة من الأمة العربية. وقد تبسط الكواكب في سرد الشروط والأسباب التي قضت أحوال الحكومات الإسلامية، وشحوبها في عصره بلاحظتها، ولكن الغاية الجوهرية التي لا ترتبط بتلك الأحوال تتلخص فيما يلي :

- (١) أن يكون الخليفة عربياً.
- (٢) وأن يكون اختياره بالانتخاب.
- (٣) وأن تكون وظيفته روحية.
- (٤) وأن يعاونه مجلس شورى تمثل فيه جميع الشعوب الإسلامية.
- (٥) وأن تنفذ وصاياه طراغية في المسائل الدينية، ولا ت تعرض في تنفيادها لل المشكلات السياسية.

ولابد من التمهيد لقيام الخلافة باعداد الأذهان في العالم الإسلامي لقبول هذا النظام وإيشاره على نظم التقاليد التي فرضها مارب أصحاب السلطان ودسائس الدعاة المفترضين بعد عصر الخلفاء الراشدين، وتتصدى لهذه المهمة جماعة منظمة تحمل أسماس الشرى والاختيار وتتخذ مقرها في ميناء متوسط كبور سعيد أو الكوبيت، ثم تعلن دعوتها وتبلغها إلى ولاة الأمور في الأقطار الإسلامية.

ويظهر من تفصيل الخطط التي رسمها الكواكب للتدرج في تحقيق وظيفة الخلافة على هذه الصورة أنه كان شديد الخنجر من مقاومة الدول الكبرى التي تعنيها مسألة الخلافة الإسلامية، وأنه أفرط في الخنجر أحياناً فقدم حساب التقدمة والمحاملة على كل حساب يشغله في حينه، ولم يخالف الحقيقة حين اهتم بتفسير فريضة الجihad على النحو الذي يزيل مخاوف الدول ومخاوف الأمم من غير المسلمين على التعميم. فقد أصاب حين قال :

«إنه ليس في علماء الإسلام مطلقاً من يحصر معنى الجihad في سبيل

الله في مجرد ممارسة غير المسلمين ، بل كل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال يسمى جهاداً . وبذلك يعلمون أن قصر معنى الجهاد على الحروب كان مبنياً على إرادة الفتوحات ... كما أعطى اسم الجهاد مقابلة لاسم الحروب الصليبية .. » .

وكلذلك أصحاب حيث قال : « إن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم بل يستلزم الألفة ... وإن العرب أينما حلوا في البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم وأغتهم .. » .

ولكنه بالغ في دفع الحروف واتقاء المقاومة حين استطرد فائلاً إن العرب « لم ينفروا من الأمم التي حلت بيلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها كعدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك ، بل يعتبرون دخوهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله لأنهم يذعنون بكلمة رحيم سبحانه وتعالى شأنه .. (و تلك الأيام نداولها بين الناس) .. » .

ثم كشف عن أسباب تلك المبالغة في التقييم حين قال بعد ذلك : « فإذا علم السياسيون هذه الخاتق وتوابعها لا يتحلرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة السطوة مرتبطة بالشوري على النسق الذي قرأته » .

فالكواكبى « الدبلوماسي » السياسي هنا أظهر من الكواكبى التأثر . « وأم القرى » هنا أسلوب من العمل غير أسلوب « طبائع الاستبداد » . فان الكواكبى التأثر لم يقبل من المسلم أن يذعن للغصب والسيطرة في حكومة مسلمة ، ولم يحمد منه أن يستكين لتداول الدول وحكم الأيام جهلاً بمعنى التسلیم للقضاء ، وإنما هي مزائق الحيلة لا تؤمن مزاتها في طريق الثورة ولا سلامه من عثراتها قبل استواها على جادتها المثلث .

على أن الكواكبى التأثر كاد أن يكتشف لقارئه في « أم القرى » وفي صدد الكلام على الخلافة والدول الأجنبية ، حيث قال وهو يتكلّم

عن القضية الخامسة والأربعين : «إذا صادفت الجمعية معارضته في بعض أعمالها من حكومة بعض البلاد - ولا سيما البلاد التي هي تحت استيلاء الأجانب - فالجمعية تتذرع (أولاً) بالوسائل الالزامية لمراجعة تلك الحكومة وإقناعها بحسن نية الجمعية . فإذا توقفت لرفع العنت فيها ، وإلا فلتلجأ الجمعية إلى الله القادر الذي لا يعجزه شيء . . . » .

ومراد الكواكب من عبارته هذه واضح عند من يفهم أن المجموع إلى الله « القادر الذي لا يعجزه شيء » يعني كل شيء غير التسليم والنكوص عن العمل الذي بدأ وتقدم وتمت له أسباب التدبر .

— 3 —

إلا أن القارئ يستطيع أن ينحدر إلى الغاية الجوهرية في أمر الدولة والخلافة من وراء الخطط أو المآذن العملية التي تهـلـع بعض الأزمنـةـ ولا تصلـحـ لغيرـهاـ ، والـتـىـ رسـمـهـاـ الحـوـادـثـ لـلـهـنـوـاـكـبـىـ وـلـمـ يـرـسـمـهـاـ لـنـفـسـهـ باختـيـارـهـ ، وـلـعـلـهـ كـانـ يـعـيـدـ فـيـهاـ النـظـرـ لـوـ تـرـاـخـىـ بـهـ الأـجـلـ - فـيـمحـوـ مـنـهـاـ وـيـثـبـتـ وـيـزـيدـ عـلـيـهاـ وـيـنـقـصـ مـنـهـاـ ، وـلـاـ يـدـعـهـاـ - خـلـفـائـهـ - بـأـيـةـ حـالـ - عـلـىـ الصـورـةـ الـتـىـ بـقـيـتـ لـنـاـ بـعـدـ نـصـفـ قـرـنـ مـنـ وـفـاتـهـ .

فإذا نفذ القارئ من وراء تلك الخطط الموقوتة إلى الغاية الجوهرية فلا نزاع في تلك الغاية ولا في الإيمان بأن الوصول إليها هو مبعث الدعوة التي أضطط بها وصمد عليها ، وخلاصتها في كلامات معدودات أن دعوى الخلافة في القدسية لا ينبغي أن تعيق الأمة العربية عن نهضة الإصلاح والحرية .

• • •

النظام السياسي

علوم السياسة أقرب العلوم إلى أن تكون « اختصاصاً » للكواكب بين دراسات عصره . نفهم ذلك من كلامه في مقدمة « طبائع الاستبداد » كما نفهمه في مباحث الكتاب كله ، لأنها مباحث مشرورة على إيجازها لا يحول فيها قلم كاتب لم يتسع في هذه الدراسات .

ولكنتنا قد علمنا من طبيعة تفكير الكواكب أنه يدرس ليحمل وينفذ ، أو ليدل على وسائل العمل والتنفيذ ، فكل ما كتب في موضوعات العلم السياسي فهو من قبيل « المذكرات الإيضاحية » التي تبين حدود العمل المطلوب وتبين الطريقة التي تتبع في تنفيذه ، وما عدا ذلك من مباحث النظر والتأمل فقد بقيت في كتاباته المعروفة « رؤوس موضوعات » لم يتسع له الوقت لاستيفاؤها ولعله لم يجد من لوازمه عما أن يستوفيها على المنهج المدرسي كما يصنع الباحث الذي يدرس الموضوع ليؤلف فيه أو ليضطلع بتعليمه والإلتزام به من الوجاهة النظرية . وإنما أحاطها بعناؤينا الخيملة لمن يريد أن يرجع إليها في مصادر انتخابه والبيان ليصحح النظر أو ليحقق وسائل العمل المتفق .

ومن قبيل هذه المباحث التي تركها « رؤوس موضوعات » في الصفحات الأخيرة من « طبائع الاستبداد » قوله في مبحث الحقوق العمومية : « هل للحكومة صفة المالكية ؟ أم صفة الأمانة والنظارة على الأموال العمومية ؟ مثل الأراضي والمعادن والأهر و السواحل والقلاع والمعابد والأساطيل والمعدات ، ومثل حقوق المعاهدات والاستئجار ، ومثل حقوق إقامة الحكومة وتأمين العدالة وتسهيل الترقى الاجتماعي وإيجاد التضامن الإفراطي ، إلى غير ذلك مما يتحقق لكل فرد أن يتمتع به وأن يطمئن ؟ » .

ومن هذه المباحث قوله عن توزيع السلطة : « هل يجمع بين ملطيتين أو ثلاث في واحد ؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم من يقوم بها باتفاق ولا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة ؟ » .

وقد أثبتت من عناوين هذه المباحث خمسة وعشرين عنواناً قال عنها : « إن كلا منها يحتاج إلى تدقيق عميق وتفصيل طويل وتطبيق على الأحوال والمتغيرات الخصوصية » .

ثم مضى قائلاً إنه ذكر : « هذه المباحث تذكرة للكتاب ذوى الألباب وتنشيطاً للنجباء على الخوض فيها بترتيب ، اتباعاً لحكمة إيان البيوت من أبوابها ، وإن اقتصر على بعض الكلام فيها يتعلق بالبحث الأخير منها فقط ، أعني ببحث السعي في رفع الاستبداد .

وإنما خص هذا البحث الأخير لأنه يمس فيه الوسيلة العملية التي لا يمكنها مجرد التأمل وتقليل وجوه النظر في مختلف الآراء ، وذلك شأنه في كل ما يكتبه عند وجوب التفرقة بين ما يدرس وما يعمل ووجوب التفرقة أيضاً بين ما يشرع في عمله وبين ما يؤجل إلى حين ليعمل في أوانه .

ولا ننسى أن الكواكبى كان يكتب ما ينوى إعلانه في بلاد تابعة للسيادة العثمانية ، سواء منه ما كتبه في حلب قبل هجرته الأخيرة وما كتبه في مصر باسمه الصرىح أو باسم مستعار ، فلم يكن في وسعه أن يعلن ما يمنعه القانون ويمنعه العرف الشائع بين الناشرين ، ومنهم أصحاب الصحف والمطابع التي تدين بالولاء للدولة صاحبة السيادة ، ولذلك كان يتحرى التعبير عن رأيه بالأسلوب الذى يدل عليه دلالة لا شك فيها دون أن يخرج بالنص المكتوب عن حدوده القانونية ، وعلى صعوبة التعبير بين عن خطط الثورة لم يكن برنامجه في مسألة النظام السياسى بالبرنامج المجهول عند قرائه ولو لم يكن منهم من يلقاه ويسمع منه الرأى الصرىح فيما يريد وفيمَا يراه .

فلم يكن أصرح — في حدود القانون — من دعوته للعرب إلى الاستقلال بحكم أنفسهم حيث يقول في «أم القرى» إن التطابق في الجنس بين الراعي والرعية « يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها فتتفاني دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكم المتنبي :

وإنما الناس بالسلوك ولا يفلح عرب ملوكها عجم
وهما لا خلاف فيه أن من أهم حكمة الحكومات أن تتخليق بأخلاق الرعية
وتتحدى معها في عوائدها ومشاربها » .

بل هو يصرح بما هو أقوى من ذلك وأدل على رأيه في حكومة عصره التركية . إذ يقول إن التطابق بين الراعي ورعيته من العرب هو الواقع الممكن الذي لا محيد للحاكم عنه وليس قصارى الأمر فيه أنه سياسة حسنة أو نصيحة مستحبة ، ويستشهد بذلك بالحكومات — غير العربية — التي حكمت العرب قبل الترك العثمانيين إذ يذكر آل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريين والأمراء الجراكسة وآل محمد على ، ثم يقول : « فإنهم ما لبשו أن استعربوا وتخليقو بأخلاق العرب وامتزجو بهم وصاروا جزءاً منهم . وكذلك المغول التatars صاروا فرساً وهنوداً فلم يشذ في هذا الباب غير المغول الأتراك أى العثمانيين : فإنهم بالعكس ينتمرون بمحافظتهم على غيرية رعایاهم لهم . فلم يسعوا باستراكهم كما أنهم لم يقبلوا أن يستعربوا . والمتاخرون منهم قبلوا أن يتفرسوا أو يتأنروا ، ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم يستدل عليه من أقوالهم التي تجري على ألسنتهم » .

• • •

ولا حاجة بالكتابي بعد هذا البيان عن ضرورة التطابق بين الراعي والرعية إلى كلمة صريحة أو غامضة بلاء الوجهة التي ينبغي أن تنتهي إليها مساعي العرب في يقظتهم . فلابد أن يفلحوا ... ولن يفلحوا وهم

عرب يملكون عجم... وملوكيهم القائمون بالأمر لا يستغربون ولا يروقهم
أن « يستنك » وعياهم، ومنهم من يؤثر أن يتفرّس ويتأنّ ويتوجه نحو
الغرب ولا يحول وجهته إلى قبلة شرقية.

فالغاية المائتة أمام المجاهدين في سبيل اليقظة العربية هي « الاستقلال »
وإقامة الدولة التي يقيّمها العرب ويرعاها العرب، والمطالبة في انتظار
تحقيق هذه الغاية خير ما يمكن من وجوه الإصلاح التي تزيل أسباب
الخلل في إدارة السلطة العثمانية وأهمها — فيما يهم البلد العربية —
« التسلّك بأصول الإدارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم
وقف رؤساء الإدارة في المركز على أحوال تلك الأطراف المتباينة
وخصائص سكانها ».

ويتحقق بهذا السبب سيان آخران يبدو للنظر لأول وهلة أنها
متناقضان لو لا أنها يرجعان إلى حالتين مختلفتين، وهما حالة الرعية
الشرقية وحالة الرعية الأجنبية غير العربية من تشملهم قوانين الامتيازات
أو القراءن المحلية المقصورة على بعض الأقاليم.

فالسبب الأول يرجع إلى « توحيد قوانين الإدارة والعقوبات مع
اختلاف طبائع أطراف المملكة واختلاف الأهالي والأجناس والعادات »...
ولا يتحقق ضرر هذا التوحيد من الوجهة الجماعية والإدارية حيث تتيح
« الإجراءات » الواحدة في المقاضاة وتدبير الدواوين بين أطراف دولة
تمتد من وادي النهر إلى البحر الأبيض ومن البحر الأسود إلى خليج عدن،
وتسرى على أقوام بينهم من الاختلاف ما بين الأرمن والجركس والترك
والعرب في الحاضرة والبادية.

والسبب الآخر يرجع كما قال الكواكب إلى « تنوع القوانين
الحقوقية وتشوش القضاء في الأحوال المماثلة ».

ففي ظاهر الأمر يبدو أن صاحب « أم القرى » يشكو في وقت
واحد من توحيد الإجراءات والقوانين ومن تنوعها واختلافها، وهي

شكوى متناقضة ولكنه تناقض في الظاهر دون الحقيقة كما أسلفنا . لأن هذه الشكوى في مؤتمر أم القرى خاصة — إنما يثيرها التسويع الذي يقوم على التمييز بين جنس وجنس وطائفة دون طائفة إذ عانى للمعاهدات الأجنبية تارة أو مراعاة للمنازعات الطائفية واستبقاء لبواعث تلك المنازعات تارة أخرى ، وقد كان هذا التمييز عرفاً شائعاً في نظم الدولة يعم تشريعات الإدارة والأحوال الشخصية ويختلف بالإقليم الواحد بين فئة وفئة وبين عشيرة وعشيرة ، ولا يقتصر على الأجانب ولا على الأقاليم التي نشبت فيها الثورات وتدخلت فيها الدول لتقرير نظام الولاية أو الإدارة فيها .

فالكواكبى كان يشكى في الحالتين من شيء واحد ، وهو مخالفة الشريعة للمصلحة إما بالتسوية حيث تفرق الأحوال أو بالتفرقة حيث تلزم العدالة والمساواة .

وربما أضاف الكواكبى شكواه الفنية إلى هذه الشكوى الجماعية من تلقيق القوانين والإجراءات . فإنه — وهو الخبير بفقه التشريع — كان ينكر من دعوة التجديد من فقهاء الترك أنهم على تقديره لم يحسنوا المحافظة ولم يحسنوا الابداع ، وأن الدولة ترخصت في تبديل قواعد التشريع لغير ضرورة وتشددت في بعضها الآخر كذلك لغير ضرورة « وجماعها أكثر من هذا الخلل في الستين سنة الأخيرة . أى بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الإبداع ففشلت حاملاً ولا سبباً في العشرين سنة الأخيرة التي ضاع فيها ثلثا المملكة وخراب الثلث الباقى وأشرف على الضياع ، لفقد الرجال وصرف حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وسيط الإصرار على سياسة الانفراد » .

وقد صرخ الكواكبى بالحل الملايم لهذه المشكلات السياسية والقانونية لبلاد العرب ، ولبلاد الدولة عادة ، في أطوار الانتقال ، فقال في هامش الصفحة التي سرد فيها أسباب الخلل من أم القرى إن « من أهم الفحرويات أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى .

إدارى يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم كما هي الحال في إمارات ألمانيا وولايات أمريكا الشمالية ، وكما يفعله الإنكليز في مستعمراتهم والروس في أملاكهم » .

وفحوى هذا الحل أن يؤخذ الذى عرف بعد ذلك باسم « اللامركزية » ، وشرع ساسة الترك أنفسهم بضرورته بعد تفكير الكواكب فيه بستوات ، فهو — ولا ريب — رائد الدعوة اللامركزية الذى جهر بها « حزب الائتلاف والحرية » وضم إليها أناساً من زعماء الترك والعرب وبعض الأقوام المشركين في تركيب السلطنة العثمانية ، وكانوا ينادون بالائتلاف لتكوين السلطنة من الشعوب المتألفة مع استقلالها حكوماتها الذاتية ، وينادون بالحرية لتعطيل حقوق الشعوب في سياسة أمورها على حقوق السلطنة المترفة بالحكومة المركزية ، ويقابلون بذلك دعوة المركزيين المعروفين باسم حزب الاتحاد والترقى يريدون بذلك أن تكون الوحدة المركزية في الدولة غالبة على الائتلاف ، وأن تكون حمجة « الترقى » بقيادة الرئاسة الحاكمة غالبة على حمجة المطالبة بالحرية لكل ولاية على انفراد .

ولا يلمجنا مؤلف « طبائع الاستبداد » إلى مراجعة واستنباط للعلم بصفة الحكومة التى يختارها ويسعى إليها . فلابد أن تكون — بالبداهة — حكومة غير مستبدة أو « حكومة مسئولة » .

أما العنوان الذى يطلق عليها فى مصطلحات العلم السياسى فينبعى أن يتوافر لها بين الشروط الكثيرة شرطان على الأقل من شروط الحكومات المسئولة ، وهما أن تكون « ديمقراطية اشتراكية » .

وقد عرف الاستبداد تعريفين مختلفان بعض الاختلاف لفظاً ويتقان كل الاتفاق فى المعنى والنتيجة .

فالاستبداد كما قال فى مقدمة طبائع الاستبداد هو : « التصرف فى الشئون المشتركة بمقتضى الموى » .

أو هو كما قال بعد ذلك « تصرف فرد أو جموع في حقوق قوم بلا خوف تبعة » .

ويقتنع الاستبداد — نظراً وفعلاً — بقيام الحكومة المسئولة ، وأفضل هذه الحكومات التي تجتمع لها مبادئ الديمقراطية والاشراكية ، وتراعى هنا طبيعة التفكير العملي التي تمزج بآراء الكواكب في كل مسألة يتسع فيها مجال البحث والمناقشة وتساوى فيها وجوه النظر عند تحقيق نتائجها العملية وضمان المصلحة المنشودة بضمان تلك النتيجة .

فليست العبرة عند الرجل العايم بمنافذ الاستبداد أن يتوافق للحكومة شكل من أشكال الدستور وصورة من صور الحقوق الكثيرة التي ترشح أفراد الرعية للنيابة أو الانتخاب ، وإنما المهم في جميع الأشكال على تعدد المصطلحات والدساتير أن يكون ولـي الأمر مسؤولاً عن عمله محاسبـاً عليه ، وأن يقتنع عليه الاستبداد وهو التصرف بالهوى والأمان من التبعة « بلا خشية حساب ولا عقاب محققين » .

فلا يقتنع الاستبداد بامتناع حكومة الفرد ولا يتحقق الحكم الصالح باشتراك الكثرة فيه أو بتأييد الكثرة للحاكمين المتعددين ، أو كما قال في المقدمة : « إن صفة الاستبداد كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغبـة أو بالوراثة — تشمل أيضاً الحاكم الفرد المقيد الوارث أو المتـخبـتـ منـ كـانـ غـيرـ مـحـاسـبـ . وكـذـلـكـ تـشـمـلـ حـكـوـمـةـ الـجـمـعـ وـلـوـ مـسـتـخـاـ . لأنـ الاـشـرـاكـ فيـ الرـأـيـ لاـ يـدـفعـ الاـسـبـدـادـ وإنـماـ قدـ يـعـدـلـهـ نـوـعـاـ ، وـقـدـ يـكـوـنـ أـحـكـمـ وـأـضـرـ منـ اـسـبـدـادـ الفـردـ ، وـيـشـمـلـ أـيـضـاـ حـكـوـمـةـ الـدـسـتـورـيـةـ المـفـرـقـةـ فـيـهاـ قـوـةـ التـشـرـيعـ عـنـ قـوـةـ التـنـفـيـذـ . لأنـ ذـلـكـ أـيـضـاـ لـاـ يـرـفـعـ اـسـبـدـادـ وـلـاـ يـحـقـقـهـ مـاـ لـمـ يـكـنـ مـنـفـلـوـنـ مـسـؤـلـيـنـ لـدـىـ الـمـشـرـعـينـ وـهـؤـلـاءـ مـسـؤـلـوـنـ لـدـىـ الـأـمـةـ الـتـيـ تـعـرـفـ أـنـ تـرـاقـبـ وـتـوـدـيـ الحـسـابـ » .

ولا يقتنع الاستبداد في شكل من أشكال الحكومة مع غفلة الأمة .

وقدرة المحاكمين على تضليلها والتغويه عليها . قال : « إنه ما من حكومة عادلة تأمن المسئولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو إغفالها لها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد ، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوتين المهرتين : جهالة الأمة والجنود المنظمة » .

ومن علامات الحكومات الصالحة التي يتذرع عليها الاستبداد في رأى الكواكبى أن يشترك فيها من عناهم القرآن الكريم بأهل الذكر واصطلاح الفقهاء على تسميتهم بأهل « الحل والعقد » من قادة الأمة وheadsها . قال بلسان الإمام الصيلى فى أم القرى : « وهؤلاء الذين نسميت عندهنا بالحكماء هم الذين يطاق عليهم فى الشريعة الإسلامية اسم أهل الحل والعقد الذين لا تتعقد الإمامة شرعاً إلا ببيعتهم ، وهم خواص الطبقة العليا فى الأمة الذين أمر الله عز شأنه نبىه معاورتهم فى الأمر ... لأنهم رؤساء الأمة ووكلاه العامة والقائمون فى الحكومة الإسلامية مقام مجالس النواب والأشراف فى الحكومات المقيدة . » .

وإذا أشار الكواكبى إلى الطبقة العليا فى « أم القرى » أو « طبائع الاستبداد » لم يدع أحداً من قرائه يفهم أنها الطبقة العليا بالألقاب أو الطبقة العليا باليراث ، لأنه يسمى أصحاب الألقاب من خدام الاستبداد « بالمتمجدين » أو أدباء المجد ويقول إن هذا التمجيد « خاص بالإدارات الاستبدادية لأن الحكومة الحرة التى تمثل عواطف الأمة تأبى كل الإباء إخلال التساوى بين الأفراد إلا لوجب حقيقى . فلا ترفع قدر أحد منها إلا أثناء قيامه فى خدمتها ، أى الخدمة العمومية ، كما أنها لا تميزه بوسام أو تشرفه بلقب إلا إعلاناً لخدمة مهمه » .

وإنما يكون التمجيد كما قال : « أن يتقلد الرجل سيفاً من قبل الجبار يبرهن به على أنه جلاد فى دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وساماً مشمراً بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تذىء بأنه صار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة

أوضح وأخصر هو أن يصير الإنسان مستبدًا صغيراً في كنف المستبد الأعظم » .

وطبقة الميراث ، ما لم يعيرها العلم والخلق الرفيع — هي جرثومة البلاء كما قال ، وأبناؤها « هم الأكثر عدداً والأهم موقعاً وهم مطمح نظر المستبد في الاستعاناً وموضع ثقته » .

قال من كلامه عن الاستبداد والمحنة إن هؤلاء الأصلاء « هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل ، لأن بني آدم داموا إخواناً متساوين إلى أن ميزت الصدفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوّات العصبية وتنشأ من تنافرها تميّز أفراد على أفراد ، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء .. فالأصلاء في عشرة أو أهـ إذا كانوا متقاربي القوّات استبدوا على باق الناس وأسسوا حكـومة أشراف ، ومنـي وجد بيت من الأصلاء يتميـز كثـيراً على باقـ الـبيـوت يـسـتـبدـ وـحدـهـ وـيـؤـسـسـ الحـكـومـةـ الفـرـديـةـ المـقيـدةـ إـذـاـ كـانـ لـبـاقـ الـبيـوتـ بـقـيـةـ بـأـسـ ،ـ أوـ المـطـلـقـةـ إـذـاـ لـمـ يـقـيـهـ أـمـامـهـ مـنـ يـتـقـيـهـ » .

ثم قال : « إذا لم يوجد في أمة أصلاء بالكلية ، أو وجد ولكن كان لسواه الناس صوت غالب ، أقامت تلك الأمة فعلاً أو حكـماً لنفسها حـكـومـةـ اـنتـخـابـيةـ لـاـ وـرـاثـةـ فـيـهاـ اـبـتـدـاءـ ،ـ وـلـكـنـ لـاـ يـتوـالـيـ بـضـعـ مـتـولـينـ إـلـاـ وـيـصـيرـ أـنـسـاـهـمـ أـصـلـاءـ يـتـنـاظـرـونـ ،ـ كـلـ فـرـيقـ مـنـهـ يـسـعـ لـاجـتـذـابـ طـرـفـ مـنـ الـأـمـةـ اـسـتـعـدـادـاـ لـلـمـغـالـبـةـ وـإـعـادـةـ التـارـيـخـ الـأـوـلـ ..ـ » .

فالطبقة العليا — في تعبير الكواكب — لا تعني طبقة من طبقات المظاهر المصنوعة ولا المظاهر الموروثة : لا تعني حملة الألقاب والرتب التي يخلعها الحاكم المطلق على خدامه وعبيده سلطانه ، ولا تعني أصحاب الوجاهة المسقولة من الأسلاف إلى الأعقارب دون أن ينتقل معها سبب من أسباب الوجاهة النافعة . وإنما الطبقة العليا في تعبير صاحب

« طبائع الاستبداد » ، و « أم القرى » ، هي الطبقة التي استعدت بكماليتها ودرایتها لقيادة الأمة والاضطلاع « بالخدمة العمومية » والسبق إلى تكاليف العمل والمعرفة ، تولاها وكالة عن جميرة الأمة ، ولا بد في ولائها من صوت غالب لسراد الأمة ، على أية حال ، كما يؤخذ من إحصائه لأسباب فساد الحكومة فيها جمعه من هذه الأسباب السياسية والدينية والأخلاقية في فصل خاص آخره بفصل « أم القرى » .

وأياً كان مفاد « الطبقة » في تعبير الكواكب خاصة فقوام النظام الصالح كله أمران : أن تتساوى الطبقات في الحقوق القانونية ، وأن تتقرب في الثروة ودرجات المعيشة .

فلا مناص من إعداد الشعوب لنيل « الأخوة العمومية » بال التجاوب بين الأفراد والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات » .

ولا مناص من توزيع الثروة توزيعاً يتنبع به التفاوت ، فإن الاستبداد كما قال في طبائع الاستبداد هو الذي جعل « رجال السياسة والأديان ومن يتحقق بهم ، وعدهم لا يتجاوز الخمسة^(١) في المائة يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة » .

قال : « وإن أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهين والمحتكرين وأمثال هذه الطبقة — ويقدرون كذلك خمسة في المائة — يعيش أحدهم بمثيل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الآلاف من الصناع والزارع ، وهذه القسمة المتفاوتة بين بني آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباudeة هي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي » ، كما قال وكر المقال مما نعود إلى بيان رأيه المفصل فيه عند الكلام على برنامجه المختار لإصلاح الحياة الاقتصادية .

ويقتضي التساوى بذلك الطبقات على هذا المبدأ ألا تستأثر طائفة من الأمة بانتخاب أهل العلم والدرأة ، بل يكون حكام الأمة كما قال

(١) في الطبعات الأولى واحد في المائة .

يلسان الحكم الصيفي — « من أى طبقة كانت من الأمة . إذ قضت أسنة الله في خلقه ألا تخلو أمة من الحكماء ». .

ولا فرق بين طففة وطائفة في التخلق بأخلاق الاستبداد مني قام الأمر على الحكم المطلق وامتنعت المساواة في الحقوق بين الناس : « فإن الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش إلى كناس الشوارع ، ولا يكون كل صنف إلا من أهل طبقته أخلاقاً . لأن الأسفل لا يهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته ، شرهون لأكل السقططات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأنهم ويؤمنونه فيشاركونه . هذه الفئة المستبدة يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له ، والمحافظين عليه واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من أهل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان ، واحتاج إلى حفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكose وهي أن يكون أهلهم طباعاً أعلاماً وظيفة وقرباً .. » .

• • •

والكواكب يذكر السلف الصالح للقتداء به في أخلاق الرعاة والرعايا ، ولكنه يخلد قارئه ويعيد التحذير مرة بعد مرة من الخلط بين القتداء بأخلاق الحاكمين الأولين وبين الدعوة إلى تقديس أولئك الحاكمين أو إهانتهم بهالة من عصمة الربوبية أو الرسالة . فإنه — مع تقريره أن الخلافة الإسلامية لم تثبت من قبل لغير الخلفاء الراشدين . وحاد معدودين من أمثال عمر بن عبد العزيز — يرى أن الفصل بين الملك والخلافة ضرورة لا محيد عنها كي يتسمى للرعاية أن يحاسبوا على الأمر ويقيسوا ولایة الأمر على أساس الحكومة المسئولة ، وقد يحال بينهم وبين ذلك باتحالف صفة القداسة التي يعتصم بها الخلافة من محاسبة رعاياه ومراجعة الأمة في مجموعها لسياسة الدولة .

ولا اكتئاث للصور والأشكال في كل ما تقدم من قواعد الحكم وأنظمته وسائر شروطه . فكل صورة من صور الحكم حسنة نافعة إذا تحققت فيها الحاسبة ولحقت فيها تبعات الحكم فعلاً عن يتولاه ، وكل أمة قادرة على محااسبة حكامها إذا أعمت فيها المساواة الحقوقية وامتنع فيها التفاوت البعيد في الأرزاق والأقدار ، وانجابت عنها غشاوة الغفلة بين عامة أهلها وارتفع إلى مكان القيادة من استعد بكفایته ودرایته لقيادتها ، كافئنا ما كان منشئه من عامة طبقاتها .

النِّطَامُ الْقِصْدَادِيُّ

قدمنا في الكلام على النظام السياسي أن الكواكبى يعتبر التفاوت في الثروة دعامة من أقوى دعائم الاستبداد ، لأنه يسمح لأصحاب النفوذ الدينى أو الدنيوى — وهم لا يزيدون على الخمسة في المائة من جملة السكان — بأن يستأثروا بأنفسهم بنحو نصف الثروة العامة .

وهو ينكر مثل هذا الإنكار أن يحصل مثل هذا التفاوت بأية ذريعة من النرائع ولو كانت ذريعة العمل والصناعة ، فليس من الجائز أن يعيش إنسان واحد يمثل ما يعيش به الملايين أو الآلاف لأنه يتتفوق على غيره بعمل بارع أو صناعة نفيسة ، ولا لأنه يحسن الوساطة والمداورة في سوق البييع والشراء أو في سوق الفكر والضمير . « فهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلا . إنما يعيشون بالحيلة كالسماورة والمشعوذين باسم الأدب والدين .. » .

والمال على العموم « لا يجتمع في أيدي الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخداع » .. وليس من شأن التفاوت في القدرة وأهمة أن تمنع إنساناً واحداً ما يقوم بنفقات الآلاف من الناس ، وليس هذا التفاوت مما يحتاج إليه العامل المقتدر لإتقان عمله أو يحتاج إليه المحبه الطموح لامتناع همه وإشباع طموحه ، بل ربما كان فيه مدرجة للغواية والبطالة ومدعاة إلى الإسراف والإسفاف .

وليس المطلوب أن يبطل التفاوت بين الناس في المعرفة والذكاء ولا أن يبطل التفاوت بينهم في المساعي والجهود ، فلا يقتضى الأمر كما قال « أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم ، إنفاق أو الصنعة المفيدة بذلك الجاهم النائم في ظل الحائط ، ولا ذلك

التاجر المجهد المخاطر بالكسول الخامل ، ولكن العدالة تقتضى غير ذلك التفاوت ، بل تقتضى الإنسانية أن يأخذ الرافق بيد السافل فيقربه من منزلته ويقاريه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته » .

وأياً كان جهد المجهد وعلم العالم فلا يجوز أن يزيد الرزق على الحاجة تلك الزيادة المفرطة التي تسمح لطائفة من الأمة بتسخير جميع طوائفها : « لأن إفراط اثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان . وهذا معنى الآية : إن الإنسان ليطغى أن رأه استغنى — ... فضرر الثروات الإفرادية في جمهور الأمم أكبر من نفعها . لأنها تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين : عبيداً وأسياداً ، وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل للأمم التي تغنى بغناء أفرادها التعدي على حرية واستقلال الأمم الضعيفة .. » .

• • •

وتظهر لنا سعة إطلاع الكواكبى في مسائل الإصلاح من إحياطه بأوائل الأعمال والأراء التي كانت تحيط في أواخر القرن الماضى طليعة سابقة ، بل طليعة متجهة ، في مجال الإصلاح الاقتصادي والمذاهب الاشتراكية ، فذكر تحديد الملكية الزراعية وذكر تأمين المرافق العامة ومضت بعده خمسون سنة قبل أن يتيسر تنفيذ هذه الآراء في بلادنا الشرقية .

قال : « هذه إنجلندا مثلاً قد حمها ألف مستبد مالى من الإنكليز ليتمتعوا بثلثي أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرات ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة إنجلندا . وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالاً وستفوقها مالاً . وكم من البشر في أوروبا المتقدمة — وخصوصاً في إنجلترا وباريس — لا يجد أحدهم أرضاً ينام عليها متمدداً ، بل ينامون في الطبقات السفلية من البيوت حيث لا ينام البقر ، وهم قاعدون صفوياً يعتمدون بصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية ، يتلوون عليها يمنة ويسرة » .
(الكواكبى)

قال : « وحكومة الصين المختلفة النظام في نظر المتمدنين تحترم قوانينها أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو متراً مربعاً أي نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر دونماً عثمانية ، وروسيا المستبدة القاسية في عرف أكثر الأوروبيين وضع أخيراً لولاياتها البولونية والغربية قانوناً أشبه بقانون الصين وزادت عليه أنها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاج ، ولا تأذن لفلاح أن يستدرين أكثر من نحو خمسمائة فرنك ، وحكومات الشرق إذا لم تستدرك الأمر فتضيع قانوناً من قبيل قانون روسيا تصبح الأرضي الزراعية بعد خمسين عاماً ، أو قرن على الأكثر ، كإيرلندا الإنجليزية المسكونة » ..

وقال بعد أن قرر أن الشرط الأول لإحراز المال أن يأقى من بذل الطبيعة أو بالمقاييس أو في مقابل عمل أو مقابل ضمان :

« والشرط الثاني ألا يكون للتمويل تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال والضعفاء والتغلب على المباحث مثل امتلاك الأرضي التي جعلها خالقها ممراً لكافة مخلوقاته .. » .

* * *

وعلى هذا السبق إلى الإحاطة بالأراء المستحدثة يتبيّن من ثنايا أقواله العامة في الاقتصاد أنه كان يقتضي معارفه الاقتصادية من أصولها التي تقدم بها الزمن أحقاً طوالاً قبل عصر الميلاد . فلا شك في اطلاعه على قواعد الاقتصاد السياسي فيما كتبه أرسطو أو فيما نقل عنه . فإنه يحصر أسباب الرزق في مواردها الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرف هذه الموارد كما عرفها أرسطو حيث يقول عن الزراعة إنها استخراج ثمرات الطبيعة ، وعن الصناعة إنها تهيئة تلك المواد للانتفاع بها ، وعن التجارة إنها توزيعها على الناس ، « وكل وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية فهوى وسائل ظالمة لا خير فيها .. » .

وعند الكواكى أن الإنسان النافع لقومه لا بد أن يؤودى عملاً من

هذه الأعمال في أصوتها وفروعها التي لا تزال إلى اليوم مورداً للرزق المشروع في عرف خبراء الاقتصاد والسياسة ، وعلى كل فرد من أفراد الأمة « متى اشتد مساعدته أو ملأ قوت يومه ، أو النصاب على الأكثري ، أن يسعى لرزقه بنفسه أو يموت جوعاً » .

ثم يعطف فيقول : « وقد لا يتأتى أن يموت الفرد جوعاً إذا لم تكن حكومته مستبدة تضرب على يده وسعيه ونشاطه ... » .

فإذا حدث العجز عن كسب الرزق بسبب قاهر غير الكسل والتقدير فالآمة مسؤولة عن إزالة هذا العجز أو معونة المبتلين به على المعيشة التي لا يقدرون على تحصيلها ! « فالعدالة المطلقة تقضي أن يؤخذن قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل » .

وهذه سياسة تحررها أمم الغرب الحديثة لإثارة لسلامة بعد أن وضع لها وبال العاقبة من جراء الظلم في توزيع الثروة . ولكنها فريضة يقررها الإسلام ديناً ويعين عليها اتباع أحكامه . لأنه يقرر صرف العشر والزكوة في المصارف العامة ومنها سداد الديون : « ولا يتحقق على المدقق أن جزءاً من أربعين من رؤوس الأموال يقارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمائة سنوياً » .

ويقول الكواكبى — ولعله يجتمع في ذلك إلى الأخذ بالذهب الظاهري — إن الأرض الزراعية ملك عام للأمة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط ، وليس عليهم غير العشر أو المراج النوى لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال » .

فالمعيشة الاشتراكية — في حكم الدين والسياسة الرشيدة — هي « أبدع ما يتصوره العقل ... لو لا أن البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يكفى لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأم الكبيرة ... » .

وعلى هذا ينخالص برنامج الكواكبى الذى اختاره لتدبر الثروة العامة فى الاشتراكية الذى تقوم على المبادئ التالية :

- (١) تعميم العمل المشر بـن أفراد الأمة وتحريم الكسب بغیر عمل مشروع ..
- (٢) اجتناب التمييز بين أفراد الأمة بغیر مزية لازمة للمخدمة العامة ..
- (٣) اجتناب التفاوت المفرط في توزيع الثروة بين الأفراد أياً كان حظهم من التفاوت في الكفاءات والأعمال ..
- (٤) قيام المجتمع على التعاون والتضامن بين العاملين فيه ، وإزالة أسباب العجز عن الكسب أو معونة العاجزين عنه لضرورة من ضرورات المرض والحرمان ..
- (٥) تأمين المرافق العامة ومنع الاحتكار ..

وبهذه المبادئ على عمومها يدخل الكواكبى في زمرة الاشتراكين لا مراء ، ويلتئى بأهم المذاهب الاشتراكية في أصل من أصولها الكبرى ، ويکاد أن يجري مع القائلين بالتفصير الاقتصادي التاريخي في مجال واحد لو لا فارق عظيم في تعريف المال ترتبط به فوارق كثيرة ..

فالمال عند أصحاب التفسير الاقتصادي مقصود على العملة وما تشير إليه .. والمال عند الكواكبى هو « كل ما ينفع به في الحياة » ... « فالقرة مال ، والوقت مال ، والترتيب مال ، والشهرة مال .. » .

نعم . وكل ما يجري فيه المنع والبذل كما يقول صاحب القانون ، أو تسعاوض به القوة كما يقول صاحب السياسة ، أو تحفظ به الحياة الشريفة كما يقول صاحب الأخلاق ، فهو مال ..

و « المقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما وهو تحصيل المدة أو دفع ألم ... والحكم العدل في طيب المال وخبشه هو الوجдан الذى خلقه الله صبغة للنفس وعبر عنه في القرآن بقوله تعالى « فأهلهها فجورها وتفواها » .. والوجدان هو مرجع الاختيار أولاً وآخرأ، بين المال الحلال والمال الحرام ..

التربية القومية

تفيد كلمة التربية في كتاب الكواكبى مقصدين : أحدهما التربية العامة وتشمل كبار الأمة وصغارها ، وهى التى تتكلف بهذيب الصفات القومية وتوفير عدة الأمة من الأخلاق والعادات جيلاً بعد جيل .

والآخر تربية الناشئين في المدارس ومعاهد التعليم وترويدهم بما ينفعهم وينفع أمتهم في أعمالهم الخاصة وأعمالهم المشتركة .

وعنده أن الحكومات المتطرفة كما قال في طبائع الاستبداد « تولى ملاحظة تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء . وذلك بأن تنس قوانين النكاح ثم تعتنى بوجود القابلات والمقحبين والأطباء ثم تفتح بيوت الأيتام للقطاع ثم المكاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجرى إلى أعلى المراتب . ثم تسهل الاجماعات وتمهد المراسع وتحمى المنتديات وتحجع المكتبات والآثار وتقيم النصب المذكورة وتضع القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق وتسهر على حفظ العادات القومية وإنماء الإحساسات الملبية وتقوى الآمال وتبسر الأعمال وتومن العاجزين عن الكسب من الموت جوعاً ، إلى أن تقوم باحتفالات جنائز ذوى الفضل على الأمة .. » .

وقد ألف الكواكبى « أم القرى » قبل تأليفه « طبائع الاستبداد » فأحصى بلسان المسلم الإنجليزى بعض مقومات التربية العامة التي يعنيها الغربيون وهي بعبارته :

« تخصيصهم يوماً في الأسبوع للبطالة والتفرغ من الأشغال الخاصة لتحصل بين الناس الاجماعات وتنعقد الندوات فيباحثون ويتناجرون .

« وتخصيصهم أياماً يتفرغون فيها للتذاكر مهمات الأعمال لاغاظم رجالهم الماضين تشويقاً .

وإعدادهم في مدنهم ساحات ومنتديات تسهيلًا للاجتماع والمذكرات وإلقاء الخطاب وإبداء التظاهرات.

وإيجادهم المتنزهات الزاهية العمومية وإجراء الاحتفالات الرسمية والمهربجات بقصد السوق للاجتماعات.

وإيجادهم محلات التشخيص المعروف بالكوميديا والقياترو بقصد إراعة العبر واسترعاء السمع للحكم والواقع ولو ضمن أنواع من الخلاعة التي اتخذت شاباكاً لمقاصد الجمع والأسماع ويعتبرون أن نفعها أكبر من الخلاعة.

ومنها اعتمادهم غاية الاعتناء بتعظيم معرفة تواريختهم المليئة المفصلة المدجحة بالعلل والأسباب لحب الجنسية.

ومنها حرصهم على حفظ العادات المنبهة وادخار الآثار القدمة المنوهة واقتناء النفائس المشعرة بالمفاخر:

ومنها إقامتهم النصب المفكرة بما نصبت له من مهمات الواقع القدمة.

ومنها نشرهم في الجرائد اليومية كل الواقع والمطالعات الفكرية.

ومنهم بهم في الأغاني والنشائد الحكم والحماسات ، إلى غير ذلك من الوسائل التي تنشئ في القوم نشأة حياة اجتماعية .

ولا تم في الأمة تربية قومية بغير تعلم المرأة كما قال في أم القرى : « إن ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » .

وهذا فضلاً عن سوء تأثيره في الرجال من الأزواج ، لأن الرجل كما قال : « يغره أنه أمامها — أى أمام زوجته — وهي تتبعه فيظن أنه قائد لها والحقيقة التي يراها كل الناس من حولهما دونه أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع » .

ويفسر الكواكبى حجاب المرأة الشرعى بأنه « محدود بعدم إبداع الزينة للرجال الأجانب وعدم الاجتماع بهم في خلوة أو لغير لزوم » لأن الحجاب بهذا المقدار يكفى من سوء تأثير النساء ويفرغ أو قاتهن لتدبر البيوت « توزيعاً لوظائف الحياة » .

ويرى الكواكبى أن « جهالة النساء المفسدة للنشأة الأولى وقت الطفولية والصبوة » هي علة من أكبر العلل التي أصابت الحياة القومية في الشرق بداع « الغرارة » كما سماه وفسره بالقصور عن طلب « الإتقان » في أعمال العاملين وإن كان لهم علم بما يعملون ويشرفون عليه .

فالذين يفهمون صناعاتهم من الشرقيين غير قليلين ، ولكنهم ، يقنعون بالفهم ولا يجيدون العمل ولا يذهبون فيه إلى غايتها التي تخلقه من التقصص وتحمّل له مزايا الإتقان والوفاء ، لأن الفهم شيء يقدر عليه المرء قبل التطبيق ، وإنما يظهر الإتقان أو التقصص عند تطبيق الأعمال التي يتدارها الناس ، فلا يقع الإتقان حيث يشتمل أمره على الناس في معاملاتهم وحيث يتهاونون فيه ولا يطلبونه أو يبذلون فيه حقه ، وهنا يظهر أثر « التربية القومية » في المعاملات ، أو يظهر الفارق البالغ بين فهم العمل والعنایة باتقانه واجتناب التقصص والتقصير فيه .

ومن الأمثلة التي أوردها الكواكبى على الغرارة في كبار الأعمال وصغارها أننا نتّوهم « أن شئون الحياة سهلة بسيطة فنظن أن العلم بالشيء إجمالاً ونظرياً بدون ثمرة عليه يمكن للعمل به » ، فيقدم أحدهنا مثلاً على الإمارة بمجرد نظره في نفسه أنه عاقل مدبر ، قبل أن يعرف ما هي الإدارة علمًا ويتمرن عليها عملاً يكتسب فيها شهرة تعينه على القيام بها ... ويقدم الآخر منا على الاحتراف — مثلاً — ببيع الماء للشرب بمجرد ظنه أن هذه الحرفة عبارة على حمله قربة وقدحًا وتعرضه للناس في مجتمعاتهم ولا يرى لزوماً لتلقي وسائل إتقان ذلك عن يرشده مثلاً إلى ضرورة النظافة له في قربته وقدحه وظواهر هيئته ولباسه وكيف يحفظ برودة مائه وكيف يستبرقه ويوجه ليشهى به ، ومنى يغلب

العطش ليقصد المجتمعات ويتحرى منها الخالية له عن المزاحمين ، وكيف يتزلف الناس ويوهم بلسان حاله أنه محترف بالإسقاء كفأاً للسؤال ، إلى نحو هذا من دقائق إتقان الصنعة المتوقف عليها نجاحه ، وإن كانت صنعته بسيطة حقيقة » .

والشخص في رأى الكواكب علاج نافع لشفاء الأمم الشرقية من هذه الغرارة لأن « الكياسة لا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط ... وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . فالعقل من يشخص بعمل واحد » .

ولا غنى — مع الشخص — من الترتيب على أنواعه ، ومنها ترتيب أوقات المساء حسب أشغاله وإهمال ما لا يتسع الوقت له أو تفريضه إلى غيره ، ومنها ترتيب النفقة على قدر الكسب المضمون ، ومنها ترتيب أمر المستقبل « لإراحة نفسه من الكد في دور العجز من حياته ، فيربى أولاده ذكوراً وإناثاً » ليسعني كل منهم بنفسه متى بلغ أشدده .

ومن الترتيب المطلوب أن يرتب المساء أموره الأدبية على نسبة حالته المادية ، وأن يرتب ميله الطبيعي للمجد والتعالى على حسب استعداده فلا يتطاول إلى مقامات لا يبلغها .

• • •

ويكثر الكواكب من الحض على التشبه بالغربيين في بعض صفاتهم القومية وأشرفها في تقديره [صفات الولع بالمعرفة] واليقطة الاجتماعية والاستعداد بالقوة والمنعة ، ولكنه يشقق من الإفراط في الإعجاب بأم الغرب أن يشول إلى استكانة الشرقيين أمامها وفقدانهم للثقة بأنفسهم في معاملتها ويعيب على غالب أهل الطبقة العليا من الأمة كما قال بلسان السيد الغراني أو بلسانه هو في أم القرى : « إنهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ويتفاصلون عن كل عمل ويحجمون عن كل إقدام ويتوّعون الخيبة في كل أمل ، ومن أقبح آثار هذا الخور نظرهم الكمال في الأجانب

وأتباعهم فيها يظنونه رقة وطرافة وتمدناً ، وينخدعون لهم فيها يفشو نهم به كاستحسان ترك التصلب في الدين والافتخار به .. » .

وهو على إعجابه بالمستحسن من أخلاق الأوربيين القومية لا يرى أنهم سلموا من العيوب في جملة أخلاقهم القومية وياخذ عليهم كما قال في باب الاستبداد والأخلاق من « طبائع الاستبداد » أنهم ماديون و « إن الغربي حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلها له مسيحية الشرق . فاجرامي مثلًا جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ويرى كل الفضيلة في القرفة وكل القوة في المال . فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب الحسد ولكن لأجل المال ، واللاتيني مطبوع على العجب والطيش يرى العقل في الإطلاق والحياة في خلع الحياة والشرف في الزينة واللباس والعز في التغلب على الناس » .

وهذه هي المآخذ التي يقابلها عند الشرقيين كما قال بعد ذلك « إنهم أدبوون يغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان والرحمة ولو في غير موقعها واللطف ولو مع الخصم والفتوة والقناعة والتهاون في المستقبل . ولهذا ليس في شأن الشرقي أن يجوز ما يستبيحه الغربي وإن جوهره لا يحسن استثاره ولا يقوى على حفظه .. ويهم في شأن ظالمه المستبد فإذا زال لا يفكري فيما يخلفه » .

بل هو يرى للشرق رسالة باقية في هداية الإنسانية وإنقاذه من طغيان الحضارة المادية التي يهادى فيها الغرب ويوشك أن يتردى في هاوية من عواقبها لا نجاة له منها بغير مدد روحي من الشرق كالمدد الذي تلقاه العالم من أديانه الأولى ، ويناشد الغرب في ختام كتاب طبائع الاستبداد فيقول : « يا غرب ! لا يحفظ لك الدين غير الشرق إن دامت حياته بحريته ؛ وإن فقد الدين يهددك بالخراب القريب » ويسترسل سائلًا وكأنه ينظر بلحظة الغيب إلى طغيان مذاهب الهدم المجهود : ماذا أعددت للفوضويين إذا صاروا جيشاً جراراً ؟ هل تعدد لهم المواد

المفرقة وقد جاوزت أنواعها الألف ؟ أم تعدد لم الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان ؟ » .

فمساك التربية القومية فيما أوصى به الكواكب أنها نهضة مفتوحة العينين تمضي على بصيرة وثقة ولا تستسلم للإعجاب الذليل ولا للمحاكاة العمياء ، وأنها مملكة « تحصل بالتعليم والمرتدين والقدوة والاقتباس ، أهم أصولها وجود المربيين وأهم قروعها وجود الدين » .

وما من أمة تأخذ بأسباب هذه التربية يعيها أن تدرك الغاية من نفعها ، وأول الأسباب صدق الرجاء في إدراك تلك الغاية كما قال في مقدمات أم القرى : « فلا يهولنا ما ينبع في جمعيتنا من تفاصيم أسباب الضعف والفتور كي لا نبخل من روح الله ، ولا نتوهم الإصابة في قول من قال إننا أمة ميتة فلا ترجي حياتنا . كما لا إصابة في قول من قال إذا نزل الضعف في دولة أو أمة فلا يرتفع . فهذه الرومان واليونان والأمريكان والطليان واليابان وغيرها — كلها أمم أمثالنا استرجعت شأنها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الأدبية للحياة السياسية » .

وإنما هي حضانة علم وحضانة أخلاق ، وعشرون سنة تقوم بحضانة العلم ، وأربعون سنة تقوم بحضانة الأخلاق . إذا كانت عشرون سنة كافية لتخريج فتات من المتعلمين يهتدون دراسة من مكاتب التعليم الأولى وينتهون بها إلى معاهد التخصص والإحاطة بأدوات العمل والصناعة ، وإذا كانت تربية الأخلاق إنما تم بتدريب الجيل كله على سنتها وعادتها ، وحدها الأوسط أربعون سنة تنتقل بالأمة من جيل إلى جيل .

وتتبع التربية القومية ، بل تسبقها في دور النهضة ، تربية « المرتدين

أو الزعماء الذين يقودون الأمة ويرسمون لها طريقها ويصرون على تدريبيها وتصحيح أخطائها .

وقد رأينا يقول إن للنضرة أصولاً أهمها وجود المربين ، وسرى أنه — كدأبه في وصاياه الجامدة — لم ينس أن يوصى بالخطة التي تجيء لمؤلف المربين أن يروضوا أنفسهم ويعدوا عقولهم وضاربوا لهم للصبر على متابعيهم وتذليل عقبائهم ونسيان « ذواتهم » في سبيل رسالتهم ، وهي رياضة صارمة قوية تجمع بين الشدة العسكرية والزهادة الصوفية ، وخلاصتها كما جاء في ختام طبائع الاستبداد :

- ١ - أن يجتهد المرشد في ترقية معارفه لاسيما العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد ، والفلسفة العقلية وتاريخ قومه من جوانبه الجغرافية والطبيعية والسياسية ، مع النظر في الإدارة الداخلية والإدارة الحربية .
- ٢ - أن يتقن العلوم التي تكسبه الاحترام بين قومه .
- ٣ - أن يحافظ على الآداب والعادات .
- ٤ - أن يقلل الاختلاط بالناس حفظاً للوقار واجتناباً للارتباط القوى بأحد ، كيلا يسقط بسقوطه .
- ٥ - أن يتتجنب مصاحبة الممقوت عند الناس لاسيما الحكام .
- ٦ - أن يجتهد ما أمكنه في كتم مزيته العلمية عن دونه ليأمن من غواص حسدهم ، وإنما عليه أن يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .
- ٧ - أن يتخير من ينتمي إليه من الطبقة العليا ولا يكثر التردد عليه ولا يظهر له الحاجة .
- ٨ - أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه لكيلا تؤخذ عليه تبعاتها .
- ٩ - أن يحرص على أن يعرف بحسن الأخلاق ولا سيما الصدق والأمانة والثبات .

١٠ - أن يظهر الشفقة على الضعفاء والغيرة على الدين والعلاقة بالوطن .

١١ - أن يتبعه من مقربة المستبد وأعوانه إلا بقدر ما يأمن شرهم إن كان معرضًا للذلة .

قال بعد سرد هذه الصفات : « فن يبلغ سن الثلاثين - فما فوق - حائزًا على الصفات المذكورة يكون قد أعد نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه ... وبهذه الثقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز » .

وربما بالغ الكواكب في التوصية باجتناب المظاهر الذي يثير الحسد وينغرى بالمقاومة في دور الدعوة والإقناع وتأليف الأنصار والأعوان ، بل قد يبلغ من الحرص على ذلك أنه أثبته في خاتمة أم القرى فجعل « مظهر الجمعية العجز والمسكنة وأوصاها في القضية السابعة والأربعين بـ لا تقاوم ولا تقابل إلا بـ أساليب النصيحة والمواعظة الحسنة وتلاطف وتجامل جهدها من يعادى مقاصدها .. إلا في الضرورات » .

إلا أنه لا ينكر على المصلح الذي انقادت له زعامة الأمة أن يدفعها دفعاً إلى التقدم والتحير . لأنه يقرر غير مرأة أن بلاء الشرق « فقد السراة والهداء » فلا أمير عام حازم مطالع يسوق الأمة طوعاً أو كرهاً إلى الرشاد ، ولا حكيم معترف له بالنزاهة والإخلاص تنقاد له الأمراء والناس ، ولا تربية قوية ينتج منها رأى عام لا يطرقه تخاذل وانقسام » .

التربية المدرسية

تنظيم التربية المدرسية عمل يستقل به خبراؤه المختصون بالإشراف على إدارة المدارس وتحضير مناهج التدريس ، وفي وسعهم أن يحصروا المعلمين وال المتعلمين ويقسموا لمعاهد التربية مراحلها التي تكون لأوقات الاستعداد وأوقات التكملة والانهاء ، على حسب الحاجة المتتجددة إلى كل صنف من أصناف الدراسات .

وربما بدأت أعمال هؤلاء الخبراء عند نهاية العمل السابق الذي يتصدى له الإمام المصلح لحث الأمة على افتتاح المدارس وتعليم الأبناء ، فليس «تصنيف» المواد المدرسية من عمل الإمام المصلح في دور التربية والاستئناس والخض على طلب العلم كله ، كائناً ما كان .

ولكن الإمام الكواكبى قد نشأ في عصر ثقافى مزدهر ملتبس المظاهر بالحقائق كثیر البقایا من الماضي والطلائع من المستقبل ، فاضطر إلى مهمة من مهام «التحلیص» بين البقایا والطلائع ووجبت عليه المشاركة في «تصنيف العلوم» المدرسية لتميز على الأقل صفة العالم الجدير بمكانة الإرشاد والهداية وصفة العلم الذي يفضل في رسالته الأولى وهي كفاح الاستبداد والدعوة إلى الحرية .

وكذلك كان العلم عنده علمن : علم يطمئن إليه الاستبداد ولا يخاف عقباه ، وعلم يعرف به الإنسان «أن الحرية أفضل من الحياة» ويدرك به «النفس وعزها وشرف وعظمتها ، والحقوق وكيف تحفظ ، والظلم وكيف يرفع ، والإنسانية وما هي وظائفها ، والرحمة وما هي لذاتها» .

ومن الظروف الثقافية التي أطلقها في عصره إلى المشاركة العامة في مناهج التربية المدرسية أن العلم كان في بعض المراسم « منحة » حكومية تخلق على طائفة من أصحاب الحفوة من المهد بغیر حاجة إلى مدرسة ولا إلى دروس *شیخ المذاہب*

فالطفل من طائفة « زادكان » أي الأصلاء ينعت في المنشور الرسمى عند ولادته (بأنه أعلم العلماء المحققين) ... ثم يكون فطيمًا فيخاطب بأنه (أفضل الفضلاء المدققين) ... ثم يصير مراهقاً فيعطي الملووية ويشهد له بأنه (أقضى قضاء المسامين معدن الفضل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارت علوم الأنبياء والمرسلين) ... ثم يكبر فيوصف (بأعلم العلماء المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ينبعون الفضل واليقين) إلى آخر ما في تلك المنشآت من الكذب المبين .

يقول الكواكبى بلسان المولى الرومى بعد ما تقدم : « ولا ريب أن التسعين في المائة من هؤلاء العلماء المتبحرين لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ، كما أن الخمسة في المائة من أولئك المتورعين رافعى أعلام الشريعة والدين يحاربون الله جهاراً ويستحقون ما يستحقون من الله وأملاكته والمؤمنين » .

ثم يقول : « ويكتفى حججه عليهم ... تمييزهم جمیعاً بلباس عروس محل بکثیر الفضة والذهب مما هو حرام بالإجماع ولا يحتمل التأويل ... اقتبسوا هذا اللباس من كهنة الروم الذين يلبسون القباء والقلنسوارات المذهبة عند إقامة شعائرهم وفي احتفالاتهم الرسمية ... » .

وأمر هؤلاء « العلماء » بغیر علم وبغیر تعلم مفروغ منه ، لا يحتاج من الدولة إلى أكثر من المنشورات الرسمية لإعداده وتمكينه من مناصبه ، ولا يحتاج من الإمام المصلح في دور النهضة إلى أكثر من التنبية إليه لامسقاط شأنه والإعراض عنه .

لكن الشأن الذي لا يغنى فيه مثل هذا التبيه إنما كان شأن « العلماء »
بنوع من العلم المطلوب في معاشه و لكنه لا يلتقي بالإصلاح في طريقه
أو يلتقي به في بعض الطريق ويتولى عنه في سائرها .

من هؤلاء طائفة العلماء الجامدين على التقليد ، ولا يعنهم من العلم
غير الإسلام بأشكال الفرائض والشعائر على مسنة التقليد الأعمى بغير نظر
في حكمها ومعناها ، ومن هؤلاء من كان يحرم تعلم الأبناء دروس
الجغرافية الحديثة لأنها تعلمهم أن الأرض مستديرة وأنها تدور حول الشمس
وتدور حول نفسها ، خلافاً لما توهموه من معنى انبساط الأرض
وامتنارها أن تميد بمن عليها ، ومن هؤلاء من كان يستریب بالטלفون
لأن انتقال الصوت على مدى الفراسخ والأممال من فعل الشيطان ولن
يؤذن له أن يفعله بعد سليمان ! .

وأحسن من هؤلاء حالاً من كانوا يبحرون المعرفة بالعلوم الحديثة
ولكنهم يحرمون أسماءها ولا يجيزون تدريس الظواهر الطبيعية إلا أن تسمى
« بعلم الخصائص التي أودعها الله سبحانه وتعالى طبائع الأشياء .. » .

وأحسن من هؤلاء من كانوا يسمحون بتعلم جميع العلوم ويقتصرن
النفع منها على تخرج الموظفين وصناع المعامل التي تديرها الحكومة
لخدمة أغراضها وماربها . وقد كان في بلاد الدولة العثمانية ولاة يفتحون
المدارس ويعشون العوثر إلى بلاد القارة الأوربية لتحصيل الصناعات
والعلوم العملية والنظرية التي تعليم على تنظيم الدواوين وإدارة مصالح الرى
والزراعة وتعمير الخزانة العامة لمنفعتهم أو منفعة السلطة الحكومية ،

ونشأ مع هذه « التصنيفات المدرسية » صنف من العلوم قد تعم الحاجة
إليه في توسيع نطاق الثقافة وتنويع أبواب المعرفة ، وهو العلوم الفكرية
الكمالية من فلسفة وبلاغة وتحليل لأصول التشريع والتاريخ وما إليها ،
ولكنها مما يحتمل الإرجاء إلى ما بعد النوبة الأولى من وثبات الإصلاح
أفي رأى بعض القادة الذين يرتبون أدوار الثقافة بترتيب الضرورات

الفردية ، ولا يحسبون حساباً كبيراً لفارق بين ضرورات الأمم وضرورات الأفراد .

• • •

في مثل هذا العهد من عهود التنازع على اختيار العلوم المقدمة يتجه الإمام المصلح إلى المشاركة في عمل الخبير المدرسي المتفرغ لتصنيف علوم الدراسة وإعداد مناهج التربية في مراحلها المتتابعة .

وقد اضطر الكواكبى إلى المشاركة في هذا العمل ، ونظر إليه — كعادته — من زاويته التي هي أولى عنده بالتقديم من كل زاوية ، وهى ناحية النظر إلى الاستبداد وما يخشاه المستبد من العلوم وما لا يخشاه ، وما هو أحق — من ثم — بالابتدار به والتعويل عليه في كل هبة تبعث لطلب الحرية وكافحة الاستبداد .

قال في طبائع الاستبداد : « المستبد لا يخشي علوم اللغة — تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمان ... نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الألوية أو يصر بيان محل عقد الجيوش ، لأنه يعرف أن الزمان ضئيل وأن تلد الأمهات كثيراً من أمثال الكيبيت وحسان ، أو أمثال منتسكيو وشيلار ، وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، المختصة بما بين الإنسان وربه ، لاعتقاده أنها لا ترفع غبارة ولا تزيل غشاوة ، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم حتى إذا صناع فيه عمرهم ، وامتلأت بها أدمعهم ، وأخذت منهم الغرور ما أخذ فصاروا لا يرون علمًا غير علمهم ، فحيثئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خر . على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا مزية بين العوام لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسد أفواههم بلقيمات من فنات مايدة الاستبداد » .

• • •

ويقول الكواكبى بلسان الرياضى الكردى فى أم القرى : « إن السبب العام هو أن علماءنا كانوا اقتصرت على العلوم الدينية وبعض الرياضيات وأهملوا باقى العلوم الرياضية والطبيعية التى كانت إذ ذاك ليست بذات بال ولا تقييد سوى الجمال والكمال . فقد أهلها من بين المسلمين واندرست كتبها وانقطعت علاقتها فصارت منفوراً منها .. والمرء عدو ما جهل ، بل صار المطلع إليها منهم يفسق ويزرم بالزيع والزندقة ، على حين أخذت هذه العلوم تنمو في الغرب ، وعلى كر القرون ترقى وظهرت لها ثمرات عظيمة في كافة الشؤون المادية والأدبية .. » .

علوم الرياضة والطبيعة التى كانت قبل بضعة قرون مجموعة من المعادلات النظرية والحواطر الفكرية هي التي تطورت بها نهضة الثقافة في الغرب فأصبحت في طبعة علوم النورة والعمل : وقام عليها تقسيم المتخصصين للكشف والاختراع واستطلاع حقائق المادة واستنباط القوانين التي تحكمها وتفسرها .

ولازمتها علوم نظرية ولكنها لازمة لتوسيع الثقافة العامة ولا سيما ثقافة القادة المتعلمين إلى كفالة النهضة في أوائلها ، ولذلك يوصى الشاب الذى يتطلع إلى هذه القيادة أن « يوسع معارفه مطلقاً » ولا سيما في العلوم الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية والتاريخ والجغرافية والإدارة الداخلية والإدارة الحربية .. وسائر ما نسميه في هذا العصر بالمعلومات العامة .

وإذا أراد هذا الشاب أن يكسب في قومه « موقعاً محترماً » فلا غنى له مع سعة معلوماته العامة من الاختصاص بأحد العلوم التي يشعر الناس بقدرها كعلم الدين أو الطب أو الإنشاء أو الحقوق .

• • •

على أن التربية المدرسية — تربية أبناء الأمة — تبدأ قبل المدرسة

ولا تنتهي بانتهاها كما قال في طبائع الاستبداد : « إن التربية تربية الجسم وحده إلى سنتين وهي وظيفة الأم وحدها ، و التربية النفس إلى السابعة وهي وظيفة الآبدين والعائلة معاً ، ثم تضاف إليها تربية العقل إلى البلوغ وهي وظيفة المعلمين والمدارس . ثم تأتي تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج وهي وظيفة الصداقه ثم تأتي تربية المقارنة وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق » .

فال التربية الفردية ، على هذا ، قصة محبوبة الطرفين بين حجر الأموية في الطفولة الباكرة وبين كنف الزوجية بعد استواء السن وتقديرها ... لا جرم يكثر الحضن في كلام الكواكب على تصحيح وظيفة المرأة في الحياة والتحذير من جهلها وسوء تربيتها والانحراف بها عن سوائها ، فان النساء كما جاء في طبائع الاستبداد اقتسمن مع الرجال أعمال الحياة قسمة ضئيل ... « وجعلن الشجاعة والكرم سيدتين فيهن محدثتين في الرجال ، وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ويظلم أو يظلم فيعان ، وعلى هذا القانون يربين البنات والبنين ويتعلعن بعقول الرجال كما يشأن ... ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقى المضاعف . فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الأعمال والمرات فتعيش كما يعيش ، والحضارية تسلب الرجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلات وتعينه في أعمال البيت ، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتؤود ألا تخرج من الفراش ، وهكذا تترقى بنات العواصم في أسر الرجال . وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوروبية أن تسمى المدنية النسائية لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء » .

يكتب الكواكب في جميع مباحثه بقلم الباحث المخلل الذي يزن
راغه عزيزان المنطق العلمي والتجربة العملية ، وينحو هذا النحو في كتابته
عن الأخلاق وفي كتابته عن السياسة الحاضرة أو التاريخ الغابر ، ولكنه
يصل إلى بعض الصفات في سياق كلامه على الأخلاق فيخبل إلتك أنه
يود لو يدع القلم جانباً ليأخذ بيده ريشة النغم ويترنم وهو يتكلم ، وأول
هذه الصفات صفة الإرادة وصفة الحرية ، رسائل الصفات التي تلغى
الاستبداد أو يلغى الاستبداد .

يقول في باب الأخلاق من طبائع الاستبداد : « ما هي الإرادة ؟
هي أم الأخلاق . هي ملأ قيل فيه تعظيمًا لشأنها : لو جازت عبادة غير
الله لاختار العقلاه عبادة الإرادة . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان
عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فالأسير إذن دون الحيوان
لأنه يتحرك بارادة غيره لا بارادة نفسه » .

ثم يقول في وصف الأسير مسلوب الإرادة : « لانظام في حياته
فلا نظام في أخلاقه . قد يصبح غنياً فيصبح شجاعاً كريماً وقد يمسى
فقيراً فيبيت جانباً حسيناً ، وكذا كل شئونه تشبه الفوضى لا ترتيب
فيها ، فهو يتبعها بلا وجهة . أليس الأسير قد يبغى فيزجر أو لا يزجر ،
ويبغى عليه فينصر أو لا ينصر ، ويحسن فيكافأ أو يرافق ويسيء كثيراً
فيقى وقليلاً فيشنق ، ويجوع يوماً فيضوى وينصب يوماً فيتختم ، ويريد
أشياء فيمنع ويأبى شيئاً فيرغم .

وما قاله عن الحرية في أم القرى : « إن البلية فقدنا الحرية . وما
أدرانا ما الحرية ؟ هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه ، وحرم علينا لفظه حتى
استوحشناه » .

ثم قال : « إن الحرية أعز شيء على الإنسان بعد حياته .. بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت» التفوس وتعطل الشرائع وتحتل «القوانين» .

وقد عرفنا من كل ما كتبه هذا المفكر العامل أنه « منطقى مع نفسه في مذاهب تفكيره .. ولكن ما كتبه عن الإرادة والحرية بصفة خاصة أدل على هذه السليقة فيه ، أو أعمق دلالة عليها ، من مسائل كثيرة طرقها ولا يستغرب فيها أن تتناسق وتتعدد على وثيرة واحدة لظهور العلاقة بينها . وإنما اختصاص الإرادة والحرية بالتجيد والتقديس آية من الآيات الصادقة على أصالة التفكير والشعور فيما يكتب عن هذه الأمور ، أو هو آية على نفس مطبوعة بتفكيرها وإحساسها على إدراك مساوئ الاستبداد والقطنة لمواطن ضرره ومواطن طبه وعلاجه ، فلا الشجاعة ولا الكرم ولا العفة ولا المروءة تصور الخلق المطلوب في مناضلة الاستبداد كما تصوره الإرادة والحرية ، ولا شيء ينفع في ذلك النضال مع فقدان الإرادة والحرية ، ولابد أن تقرننا معًا ل تمام الأهة في ثورة الأمة على المستبد ، لأن الإرادة بغير حرية تبع لصاحب السيادة ، ولأن الحرية بغير إرادة تفقد الباعث على الحركة فلا تدرى لها ^{أوجهه} إنذهب إليها . ولعل العبد يعتزم ويريد ويصمد على عزمه وإرادته في خدمة سيده فلا جدوى لغير هذا السيد في ملكرة الإرادة التي يتصف بها عباده ومطیعوه » .

والاستبداد — كما لا يخفى — يتلخص في تغليب إرادة واحدة لا تسمح بإرادة أخرى تعمل إلى جانبها على خلاف هواها . فليس من الطبيعي أن يبقى لمن خضعوا له طويلاً عمل يريدونه لأنفسهم ويتذمرون منه فيما بينهم ، فلا تعنيهم إرادة غير إرادة الحاكم المسلط عليهم ولا يشغلهم شاغل في حياتهم غير الحرف من غضبه والسعى إلى رضاه ، وشر من

عملهم له راغمين خوفاً منه ، أن يعملوا له راضين جهلاً بحقيقةه وانقياداً
لخداعه وخداع أذناه ومؤيديه .

والواقع أن مؤلف طبائع الاستبداد قد حصر مشكلة الأخلاق
جميعاً في وضع واحد : خلاصته أنها « حرب إرادات بين الحاكم المطلق
والرعايا المحكومين . فاستطاع — من ثم — أن يحسم المشكلة حسماً سريعاً
بقسمة الأخلاق إلى قسمين متعارضين : قسم لمصلحة الحاكم المستبد وقسم
لمصلحة الرعايا المحكومين .

فن مصلحة المستبد شيع أخلاق الملوك والنفاق والريبة والأثرة
التي تشغل المحكوم بمنفعته القرية دون كل منفعة عامة ينتفع بها هو أو
ينتفع بها غيره بعد حين : « وأقل ما يؤثره الاستبداد في أخلاق
الناس أنه يرغم — حتى الأخيار منهم — على ألفة الريبة والنفاق ...
وأنه يعين الأشرار منهم على اجراء ما في نفوسهم آمنين من كل تبعية
ولو أديبة . فلا اعتراض ولا انتقاد ولا افتضاح . لأن أكثر أعمال
الأشرار تبقى مستوراً يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعية
الشهادة على ذي شر وعقبى ذكر الفاجر بما فيه . ولهذا شاعت بين
الأسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم : إذا كان الكلام من فضة فالسكت
من ذهب ، وقولهم : البلاء موكول بالمنطق ، وقد تغالي وعاظهم في سد
أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحكم النبوية ... » .

ومن آثار أخلاق الذلة والخضوع أنها تؤذى الأجسام فضلاً عن
العقل ، وتشيع المرض في بنية الحي كما تشيع المرض في ضميره ، وإن
في ذلك شاهداً يبيناً « يقاس عليه نقص عقول الأسراء المؤسأء بالنسبة إلى
الأحرار السعداء ، كما ظهر الحال أيضاً من الفرق بين في قوة الأجسام
وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الميئات » .

ومن سوء أثر الاستبداد أنه « يضعف الثقة بالنفس » ويفقد الناس

ثقة بعضهم ببعض « فينفع من ذلك أن الأسرى محرومون طبعاً من شرارة الاشتراك في أعمال الحياة ، يعيشون مساكين باشين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاصلين . والعاقل الحكم لا يلومهم بل يشفق عليهم ويلتمس لهم مخرجاً ويتبع أثر قول رسول الله القائل : اللهم ارحم قومي فانهم لا يعلمون ... ».

ولا بقاء للاستبداد إذا تعود الناس الاشتراك في الرأي والتعاون على العمل . فعلى هذا الاشتراك يقوم نظام الرعايا الأحرار في الأمم التي سقط فيها حكم الاستبداد وخلفته حكومة الأمة للأمة : « فيه سر الاستمرار على الأعمال التي لا تني بها أعمار الأفراد . نعم . الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم المتقدمة ، به أكملوا ناموس حياتهم القومية . به ضبطوا نظام حكوماتهم . به قاموا بعظامهم الأمور . به نالوا كل ما يغبطهم عليه أسرى الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويتشوقون إليه ، ولكن كل منهم يطعن الغبن لشركائه باتكاله عليهم عملاً واستبداده عليهم رأياً ، حتى صار من أمثالهم قوله : ما من متفقين إلا وأحدهم مغلوب ... ».

ويرى الكواكبى أن حكم الاستبداد قد استفحى بين المسلمين بعد إهمالهم حياة الجماعة والمشاورة بين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، وأن سبب الفتور الذى أصابهم — كما جاء بلسان خطيب من « خطباء » أم القرى « هو فقد الاجتماعات والمقاظفات ... إذ نسوا حكمة تشريع الجماعة والجمعية الحرج وترك خطباؤهم ووعاظهم — خوفاً من أهل السياسة — التعرض لشئون العامة ، كما أن علماءهم صاروا يسترون جنهم بجعلهم التحدث في الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يعني ، وأن إتيان ذلك في الجوامع من اللغو الذى لا يجوز . وربما اعتبروه من الغيبة والتجسس أو السعي بالفساد فسرى ذلك إلى أفراد الأمة وصار كل فرد لا يهم إلا خصوصية نفسه وحفظ حياته في يومه ، كأنه خلق أمة وحدة ... ».

ولما فرغ من قسمة الأخلاق بمقاييسه الدائم إلى قطبين متقابلين : أخلاق

الاستبداد وأخلاق الحرية ، أو أخلاق لمصلحة الحاكم المطلق وأخلاق لمصلحة الرعاع ، نظر في تقسيمها درجات على حسب المصلحة التي تعنى بها ، وأنواعاً على حسب نصيتها من الشرف والرقة .

فالمصالح التي تتحققها الأخلاق هي مصلحة الإنسان نحو نفسه ، ومصلحته نحو عائلته ، ومصلحته نحو قومه ، ومصلحته نحو الإنسانية ، وهذه هي الأخلاق العليا التي تسمى عند الناس بالناموس .

ثم هي أنواع « الخصال الحسنة الطبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة ... والخصال الكمالية التي جاءت بها الشرائع الإلهية كتحريم الإيثار والعفو وتنبيح الزنا والطمع ويوجد في هذا النوع ما لا تدرك كل العقول حكمة تعميمه فيتمثله المنتسبون للدين احتراماً ومحظياً ... والنوع الثالث الخصال الاعتيادية وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو التربية أو الألفة والتدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشتبك وتشترك ويفثر بعضها في بعض فيصير مجموعها تحت تأثير الألفة المديدة ... ، أو تنزلزل حينها يصادفها من استمرار الألفة أو انقطاعها ... فالقاتل - مثلاً - لا يستنكر شنيعته في المرة الثانية كما استقبحها من نفسه في الأولى ، وهكذا يخف الجرم في ومه حتى يصل إلى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعي له ، كما هي حالة الجبارين وغالب السياسيين الذين لا ترتج في قلوبهم عاطفة رحمة عند قتلهم أفراداً أو أملاً لغاياتهم السياسية إهراقاً بالسيف أو إزهاقاً بالقلم » .

وهنا يثول الأمر إلى مساوىء الاستبداد في إفساد الأخلاق . لأن ألفة الأحوال العامة تتبعه وتنطبع انطباع العادة في ظله : « ويكتفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراراً حتى يألفه ويصبر ملكرة فيه فيفقد ببساطة ثقة نفسه بنفسه » .

* * *

ولا يفوتنا - ونحن نختم القول في آراء الكواكب - أننا أمام « برنامـج عمل » يصدق عليه وصف « البر ناجـ » قبل أن يصدق عليه وصف الفلسفة

أو المذهب أو النظرية . فلم يكن يعنيه أن يدرس الأخلاق من وجهة الأصول العامة والمبادئ النظرية كما عناه أن يدرسها من زاوية النظر إلى الاستبداد وأثر الحكومة المستبدة التي يبدأ منها ويعود إليها في كل شرح من شروحه وكل سند من أسناده ، وهلذا اخترنا اسم « البرنامج » لفلسفته العملية . وآخرناه إنصافاً لمنهجه في التفكير وبرئته له من ضيق المحصر الذي يلازم الفكر المحدود فلا يخرج منه لأنه لا يقدر على تجاوزه لا لأنه مشغول في بحوزته بالأمر الذي يعنيه .

• • •

وسيلة التنفيذ

عرضنا فيما تقدم برنامج الإصلاح في دعوة الكواكب من أهم جوانبها السياسية والاجتماعية .

ويبدو من النظرة العاجلة — كما يبدو في إطالة النظر في هذه البرامج — أنها خطة ثورية لقلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب وإقامة الحكم القومي على أساس الشورى في تلك البلاد .

فما هي وسيلة الكواكب إلى تحقيق تلك الخطة الثورية ؟

إنه لم يكتسمها وإن أخرى غايتها التي لا تخفاء بها مع العلم بعقدمها . .

وسنرى أنه كان « واقعياً عملياً » في وسليته كما كان « واقعياً عملياً » في دعوته . فإن وسليته التي اطمأن إليها كافية لتحقيق الغاية القصوى كما يريدها ، وعلينا أن نذكر تلك الغاية القصوى ونحصرها في نطاقها لكي نعلم كفاية الوسيلة لتحقيق الغاية منها .

علينا أن نذكر أنه كان يريد قلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب ، ولم يكن ذلك موقوفاً على قلب هذا النظام في الدولة العثمانية أو قلب نظام الحكم في القسطنطينية عاصمة السلطان العثماني ومركز الحكومة التركية . فإن قلب الحكومة المستبدة في الدولة التركية قد يحتاج إلى وسيلة غير وسليته الختارة لتحرير بلاد العرب واستقلالها بشأنها ، سواء تم هذا الاستقلال دفعة واحدة أو جاء على درجات ترقى من الحكم الذاتي إلى تمام الاستقلال .

كان « الكواكب » عربياً بتفكيره وشعوره في ثقته الكبرى « بقوة الكلمة » أو قوة الدعوة المنتظمة . وتراءى هذه الثقة القوية بفعل الكلمة في إيقاظ الشعوب من عنوان كتاب « طيائع الاستبداد » الذي أرده على العلاف بسيطر

يقول فيه إنه «كلمات حق وصيحة في واد . إن ذهبت اليوم مع الريح لقد تذهب غداً بالأوتاد .

ومن ثقته بفعل الدعوة المتتظمة قوله في مقدمة أم القرى «أيقنوا أنها الإخوان أن الأمر ميسور وأن ظواهر الأسباب ودلائل الأقدار مبشرة أن الزمان قد استدار ونشأ في الإسلام أقطاب أحرار وحكماء أبرار ، يعد واحدهم بآلف وجمعهم بآلف ألف . فقوه جمعية متتظمة من هؤلاء البلاء كافية لأن تحرق طبل حزب الشيطان وتسترعى سمع الأمة مهما كانت في رقاد عميق وتقودها إلى النشاط وإن كانت في فتور مستحكم عتيق . لأن الجمعيات المتتظمة يتسرى لها الثبات على مشروعها عمرأً طويلاً يبي بما لا يبي به عمر الواحد الفرد وتأتي بأعمالها كلها بعزم صادقة لا يسدّها التردد . وهذا هو سر ما ورد في الأثر من أن يد الله مع الجماعة ، وهذا هو سر كون الجمعيات تقوم بالعظام وتتأتى بالعجبائب ، وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية ، وهذا هو سر النجاح في كل الأعمال المهمة ، لأن سنته الله في خلقه أن كل أمر - كلها كان أو جزئياً - لا يحصل إلا بقوه وزمان متناسبين مع أهمية ، وأن كل أمر يحصل بقوه قليلة في زمان طويل يكون حكم وأرسخ وأطول عمرأً مما إذا حصل بمزيد قوة في زمان قصير . وكلنا يعلم أن مسألتنا أعظم من أن يبي بها عمر إنسان لا ينقطع أو مسلك سلطان لا يطرد أو قوة عصبية حضورية حمقاة تفور سريعاً وتغور سريعاً

قال : «ولا ينبغي الاسترسال مع الوهم إلى أن الجمعيات معرضة في شرقنا لتيار السياسة فلا تعيش طويلاً - ولا سيما إذا كانت فقيرة - ولم تكن كفالب الأكاديميات ، أى الجامع العلمية ، تحت حماية رسمية ، بل الأليق بالحكمة والخزم الأقدام والثبات وتحقق الخير إلى أن يتم المطلوب » .

فهذه الوسيلة - وسيلة الكلمة الحية والدعوة المتتظمة - كافية صالحة لتحقيق غايتها ، مفضلة على الوسائل الأخرى التي قد يستخدمها الدعاة لقلب الدول وإقامة النظم وقيادة الشعوب من حال إلى حال .

فإذا انتشرت الفكرة بين قادة الرأي في البلاد العربية فقد تحقق ت نتيجة لا شك فيها ولا حاجة إلى نتيجة أكبر منها ، وهي تصعيب كل حكم للعرب بمخالف الدعوة وإخراج الدولة الحاكمة في بلادهم سواء عولت في حكمها على التعاون معهم أو اعتمدت على السطو وحدها لاخضاعهم وتطويهم ، وكلها مطلب عسير لا يطول عليه صبر الحكم الأجنبي ولا تطول فيه الحكومين .

أكان الكواكبى يزهد في الثورة الدموية أو يحجم عنها خوفاً من أخطارها؟ كلا . . . فقد فكر طويلاً في هذه الثورة وبحث كثيراً في أحوالها كما يظهر من استقصائه لجميع هذه الأحوال في خاتمة كتاب طبائع الامتداد . فوقر في خلده أن تدبّر هذه الثورة قبل إعداد العدة لما بعدها سطع في الرأي ومفهيمة للجهود ومحازفة بالنتيجة المرجوة ، ووقد في خلده — مع هذا — أن العامة لا يشرون في الأغلب الأعم إلا لأسباب محصورة قلما تجتمع في وقت واحد .

« فلا يثور غضبهم على المستبد إلا عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه ، أو عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوباً . . . أو عقب تظاهر المستبد بإهانة الدين . . . أو عقب تضييق شديد عام مقاضاة مال كثير لا يقىس إعطاؤه . . . أو في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى فيها الناس مواساة ظاهرة من المستبد . . . أو عقب تعرض المستبد لناموس العرض أو حرمة الجنائز أو تحقر الشرف الموروث . . أو عقب تضييق يوجب تظاهر عدد كبير من النساء . . أو عقب الظهور بعوala شديدة لمن تعتبره الأمة عدواً لشرها . . . » .

والمستبد — كما قال — لا تخفي عليه هذه المزالق مهما كان غبياً لا يغفل عن إتقانها .

وقد كاد الكواكبى يستقصى كل سبب يثير العامة ويبيح سخطهم على الحاكم لاسعاتهم على غير هدى منهم لغایتهم أو لعمل ينفعهم ، ويدل استقصاء الكواكبى لهذه الأسباب على طول تفكيره في تدبّر الثورة العامة حيث ترجى الفائدة من نشوئها ، وهي — في الواقع — لا ترجى لها فائدة قبل اتضاح المخطة

الى تعقبها و تستقر عليها و قبل تعميم الدعوة الى تلك الخطة بين القادرين على تحقيقها : « فإن معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل ، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئاً إذا جهل الطريق الموصل إليها . والمعرفة الإجمالية في هذا الباب — لا تكفي مطلقاً ، بل لابد من تعين المطلب والخطة تعيناً واضحاً موافقاً لرأى الكل أو لرأى الأكثريّة » .

ولم يكن هذا التأثر المتمكن من قواعد الثورة ليجهل فعل القوة العسكرية في تبديل النظم و تقويض الحكومات ، فقد كان يقول لصحبه ومن يخاطبهم بدعوته : « لو ملكت جيشاً لcapt حكومة عبد الحميد في أربع وعشرين ساعة » . وكان قصاراه من البيان في هذا الصدد أن يفضي به إلى ثقائه حيث لا يتأتى إعلانه في الصحافة المنشورة ولا جدوى من إعلانه ونشره . وعمن صرخ لهم بهذا الرأي « ابراهيم سليم النجاشي » الذي قال عنه في مجلة الحديث إنه لو لم يكن شيئاً دينياً لكان قائداً جيشه فاتح

نعم . هكذا كان ينبغي أن يفكر في تدبير الوسيلة لقلب حكومة عبد الحميد في القسطنطينية ، لأن دعوته إلى المهمة العربية لا تغنى شيئاً في محاربته السلطان القائم بالأمر في العاصمة التركية ما لم تسعده قوة السلاح . ولكته في دعوته التي تجرد لها لا يلقى بين يديه وسيلة أفعى من وسليته ولا يصل إلى نتيجة مرموقة أفضل من النتيجة التي يصل إليها بالكلمة الحية والجماعة المتضمنة ، وحسبه أن يبلغ بها حد الإقناع في قوته ليسقط كل حكومة تسوّسهم في عقر دارهم على غير اعتقادهم و اختيارهم . وإنما المسألة هنا مسألة وقت مقدور لا شك بعد انقضائه في الغاية التي تتوال إليها .

• • •

وأياً كان القول الفصل في كفاية الدعوة وحدتها لاستقلال العرب بالحكم الذاتي أو بالانفصال من الدولة فالحقيقة التي لا خلاف عليها أن الدعوة ألزم وسيلة من وسائل العمل النافع حين يكون المقصود إقناع أصحاب الحق بحقهم وتعزيز الثقة بأنفسهم وبإمكان الظفر بأمنيتهم ، قبل التغلب بوسيلة من الوسائل على غاصب الحق أو المعارض فيه . فإن زوال القوة الغاصبة قبل

اتفاق أصحاب الحق عليه وعلى الغاية من إدراكه قد يفتح أبواب الفتنة على مصاريعها ويمهد الطريق لغاصب ظارى بعده غاصب معزول .

ويقل الخلاف في مسألة الخلافة وكفاية الدعوة لإقامةها على الصورة التي تداولتها آراء الكواكبى بالسنة المتكلمين في ألم القرى ، وبخاصة حين يكون الخليفة إماماً روحياً محدوداً السلطان في شؤون الدولة . فليس للسلطان العثماني في هذه الحالة وجه من الوجه لإبطال بيعة الخلافة بالقوة العسكرية لواستطاعها مع جميع الأمم الإسلامية ، المستقلة وغير المستقلة ، وهو لا يستطيعها ولو بآيات له التدريعة الشرعية لاستخدام القوة العسكرية .

على أن الراجح في تقديرنا أن الكواكبى إنما أراد شيوخ الفكره بين المسلمين ببطلان دعوى الخلافة العثمانية ، لأن بقاء هذه الفكرة على شيوخها في العالم يومئذ قد يشل حركته ويضعف حجته ويمثله للناس كأنه محارب للخلافة الإسلامية مؤيد للغارة عليها من جانب الدول الاستعمارية ، فإذا ارتفعت هذه الشبهة فهو قىن أن يكسب الرأى العام إلى صفة وأن يتقى دسائس الدول التي لا يعيها أن تبها بين الأمم التابعة لها إحباطاً لمسعاها ، بل لعل هذه الدول ترحب بالخلافة المنعزلة عن الدولة وتفضلها على الخلافة التي تعتبر ضحها في ميادين السياسة الدولية .

• • •

ويحق لمن يترجم الكواكبى أن يتبناه إلى رأيه عن الدعوة في مقام حرج من مقامات الترجمة له وتقديره على حسب أعماله ومساعيه .

ونقول إنه مقام حرج لأنه مقام النظر في النيات الخفية التي يتوقف عليها الشيء الكبير في موازين التقدير والحكم على الأعمال والأخلاق ، وهي على لزومها لاستيفاء بحث المترجم وتصحيح نقده عرضة للمنازعة والمغالطة خفية . المسلط على من يحسن النية وعلى من يسيئها في تقدير العظيم .

لم أكن قد لقيت الكواكبى ولا رأيته في زيارة من زياراته للقاهرة ، لأن زيارتي الأولى كانت بعد وفاته بشهور .

ولكنني لقيت من عرفوه وصاحبوه في بعض مجالس العالم الإسلامي « محمود سالم بلث » فيها أذكر ، وهو من أقاموا زماناً في باريس لنشر الدعوة الإسلامية والرد على أقوال الصحف والساسة في المسألة الشرقية . ومن هؤلاء الذين لقوه حيث سكنت زماناً بحى العباسية – شيخ متوفى الفطنة متتبع لأحوال الزعماء الدينيين خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقدسية وبين المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام وأقطاب الدين من المصريين وكان حى العباسية وماجاوره في ذلك العصر ملتقى الكثرين من زوار قصر الدمرداش وقصور الرؤساء المعززين وأصحاب الوظائف الكبرى في القصور الخديوية ، ومنها قصر القبة مسكن الخديوي « عباس الثاني » يومذاك ، وقلما يقيم في سواه .

قال لي ذلك الشيخ الفطن : إن أناساً من أصحاب الكواكب كانوا إذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديوي ويجرى إليه في بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تسموا و قالوا : والله ما يعمل الرجل إلا لحساب نفسه . ألا ترونه حريصاً على الخلافة العربية القرشية حريصاً على النسبة إلى قريش في بيت من بيوت الإمارة ؟

ولم أعرف يومئذ موقع الصواب في هذه المחלוקת ولكنني قرأت كتب الكواكب بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو إلى غاية طويلة الأمد يعلم أنها لا تتم في حياة فرد واحد ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحبه وهو أخرى أن يطمعهم في سرعة الإنجاز وسرعة الجراء لو كان له مأرب يتعلق به ويتعلق به آمال العاملين معه غير مضطر إلى التصریح بعراوه .

وكل ما يفهم من حرص الكواكب على الخلافة العربية القرشية أنه لم يكن يعمل لمبايعة الخديوي عباس الثاني بالخلافة الإسلامية ، وأنه ربما استعان بالإضعاف خلافة عبد الحميد والانتفاع بتفوذه في البلاد المصرية ، ولكننه لا يستطيع أن يوفق بين خلافة عباس الثاني ودعوة إلى الخلافة العربية القرشية « الروحية » . ولا يرى من إشاراته إلى اختلال الأمان حول الأماكن المقدسة أنه كان يرشح أحداً من بيت معلوم ، بل ليس بين الإمارات العربية في

أواسط القرن التاسع عشر من تنفيعة دعوة الكواكب بشروطها المقررة في «أم القرى» سواء كانت دعوة إلى الخلافة أو إلى الدولة. ولكن دعوته - تلك - بشروطها من ناحية الدين وناحية السياسة تنتهي إلى غايتها إذا تفاهم الناس على شروطها وأخلقت بيعة العثمانيين في بلاد العرب، ثم قامت الجامعية الإسلامية بعد ذلك على أساس غير أساسها المرسوم في خطط عبد الحميد ..

يكتفى أن يقال إن الأمة العربية تبحث عن إمام عربي تباعيٰه بالخلافة الروحية ليبلغ الكتاب أجله ، وتصبح المسألة بعد ذلك مسألة أسماء ، وأيام .

خاتمة المطاف

ونتيجة الأخبار والواقع ، وزبدة التعليقات والمعاومات ، أننا أمام حياة عظيمة مقدرة لعمل مسمى ، ويوشك كل جزء من أجزائها وكل عنصر من عناصرها أن يشير إلى ذلك العمل ويترقب الوجهة التي اتجه إليها .

فليس في ترجمة الكواكب صفحة لا تنتظم في كتاب السيرة كما ينتظم الفصل المنتظم في السفر المجموع .

نشأته في حلب ملتقى المفارق بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، أو مجس النبض بين أعصاب العالم المعمور .

ويعيشته في متصف القرن التاسع عشر ، عصر التهضة القومية والمطامع الدولية ، وفرصة التحفز والصراع في ميادين العلم والخلق والثروة . بين الغرب المستعد بأهليته والشرق الذي لا أهله له غير الخوف والرجاء .

وأسرته التي نبت منها في منبت الجاه وانزاسة ، ووظائفه التي تشير فيه كوابن الغضب وتدفعه كل يوم مصطدم الكراهة بين إنسان وإنسان ، وبين قوم وقوم ، وبين فكرة وفكرة ، وبين مصير ومصير .

كل جانب يأوي إليه كأهله هاتف يناديه : كن عربياً للعرب ولا يهونك بعد ذلك ما يكون ، فلن يكون إلا الخير ، ولن يكون إلا خيراً مما أنت فيه .

وتحت حياة الرجل ولم تم رسالته في خدمة قومه ، ولكنها كانت كذلك رسالة مسماة ، لو اطلع على عواتها بعد مسوات معدودات لرضى عنها واطمأن إلى عواقبها ، وعلم أنه قد أراد ما يريده الزمن ، أو أنه قد سبق الزمن إلى ما أراد .

وبحسب المصلح صاحب الدعوة عرفانا بعظمته وإنصافاً لمقصده أن يسبق

الزمن وأن يحسن السبق إلى مجراه ، وأن يأتي بالغد المجهول من ظلمات الغيب فيمشي فيه على هدى قبل أن تهتدى إليه شمس النهار .

وهكذا نظر الكواكب إلى الغيب فيما اختاره من وجهة العمل للغد المجهول كأنه اليوم المعلوم ..

وضع قضية الإصلاح في موضعها ، وأصحاب من حيث أخطأ الدعاة في زمانه ، بين مخلصين منهم ومدعين !

لم تكن قضية الجامعة العربية عند الكواكب دعوة تناهض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .

كلا .. ولا كانت « الخلافة الإسلامية » أمامه هدفاً يرميه ويعاديه .

وكل ما في الأمر أنه نظر إلى لقب الخلافة في بنى عثمان فلم يعلق عليه مستقبل المسلمين ولا مستقبل العرب ولا مستقبل الترك أنفسهم ، وهم شركاء بنى عثمان في الدولة والسلالة .

ولم يمض على وفاته ربع قرن حتى كان نواب الأمة التركية في أول مجلس لم يمثلها حق تمثيلها قد عرروا هذه الحقيقة كما عرفها الكواكب وسجلها في أول صفحة من صفحاته ، فأعلنوا عزل الخليفة قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، ثم اجتمعت وفود العالم الإسلامي من نحو خمس عشرة أمة في القاهرة بعد ذلك بسنة ، وانصرفوا وهم لا يحسنون أن العالم الإسلامي رهن بذلك اللقب حيثما كان .

وهذه المعجزة ..

هذه هي آية العبرية التي تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفراً ويحسب في الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ، ومصلحة من مصالح الواقع والعيان .

كان الكواكب في عرف قوم من الجاهلين أو المتجاهلين عدو الجامعة الإسلامية ، عدو الخليفة الإسلام ، عدو لنفسه ولقومه ، عدو لأخوانه في الدين من الترك العثمانيين .

(الكواكب)

ثم ارتفع حجاب من حجب الغيب فلم يبق أحد يخالف ذلك العدو المبين
في دعوة دعاها أو في نية خفية انتواها ، لأنه صنع المعجزة بعقريرته المليمة ،
ولأنما العقريرية المليمة من آيات الله .

كان مقتدرًا بعقله على التمييز بين الأشكال والعنوان وبين الحقائق والأعمال وكان خبيرًا بالتفرق بين عوامل البقاء والنهضة في الأمم وبين مراسم السمت والزيمة في الدول والحكومات ، وكان يدرك موقع الخطأ وموقع السلامة فلا يهله ذهاب لقى ولا يئس من مصر أمة تأخذ بأساس الحياة .

وكانت هذه فضيلة العقل الثاقب في هذه العيقرية الملهمة.

أَمَا فِضْلَةُ الضَّمِيرِ الْأَمِينِ فِيهَا فَهِيَ الَّتِي أَبْتَأْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُنْ مَا يَعْلَمُ وَأَوْحَيْتُ إِلَيْهِ
أَنْ يَعْمَلَ مَا اهْتَدَى إِلَيْهِ وَلَا يَنْكُصُ عَلَى عَقْبِيْهِ .

والدنيا لا تضمن بداعجاتها على عبقرية تنفرد بالتفكير السليم ولا عبقرية تنفرد بالخلق الحميد.

ولكن الجدير بالإعجاب والتشريف معًا عبقرية يلتقي فيها سداد الفكر وشجاعة الفحص .

محتويات الكتاب

المنفذ

سورة ممدة

الكتاب الأول

الكتاب الثاني

الصينية

رقم الإيداع / ٥٧٩٩ ١٩٨٦

مطبعة نهضة مصر

المجالة - القاهرة